وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

سورية في العصور الكلاسيكية

(الهلنستية - الرومانية)

تأليف: موريس سارتر
ترجمة: محمد الدنيا

مكتبة المهتدين الإسلامية

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

سورية في العصور الكلاسيكية

(الهلنستية ـ الرومانيـة)

تأليـف : موريس سارتر

ترجمة : محمـد الدنيـا

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٨

مكتبة المهتدين الإسلامية

al-maktabeh
www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

العنوان الأصلي للكتاب :

LA SYRIE ANTIQUE

Maurice Sartre

سورية في العصور الكلاسيكية: الهلنستية - الرومانية = La Syrie antique

/ تألـــيف موريـــس سارتر ؛ ترجمة محمد الدنيا .- دمشق : وزارة الثقافة،

٢٠٠٧ .- ٢٠١ ص ؛ ٢٤ سم. (تواريخ ؛ ٧)

١-٩٣٣,٧ س ا ر س ٢- ٩٣٣,٨ س ا ر س ٣- العنوان

٤- سارتر ٥- الدنيا ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

تــواريـخ

«٧»

http://www.al-maktabeh.com

حدث كل شيء في معركة واحدة. في تشرين الثاني ٣٣٣ ق.م في سهل «إيسوس» أقصى شمال - شرق البحر المتوسط، فوجيء الإسكندر الكبير بحركة التفاف من العدو، فوجد مؤخرة جيشه على الأبواب السورية. لكنه، عشية المعركة، بقي سيدَ الميدان، بل وسيد معسكر داريوس، مع نسائه وكنوزه. اختار داريوس الهروب شرقاً، إلى ما بين النهرين، ليجند جيشاً جديداً. وانفتحت سورية كلها أمام الإسكندر.

نظـراً لـتماس سـورية بحـوض البحر الأبيض المتوسط وبلاد ما بين النهرين، امتزجـت فيها مختلف التأثيرات منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وهكذا، فإن تمثال إبـه - إيـل، الذي عثر عليه في ماري (يعود إلى ٢٧٠٠ قبل الميلاد، وهو معـروض الـيوم فـي مـتحف اللوفر «المترجم»)، يرتبط مباشرة بالحضارة السـومرية التـي ازدهـرت فـي مـا بيـن النهريـن الأدنى والتي تمثل مدينتها ماري أبعد مراكزها غرباً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

ثلاثة آلاف سنة من التاريخ

هكذا بدأت ألف سنة من الهيمنة السياسية، والاقتصادية، والثقافية للإغريق ثم للرومان، الذين تركوا في البلاد آثاراً عديدة، من أنطاكية حتى بصرى وأرادوس (أرواد) ودورا – أوروبوس (الصالحية). إلا أن هذه الألف سنة لم تكن سوى لحظة من تاريخ أطول بكثير.

عندما استولى الإسكندر على البلاد، كان قد مر عليها غزاة كثيرون، وشعوب عديدة مختلفة كانت قد تمازجت، بحيث أنه لم يعد هناك أي مبرر لوصف هذا الفتح الجديد بأنه الأبلغ تأثيراً بين الفتوحات الأخرى. ودون العودة إلى أكثر من خمسمائة سنة إلى الوراء، فإن البلاد قد سيطر عليها بالتعاقب الآشوريون (القرن الثامن – القرن السابع قبل الميلاد)، فالبابليون (٦٠٩ – ٥٣٩ ق.م)، فالفرس (٥٣٩ – ٣٣٣ ق.م). وعندما وقع الغزو المقدوني، كان سكان سورية قد فقدوا عادة الاستقلال منذ زمن بعيد جداً.

التقاطع السوري: الألف الثانية – الألف الأولى

علينا التوغل في الزمن أبعد من ذلك لنأخذ بالحسبان مختلف مكونات السكان. ذلك أن سورية موجودة على ملتقى الإمبراطوريات والشعوب، الإمبراطوريات التي غالباً ما سعت إلى السيطرة عليها، ونجحت أحياناً: في الشمال، إمبراطورية الحثيين[١] لفترات طويلة إبان الألف الثانية؛ وفي الشرق، أكديو[٢] سرجون نحو ٢٣٠٠، ثم حوريو[٣] مملكة ميتاني (نحو ١٥٠٠) والآشوريون[٤] منذ القرن الثالث عشر؛ وفي الجنوب، المصريون الذين لم يكفوا عن اعتبار التحكم بالدول السورية شرطاً لأمن مصر. وعلى الشاطئ المتوسطي، استخدموا بيبلوس (جبيل) رأس جسر منذ الألف

مكتبة المهتدين الإسلامية

الثالثة، ووطد عددٌ من الحملات المصرية، مرات عديدة خلال الألف الثانية، سيطرةً مصرية اسمية على المناطق الجنوبية، حتى نهر الفرات شمالاً أحياناً. لم يمنع هذا التاريخ المضطرب سورية إبان الألف الثانية من أن تحافظ على بنى سياسية مستقلة ذاتياً نسبياً، على شكل ممالك واسعة بهذا القدر أو ذاك، ولكن مقابل كثير من التضحيات: الوصاية المعترف بها من جانب الإمبراطوريات الكبرى كلّفتها جزيات ثقيلة، وكان من شأن كل تمرد أن ينتهي بحروب فاجعة بالنسبة للممالك السورية. وقد اندثر الكثير منها، مثل إيبلا[٥] نحو ١٦٠٠ ق.م، أو نُمِّر.

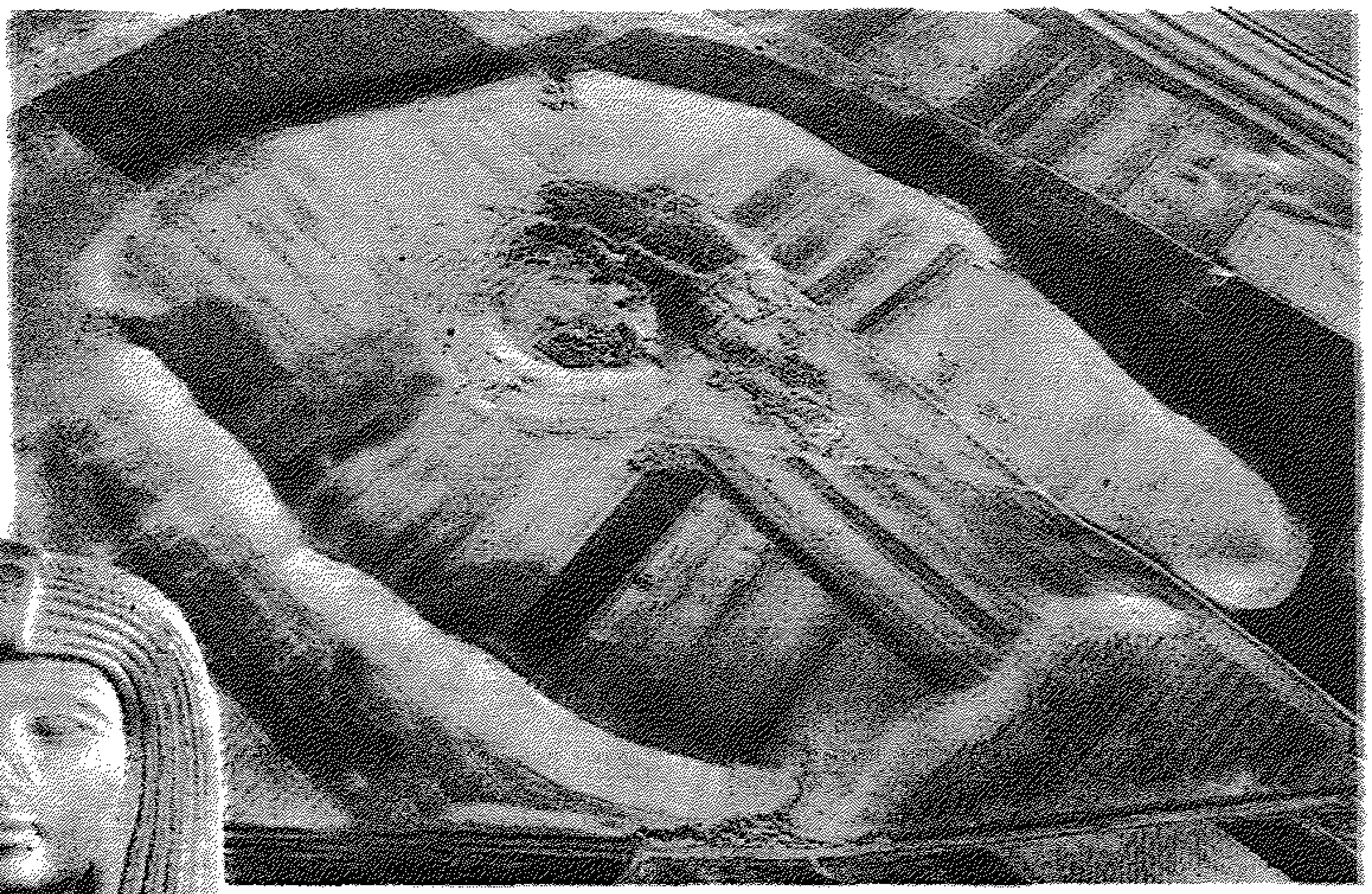

تبين هذه الأرض العملاقة المحاطة بالأسوار موقع «إيبلا» (تل مرديخ)، التي كانت عاصمة لمملكة ناشطة منذ الألف الثالثة، في منتصف الطريق بين البحر المتوسط والفرات. على الشاطىء، خصوصاً في بيبلوس، استمر الوجود المصري حتى بداية الألف الأولى، مثلما يؤكده وجود التمثال النصفي للفرعون أوزوركون الأول Osorkon Ier (٩١٢ – ٨٧٤)، الذي قدمه الملك إيلابيل إلى سيدة بيبلوس.

http://www.al-maktabeh.com

المدينة، وحدة سياسية أساسية

السمة الأبرز في تاريخ سورية خلال هاتين الألفيتين هي دون شك عدم قدرتها على إفراز سلطة قوية ومركزية. كان نجاح المدينة، المركز الحضري والوحدة السياسية الأساسية في الوقت نفسه، واضحاً منذ الألف الثالثة؛ بالمقابل، لما كانت كل مدينة تدافع عن استقلالها بحرص شديد، وأياً كانت الشعوب المتعاقبة عليها، فقد استمرت التجزئة.

مع ذلك، كان الساميون العنصر الغالب. لم يشكلوا جماعة متجانسة، واستقبلت سورية بالتالي موجات عديدة تميزت بشكل خاص باللغة وأسماء العَلَم. ولزمن طويل، أطلق على أقدم ساميي الشرق الأوسط اسم «الكنعانيين»(٦). أما اليوم،

في أوغاريت تطورت الكتابة تطوراً حاسماً، حيث انتقلت من مرحلة الكتاب الهجائي (مجموعة أو مئات من إشارات خطية تتوافق ومقاطع لفظية) إلى أبجدية من ثلاثين حرفاً. مع ذلك، استمرت هذه الأبجدية الأولى تستخدم الإشارات المسمارية، وهوما لم يتح كثيراً استخدام حوامل أخرى سوى الصلصال الطري.

فيفضَّل استخدام العبارات التي تتيح إبراز تنوعهم بشكل أفضل. ذلك أن الإيبلائيين، الذين أنشأوا مملكة في سورية الشمالية قبل ٢٣٠٠ قبل الميلاد يختلفون عن مؤسسي الحضارة المدينية في سورية الجنوبية، وفلسطين وسورية الساحلية. من الأفضل إذن الحديث عن أرض سامية – غربية قديمة انتقلت ملامح سكانها إلى القادمين الجدد.

زمن الممالك الكبرى: ماري، إيبلا، بيبلوس، أوغاريت

نحو ٢٣٠٠، دمِّرت المدن السورية فجأة، وعلى أنقاضها أعاد قادمون جدد، العموريون، وهم أيضاً ساميون، بناء ممالك قامت أقواها في ماري (في ما بين النهرين)، وكركميش (جرابلس) على الفرات، وحلب (مملكة يمحاض)، وإيبلا،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقطنا في سورية الشمالية. تأثير ما بين النهرين كان جلياً في الفن، وتشهد الوثائق المكتوبة على قيام علاقات متواصلة مع سومر، وبابل، ثم آشور. وعلى الساحل، بدت بيبلوس وأوغاريت المدينتين الأقوى.

وخلال الألف الثانية، تعرضت هذه المدن لتقلبات عديدة خاصةً في إطار «صراع الإمبراطوريات». واختفت أيبلا نحو ١٦٠٠ ق.م، بعد أن دمرها الحثيون، بينما خضعت كل الممالك الأخرى للدول المجاورة على التوالي: أولاً لحوريي ميتاني، ثم للحثيين، وأحياناً للمصريين بالنسبة للدول الساحلية. إلا أن حالات الخضوع هذه المتتالية لم تكن كلها مساوىء، إذ جعلت سورية ملتقى تأثيرات فنية وفكرية.

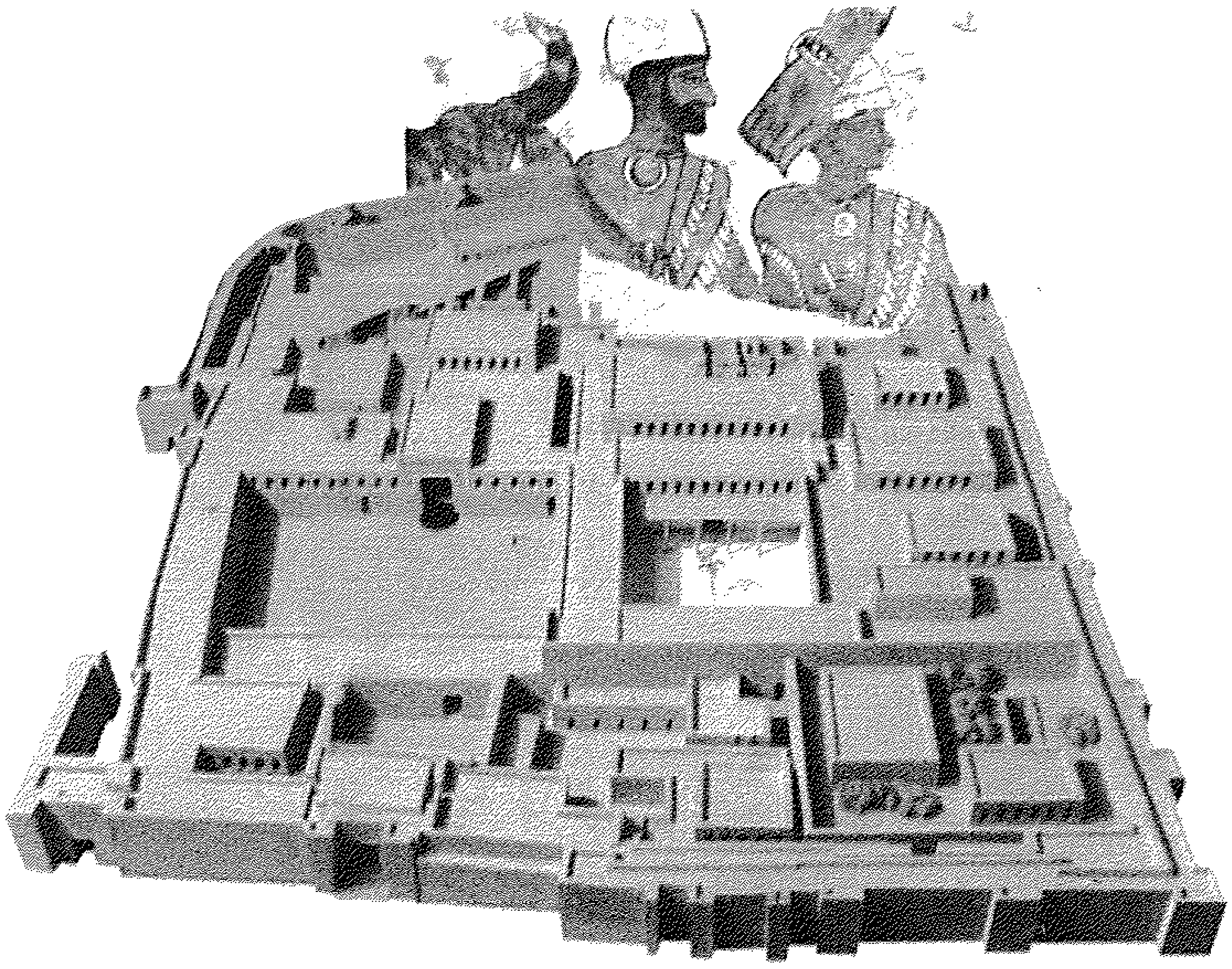

في الفرات الأوسط، أسس ملوك ماري، نحو نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد، مملكة قوية كانت تسيطر في الوقت نفسه على وادي الفرات ووادي الخابور، الطريقين التجاريتين الرئيسيتين بين سورية وما بين النهرين. ولما أثراهم هذا الوضع المميز، زودوا المدينة بـ «زقورة» (برج صلب البنيان ذو طوابق)، ومعابد، وقصر ضخم (الصورة هنا تمثل مخطط القصر). شهدت المدينة أوج ازدهارها في ظل حكم زيمري-ليم (١٧٧٤ - ١٧٥٩)، ولكن، عقب موت الملك، في مواجهة مع حمورابي، ملك بابل، دمر هذا الأخير المدينة، التي كانت تشكل عقبة في طريق توسع إمبراطوريته نحو الغرب. ولم تنهض بعد ذلك قط .

http://www.al-maktabeh.com

العالم الآرامي

نحو العام ١١٨٠ ق.م، تعرض الشرق الأوسط كله لموجة من عمليات التدمير التي نسبت، جزئياً على الأقل، إلى «شعوب البحر» ، غير المعروفين جيداً، ولكن القادمين في معظمهم من الشمال الغربي (كريت، حوض بحر إيجة).

بنتيجة الزوال النسبي للآشوريين بعد موت «تغلث فلاسر» الأول (١٠٧٧)، أسس الآراميون مجموعة من الممالك الصغيرة المستقلة في سورية (دمشق، حماة) وعلى الفرات (كركميش [جرابلس]، تل برسيب [تل أحمر]، حران، وغوزانا). إلا أن التوجه نحو البحر بقي أحد الأهداف الثابتة للملوك الآشوريين في الإمبراطورية الحديثة، وقام توكولتي – نينورتا الثاني Tukulti - Ninurta II بإخضاع منطقة حران. وتمكن أخلافه من جعل الأمراء الآراميين يدفعون الإتاوة، بل وأيضاً المدنَ الفينيقية. وسقطت غوزانا على يد أدد – نيراري الثالث بين ٨٠٠ و ٧٩٠، بعد وقت قصير من حكم أدد ييس إي Hadad -yis`i ، الذي قدم صورته إلى الإله أدد (هدد)، «حاكم مياه السموات والأرض، الذي يصب الثروات، ويوزع المراعي والأراضي المروية»، مثلما يشير إليه تسجيل مكتوب باللغتين الآشورية والآرامية على أسفل ثوبه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

إلا أن شعباً سامياً جديداً، الآراميين[٧]، جاء في الوقت نفسه إلى ما بين النهرين، إلى وادي الفرات، عند أطراف سورية الداخلية. أفاد الآراميون من تدمير الدول، وتوطنوا في سورية الداخلية، وأقاموا فيها دولاً جديدة، من دمشق في الجنوب إلى زنجرلي في الشمال، مروراً بحماه وحلب، وأقاموا في وادي الفرات، وفي واحة تدمر. كان تأثيرهم بالغاً، وانتشرت لغتهم سريعاً في كل سورية الداخلية: وجدت نوى الحوريين والحثيين السكانية نفسها، إذ كانت متماسكة كفاية أحياناً في سورية الشمالية، تتحول بسرعة إلى السامية بتأثير القادمين الجدد، كما أضحى الأموريون (أقوام سامية) أنفسهم آراميين في وقت لاحق. في الواقع، مع نهاية الألف الثانية، انصهروا كلهم في مجموع الآراميين. ويعود تفسير هذا النجاح إلى تبني هؤلاء كتابة خطية شبه أبجدية تتيح للمكتوب الانتشار بسرعة خارج حلقة الكَتَبة الضيقة. وتعزز هذا النجاح المبكر أكثر مع الاحتلال الأجنبي الذي جعل من الآرامية اللغةَ الإدارية: استخدم الآشوريون الآرامية، منذ القرن الثامن، ثم فرضها الفرس كلغة مألوفة لكل الإمبراطورية، من وادي الهندوس حتى الدردنيل. بالنتيجة، في سورية نفسها، ظلت الآرامية تزدهر: عشية الغزو المقدوني، سادت في كل مكان، باستثناء فينيقيا. حتى العرب، الذين ظهروا عند حدود المجال السوري، في وادي الفرات، وفي جبال لبنان الشرقية وفي السهب، شرق جبل الدروز، تبنوا الكتابة الآرامية، في الوقت الذي استمروا يتكلمون لهجتهم: وتلك كانت حال الأنباط.

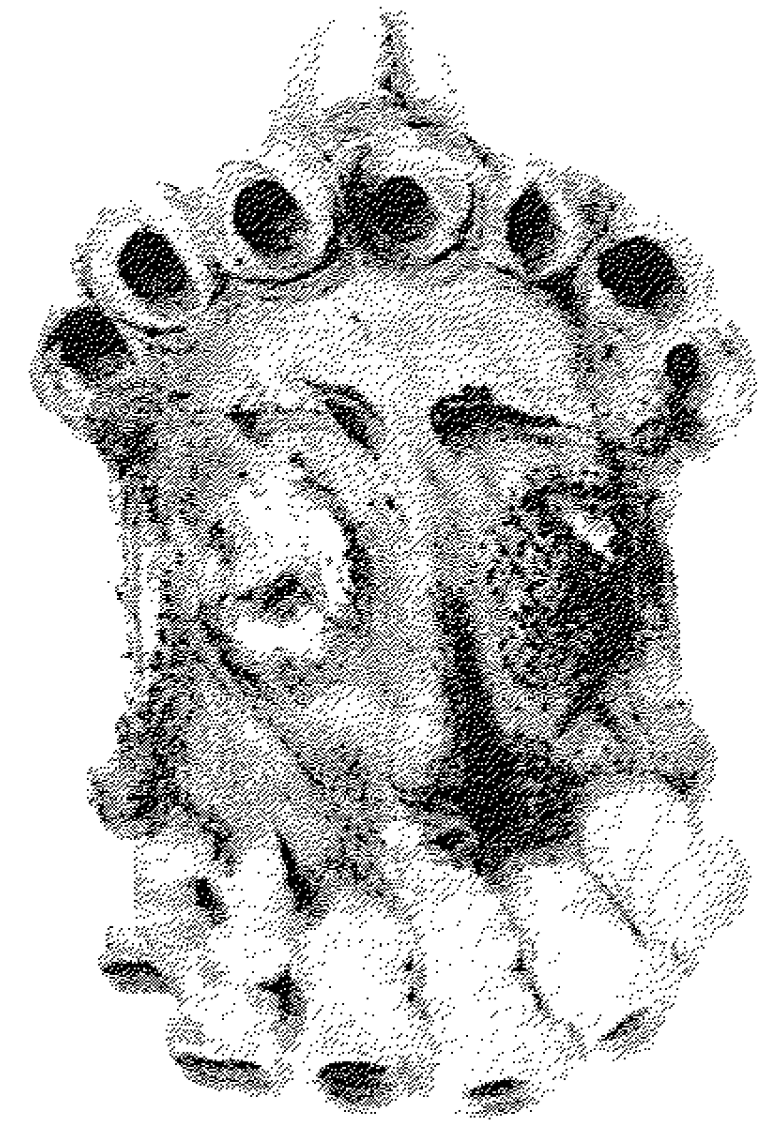

كان الفينيقيون، البحارة المهرة، يترددون إلى كل أرجاء البحر المتوسط منذ القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد، على متن مراكبهم الطويلة والشراعية. وكان بناء قرطاجة بمفرده نحو ٨٠٠ ق.م رمزاً لقوة الصوريين، الذين كان لهم حضور أيضاً في العديد من المرافىء الإغريقية والإسبانية.

http://www.al-maktabeh.com

المقاطعات الفينيقية

مع ذلك، شذ عن هذه الظاهرة جزء من الساحل السوري بين عكا في الجنوب وأرواد في الشمال. هنا، شهدت مجموعة من المدن، كانت موجودة من قبل دون شك ولكن عاشت بعيداً عن الضوء نسبياً، حضارةً لامعة وغير آرامية. أصحاب هذه الحضارة هم الفينيقيون، الذين بدوا أنهم بلا اسم نوعي يميزهم، إذ حمل كل منهم الاسم القومي لمدينته.

منذ القرن الخامس قبل الميلاد، سك الأخمينيون الشاقلات الفضية للاستعمال في فينيقيا، على غرار النقود الإغريقية التي كانت متداولة فيها منذ وقت طويل، في حين كان الملوك الفينيقيون أنفسهم يصدرون النقود الفضية (هنا، نقد من عهد ستراتون الأول Straton I ملك صور)، التي عممت موضوعاتهم الأيقونوغرافية.

لم يكن هؤلاء الفينيقيون بأية حال من القادمين الجدد، بل بالأحرى الأخلاف البعيدين لسكان الأرض السامية الغربية، الذين امتزجوا بعناصر أخرى قدمت عبر القرون. وسجل رخاء مدنهم الجديد أيضاً ظاهرة رئيسية حدثت نحو العام ١١٨٠ ق. م: بدت سورية، التي كانت حتى ذلك الحين تحت التأثير المستمر لما بين النهرين، رغم رؤوس الجسور المصرية، تتكفىء نحو البحر المتوسط. ومن صور، وصيدا، أو أرواد، المدن الفينيقية الرئيسية، انطلقوا تجاراً ومغامرين، نحو الغرب، نحو العالم الإيجي، خصوصاً حيث أعادوا إدخال الكتابة التي اختفت منذ سقوط الممالك الميكينية **mycéniens**، وتركوا دون شك صورة عن تنظيم مديني عرف النجاح المشهود.

مكتبة المهتدين الإسلامية

سورية، مرزبانية أخمينية

لما أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية منذ حكم قورش الكبير (نحو ٥٥٠ – ٥٣٠)، شكلت سورية مرزبانية «عبر النهرين» Abr - Nahrain، «ما وراء النهرين» بالنسبة لمراقب موجود في الشرق. وبينما عادت من المنفى شعوب كان قد أبعدها البابليون (كما في منطقة حلب)، قسمت البلاد بدقة إلى تربيعات، عسكرياً وإدارياً. وأضيفت أملاك كبيرة،

بعد أن صاروا تحت السيطرة الأخمينية، في نفس الوقت مع حكامهم البابليين القدامى، صُوِّرَ الفينيقيون بنقوش بارزة على مداخل قصر بيرسبوليس (الصورة)، بين شعوب الإمبراطورية الأخرى الخاضعة للإتاوة. ونميزهم في الصورة من لباس رأسهم، ونراهم يقدمون للملك الكبير مختلف نتاجاتهم الحرفية: كؤوساً، وأساور، وحلياً، وأيضاً عربة حربية يجرها حصانان. وبالنسبة للعاهل الأخميني، فقد أدوا دوراً جوهرياً في بناء أسطول فارسي في البحر المتوسط، وكان ذلك أمراً حتمياً لتوجيه الحملات ضد الإغريق.

كانت ممنوحة للحاشية الملكية، إلى «الفراديس» الملكية، بساتين الصيد تلك وأراضي التجريب الزراعي التي أوجدت بمبادرة من «الملك الكبير»، كما هو الحال في صيدا. قدم الشاطىء الفينيقي، هذا الموقعُ الاستراتيجي الرفيع الأهمية، جزءاً جوهرياً من البحرية الأخمينية (خصوصاً خلال الحروب الميدية)، واستقبل جيوش المرتزقة (خصوصاً

http://www.al-maktabeh.com

من الإغريق) التي جُندت لغزو مصر، فكان بمثابة نقطة الارتباط بين الإمبراطورية الفارسية والبحر المتوسط.

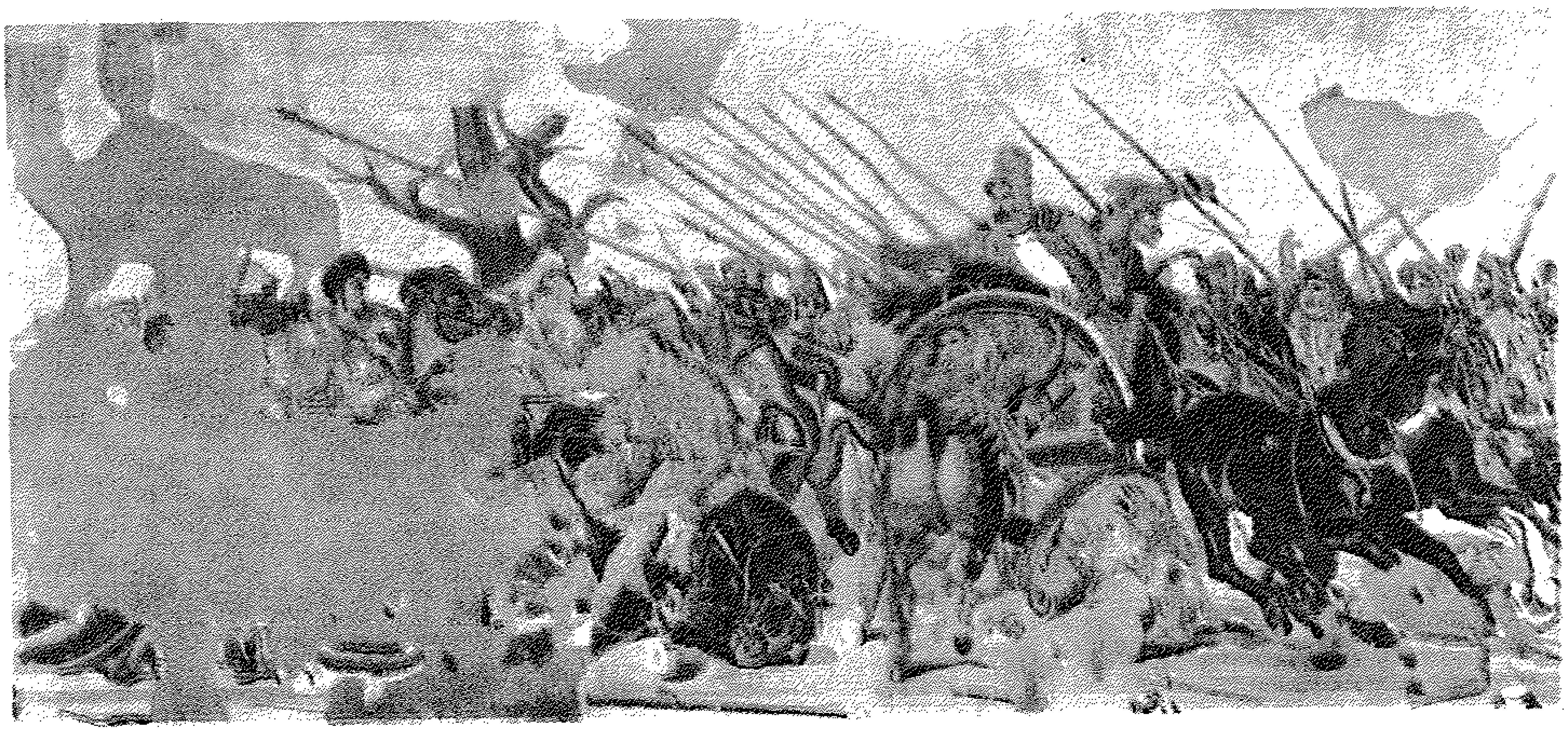

اعتبرت اللوحة الفسيفسائية الشهيرة في بيت الـ «فون» Faune في مدينة بومبيي الإيطالية على أنها تصوير لمعركة إيسوس، وهي مستوحاة دون شك من أعمال الرسام الإغريقي الأشهر أبيليس، معاصر الإسكندر، وتصور على الأرجح معركةَ كوكميلة قرب إربيل. وإلى اليمين، داريوس، بلا سلاح، مهزوماً وهارباً ومخلياً المكان لغريمه الذي يهدده بالرمح.

غزو خاطف

عشية معركة إيسوس، هل ظن داريوس أن الإسكندر سيطارده وأن القوات الأخمينية الباقية في سورية ستستخدم للإطباق على المقدوني بين فكي كماشة؟. ربما، لكن الإسكندر كان له خيار آخر فرضه عليه في الواقع بقاء أسطول أخميني قوي في البحر المتوسط. وبعد أن أرسل قائده المخلص «بارمنيون» للاستيلاء على الكنوز الملكية المحفوظة في دمشق، سار جنوباً بطول الساحل، إذ أن السيطرة على المرافىء تحرم الأسطول الأخميني من أية قاعدة للتراجع.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لم يكن ذلك في جوهر الأمر سوى نزهة عسكرية، إذ احتشد الملوك الفينيقيون بعضهم إثر بعض: غيرت أرادوس (أرواد)، وبيبلوس (جبيل)، وبيريتوس (بيروت)، وصيدا، مواقفها. واستقبلت حتى صور سفراء الإسكندر بالمراسم. مع ذلك، انغلقت هذه المدينة فجأة، دون أ ن تُعرف الأسباب بشكل حقيقي. هل اعتقد الصوريون أنهم في مأمن على جزيرتهم بانتظار تتمة الأحداث؟ هل كانوا يأملون تغيراً محتملاً في مصير الإسكندر؟ نذكر أن ذلك قد حصل لأسباب دينية:

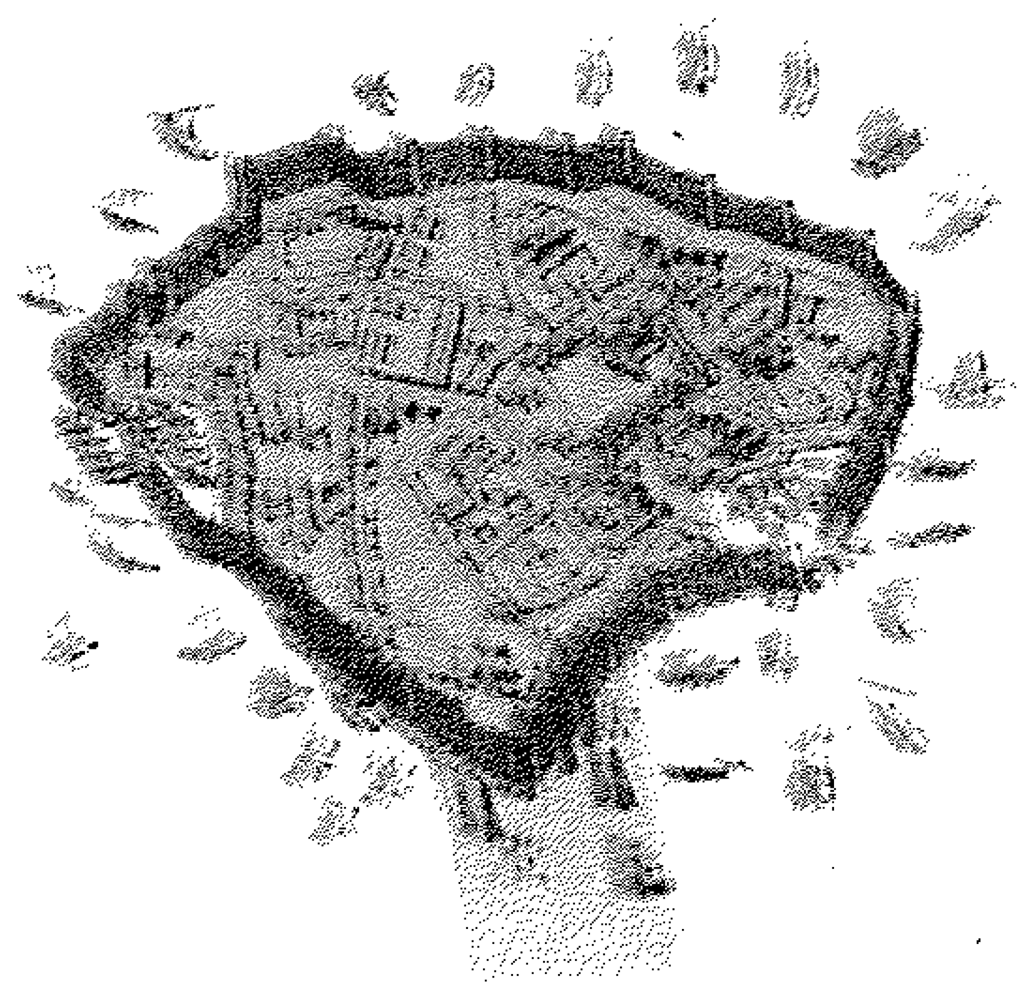

رفضت صور المنغلقة داخل جزيرة صغيرة قرب الشاطيء، الاستسلام للإسكندر. ولما كان الغازي المقدوني مجرداً من أسطوله، غير قادر في الوقت نفسه على ترك هذا المرفأ للسفن المعادية، فقد حاول عبثاً أن يغمر المضيق بحائل أمواج قوامه أشجار وأكوام حجارة انتزعها من التلال المجاورة. أخيراً، وبدعم من أسطول صيدا، تمكن الإغريق من الاستيلاء على المدينة الفينيقية. والنتيجة غير المتوقعة لهذا الحصار هي أن المواد التي ألقتها وحدات الإسكندر في البحر أفضت إلى تثبيت الرمال، واتصلت صور مع مرور الزمن بالقارة عبر برزخ.

أراد الإسكندر أن يضحي لإله صور الكبير «ملقارت»، هيراكليس الإغريق، الذي اعتبر جدَّ سلالته. لكن الصوريين رفضوا قبول هذه التضحية، مؤكدين أن ملك صور وحده يمكنه أن يضحي في المدينة. اشتبه الإسكندر بوجود مؤامرة للتهرب من الولاء الذي طلبه. بذلك، بدأ حصاراً للمدينة الجزيرية، صور، دام سبعة أشهر. كان يمكن لصور، التي أجاعها الحصار، أن تخاف أيضاً من جسامة الأعمال التي راح يقوم بها المقدونيون من أجل أن تستسلم المدينة. مع ذلك،

http://www.al-maktabeh.com

استسلمت أخيراً خلال صيف ٣٣٢. وقمعها الإسكندر بوحشية، رغم بقاء ملكها أزلميلكوس (أو عزي ملك) في مكانه. وتركزت حامية مقدونية في صور. وتمكن الإسكندر أخيراً من أن يتابع طريقه جنوباً، حيث قاومت غزة شهرين، وبلغ مصر.

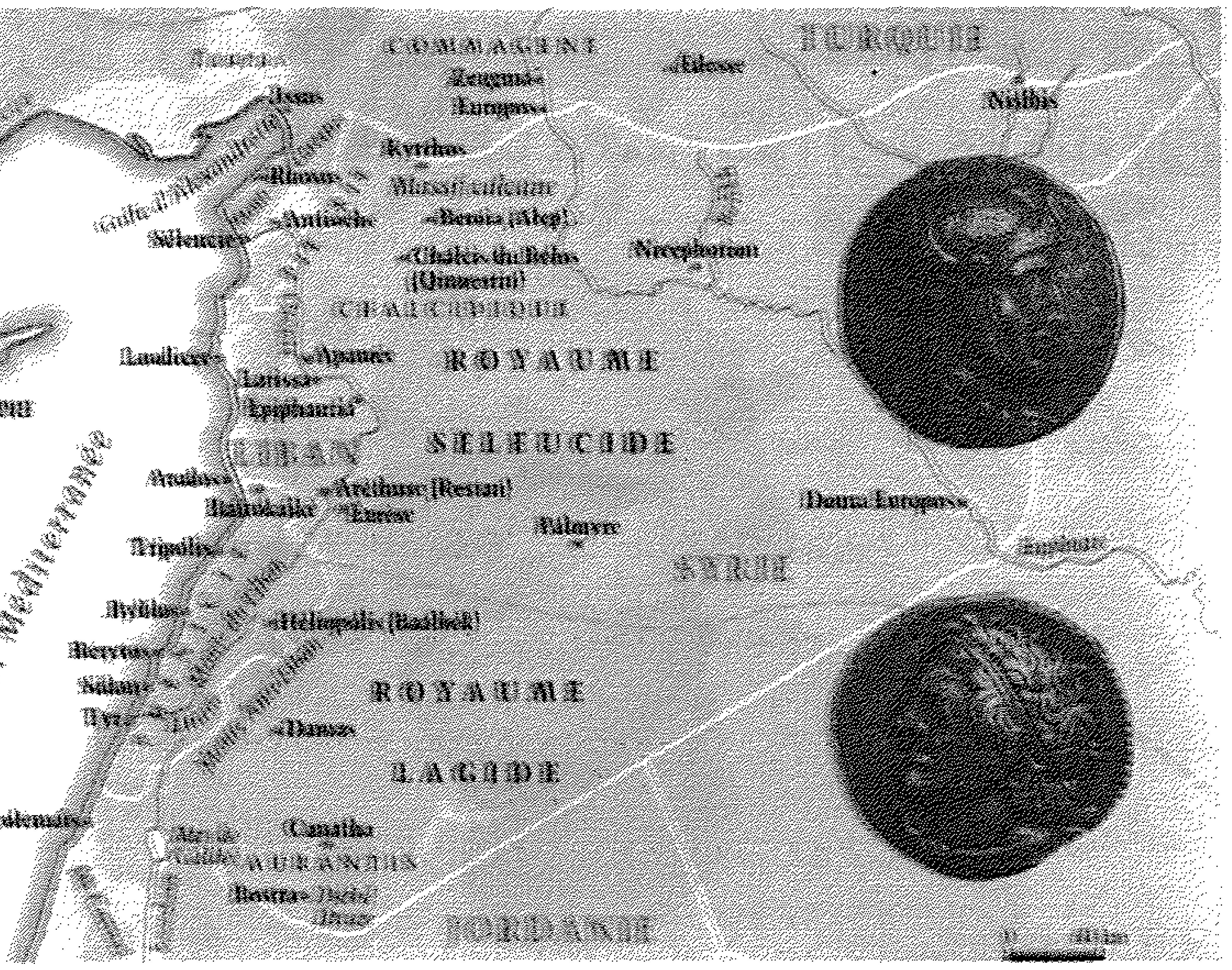

كانت سورية المؤلفين القدامى تغطي مجمل البلدان التي سكنها الآراميون الحضر من إديسا (الرها) ونصيبين في الشمال حتى عسقلان (غير موجودة على الخريطة هنا) في الجنوب، بما في ذلك فينيقيا الساحلية، من أرواد إلى عكا. بالمقابل، أطلقوا اسم العربية Arabie على كل المناطق التي يعبرها البدو الرحل، من الرها حتى سيناء. في الخريطة هنا، الأقسام الشمالية من سورية القديمة، وتلك التي تنتمي اليوم في معظمها لسورية ولبنان، وكذلك قسم من تركيا.

عبر الإسكندر سورية ثانيةً في صيف ٣٣١، في طريقه إلى ما بين النهرين. أصبحت سورية بالنسبة للوحدات المقاتلة شرقاً قاعدة خلفية في غاية الأهمية. إذن، فعبرها تمر كل التعزيزات، وكل المؤن، القادمة من اليونان، ومن مقدونيا، ومن آسيا الصغرى، براً وبحراً. وضعت مشاغل النقد الفينيقية في خدمة الغازي، في حين أنشئت ورشة ملكية جديدة في دمشق، الأولى في الداخل السوري.

مكتبة المهتدين الإسلامية

حروب التركة: السلوقيون واللاجيون

عند موت الإسكندر (حزيران ٣٢٣ ق.م)، أسندت مرزبانية سورية إلى لاوميدون الميتيليني، ولكن سرعان ما تبين أن الرهان هو أكبر من أن يوكل أمر إدارتها إلى رجل من المرتبة الثانية. فخلال أكثر من عشرين عاماً، كانت سورية محط أطماع أكثر أخلاف الإسكندر طموحاً، ممن سعوا إلى تركته كاملة (بيرديكاس،

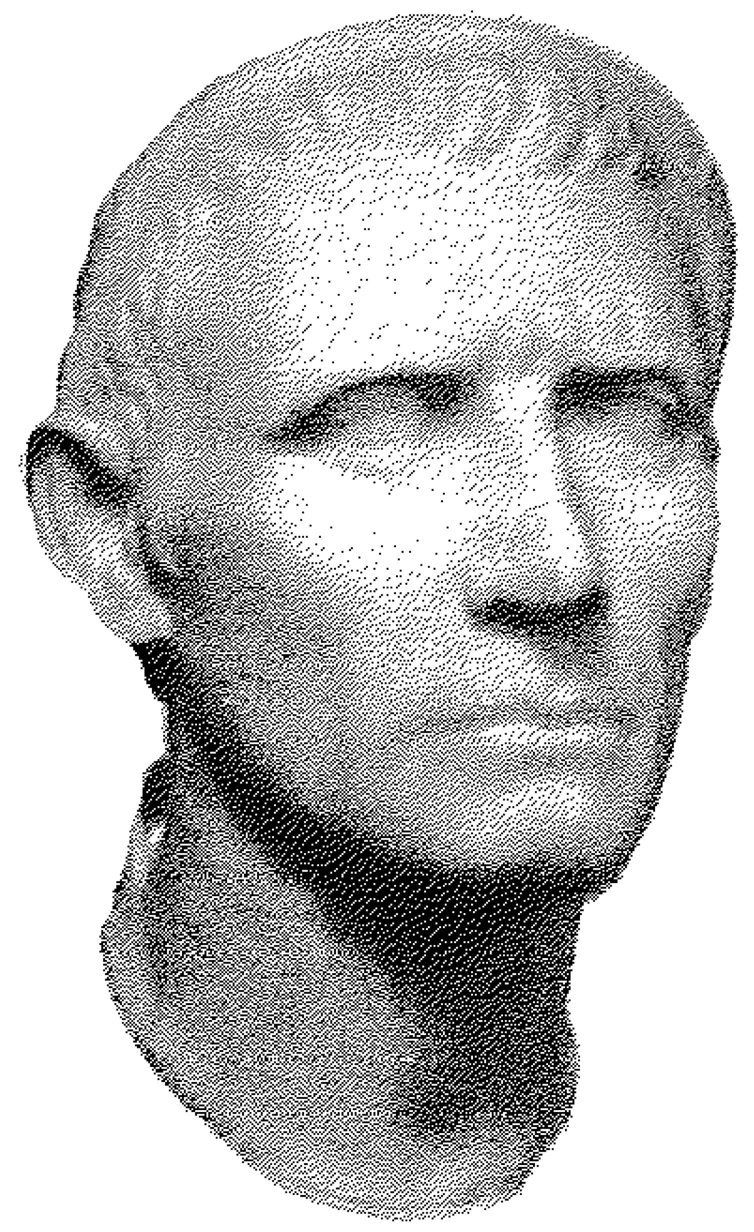

عرف الملوك الهلنستيون كيف يبرهنون عن مزاياهم كإداريين وبناة وحماة للفنون والآداب. سلوقس الأول (الصورة في أعلى الخريطة) وبطليمس الأول كانا من بين أوائل الناشطين في هذا المضمار، بل أيضاً أنطيوخس الثالث (الصورة في أسفل الخريطة) الذي تمكن من إعادة توحيد سورية بين الأيدي نفسها.

وأنتيغونس الأعور، وسلوقس)، أو أملوا فقط، مثل بطليموس، في الاستئثار بمملكة من بين مغانم المقدوني. كانت الحروب متلاحقة والتطورات كثيرة. انشغل بطليموس، الذي انقض حرفياً على مصر مع موت الإسكندر، باحتلال الجزء الأكبر من البلاد منذ عام ٣١٩، بحيث يغطي الخاصرة الشمالية الشرقية من الدلتا وتدارك أي غزو مفاجىء لمجاله. من جانبه، وطد أنتيغونس الأعور قدميه منذ عام ٣١٩ – ٣١٨ على أنه الرجل القوي الأقدر على حكم القسم الأكبر من إمبراطورية الإسكندر، وسعى جاهداً إلى إبقاء

http://www.al-maktabeh.com

خصومه، بما في ذلك بطليموس، خارج سورية. تبين أن التحكم بالمرافىء الفينيقية حتمي للحفاظ على علاقات سهلة مع ما بين النهرين، وإيران، وآسيا الوسطى. لم تكن هذه السيطرة موضع تنازع مع بطليموس فقط، بل أيضاً مع سلوقس، جنرال الإسكندر الآخر الذي أفلح، بمساعدة بطليموس، في التحكم بزمام بابل عام ٣١٢.

ازداد التنافس حدة بعد اغتيال ورثة الإسكندر عام ٣١٠ واستيلاء القادة الحربيين الرئيسيين على اللقب الملكي (٣٠٧ – ٣٠٦). في العام ٣٠١، عقب معركة إبسوس، التي قتل فيها أنتيغونس الأعور، وجد سلوقس نفسه ذلك الحين يحظى باعتراف حلفائه له بامتلاك سورية كلها. هرع إلى هناك، واحتل عملياً كامل سورية الشمالية، ولكن كان عليه أن يعترف بواقع الحال: يسيطر بطليموس على كامل نصفها الجنوبي، بما في ذلك الساحل الفينيقي، باستثناء صور وصيدا اللتين لم يتخل عنهما ديمتريوس مُحَاصِر المدن إلا عام ٢٨٨ – ٢٨٦.

وباسم إسداء الخدمات، السابقة، والصداقة الطويلة بينهما، تخلى سلوقس عن شن الحرب على بطليموس، دون تنازل عن حقوقه. هذه الموقف التطميني لم يسوّ شيئاً: مع موت بطليموس الأول (٢٨٣)، ثم سلوقسس الأول (٢٨١)، لم يكن أمام ورثتهم أي مبرر لمراعاة كل منهم الآخر. في الواقع، حدثت حروب عديدة خلال القرن الثالث قبل الميلاد تجابه فيها سلوقيو أنطاكية مع لاجيي الإسكندرية بهدف استعادة ما اعتبروه أراضيهم. وتمكن أنطيوخس الثالث من ذلك عام ٢٠٠ – ١٩٨ عقب حملة قوية غير خلالها الكثير من الناس ولاءاتهم. أخيراً، أعيد توحيد سورية بين أيدي ملوك أنطاكية.

هذه الوحدة الجميلة لم تستمر طويلاً. لم يتخل اللاجيون(٨) عن استرجاع سورية الجنوبية وفينيقيا: طلبتهما كليوباترة السابعة مرة أخرى لأنطونيوس

مكتبة المهتدين الإسلامية

مرقس[٩] عام ٣٧ – ٣٦. إلا أن اللاجيين لم يستطيعوا أبداً تحقيق هذا الهدف في الواقع. واكتفوا بإذكاء الخصومات والثورات في قلب المملكة المنافسة، ونجحوا في ذلك. تمثلت الأزمة الأخطر في الصراع داخل السلالة الحاكمة الذي تقابلت فيه فروع متنافسة من الأسرة السلوقية خلال ما يقرب من قرن، من عام ١٦٢ إلى عام ٦٥. ونادرون هم الزعماء الذي تمكنوا من السيطرة على البلد كله. وكنا نرى غالباً عضوين من الأسرة، وأحياناً ثلاثة أعضاء، يعلنون أنفسهم ملوكاً في ذات الوقت. وإزاء القدر الكبير من الفوضى، لم يطل الوقت بالسلطة لتنتقل إلى أيد أخرى.

تجزيء سورية السلوقية وظهور الدول المستقلة

حث ضعف السلطة الملكية الكثير من الجماعات السكانية على أن تأخذ على عاتقها بنفسها شؤونها الخاصة. تلك كانت أولاً حال اليهود، عقب تمرد أملته إرادة اليهود المهلّنين في تحويل أسلوب الحياة التقليدي بإدخال أشياء جديدة لا تحتمَل كارتياد قاعات الرياضة البدنية وإنشاء مدينة «على الطريقة الإغريقية» في القدس. ثار كهنة اليهود، المهددون بالزوال بفعل منشور ملكي يحظر التوراه، وحرروا القدس، بقيادة يهوذا المكابي[١٠] وإخوته. وبعد حرب استنزاف ومساومات طويلة، توصلوا إلى إنشاء دولة جديدة، المملكة الحشمونية[١١]، التي سرعان ما تبنت سياسة الغزو. وفي بداية القرن الأول، بلغت شمالاً أطراف الجولان وحوران ولبنان.

من الجانب الآخر للبحر الميت، ولدت المملكة النبطية في ظروف أخرى مختلفة جداً، إذ أنها كانت قائمة منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وبدا أنها لم تخضع قط لحكم اللاجيين ولا لحكم السلوقيين. وأتاح لها ضعف الملكية السلوقية التقدم نحو الشمال.

http://www.al-maktabeh.com

في منتصف القرن الثاني تحكم ملوك البتراء بالجزء الأكبر من شرق الأردن ثم سيطروا في نهاية القرن في أقصى حد على بصرى. في عام ٨٤، استنجد سكان دمشق بالملك النبطي الحارث الثالث لحمايتهم من قطاع الطرق. وصلت مملكة الأنباط حينذاك إلى أقصى توسعها؛ ولو أن دمشق، عام ٧٢، أخليت من سكانها، فقد بقي جزء كبير من سورية الجنوبية الحالية محتلاً طيلة ما يقرب من قرنين آخرين.

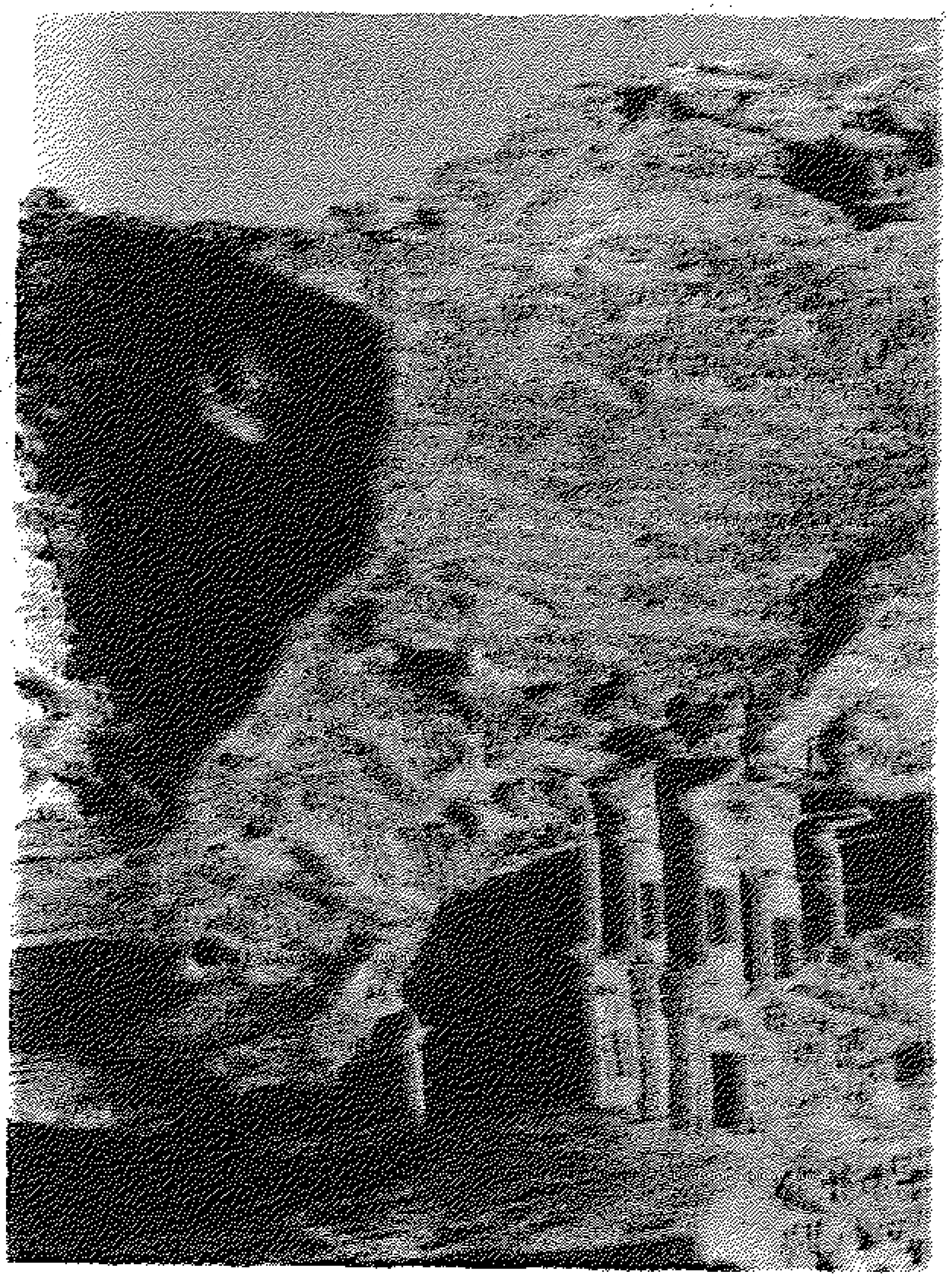

يعود أقدم شاهد على موقع بترا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ونظراً لاختبائها في قلب الجبال، فقد شكلت في البداية ملجأ رهيباً يسهل الدفاع عنه، ولما أصبحت عاصمة لمملكة الأنباط القوية، في القرن الأول قبل الميلاد، ازدانت بأوابد فخمة، ومعابد (هنا، الدير) وقبور مستوحاة من الفن الهلنستي.

ظهرت دول أخرى في أماكن أبعد شمالاً على حساب المملكة السلوقية. في كوماجينا(١٢)، ظهرت مملكة جديدة خلال القرن الثاني حول ساموسات

مكتبة المهتدين الإسلامية

(سمسات، تركيا). في أورفا **Edesse** (تركيا)، المدينة التي أعاد أحد السلوقيين تأسيسها كمدينة إغريقية، احتلتها منذ عام ١٣٢ ق.م سلالة الأباجرة

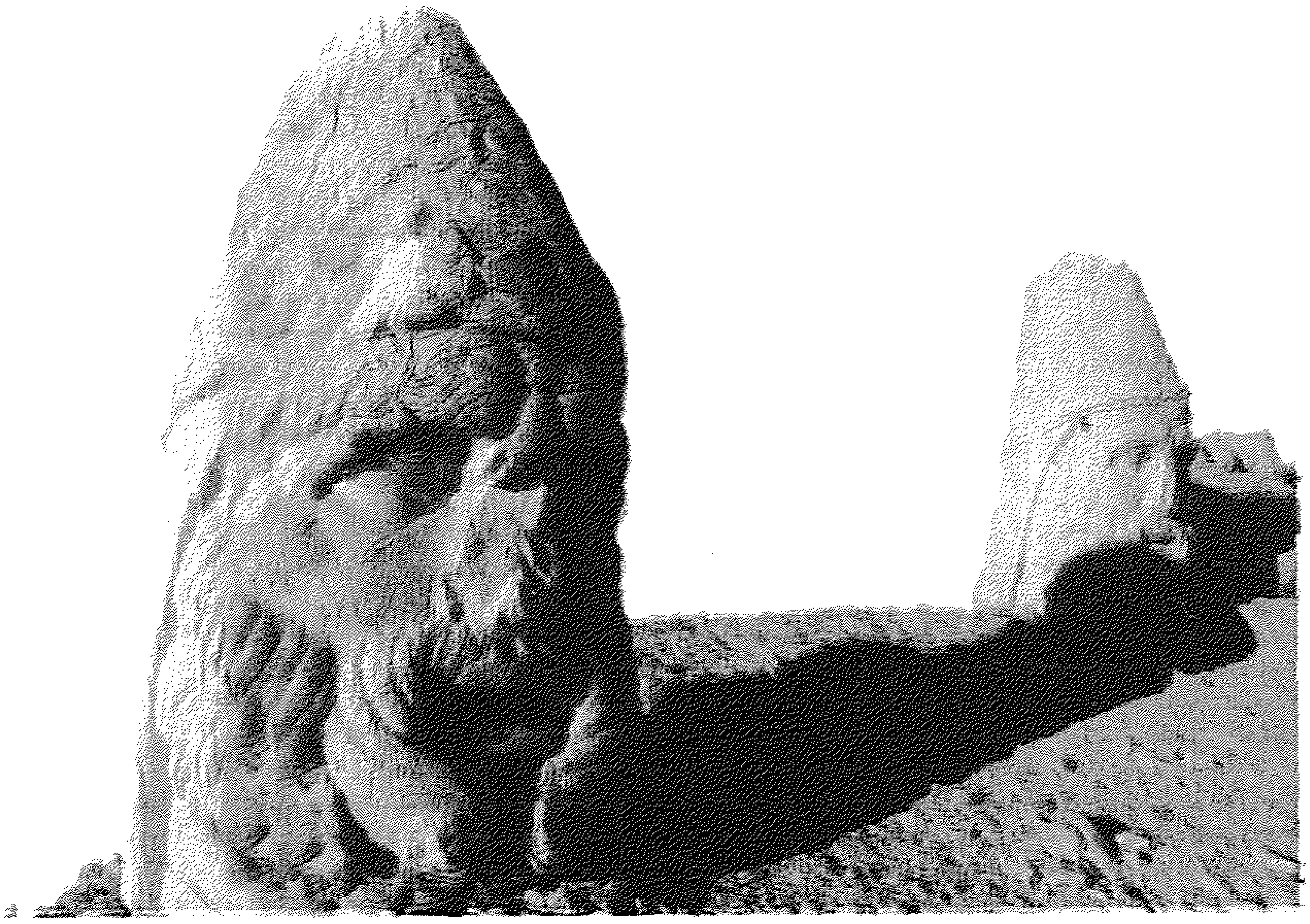

في الجهة الشمالية من سورية، ازدهرت في القرن الثالث قبل الميلاد مملكة كوماجينا المستقلة، التي حكمتها أسرة من أصل إيراني مهلّنة إلى حد كبير. وإن كان لم يبق شيء من العاصمة، سميساط، فقد بقي منها العديد من الأضرحة الملكية من القرن الأول قبل الميلاد، يقع أشهرها في نمرود داغ، الجبل الذي تضم قمته رجمة صنعية ضخمة. وتوجد على جوانبه مجموعة من المنحوتات الآبدية تمثل آلهة، وملوكاً، وتمثيلاً لكوماجينا.

العربية. أقام زعماء عرب آخرون في حلب وفي وادي الفرات. وجاءت قبيلة عربية أخرى، الحمصيون، ربما من شمال شرق ما بين النهرين الأعلى، وأقامت حول أرثوزا **Aréthuse** (الرستن) وأسست مدينة جديدة إميزا **Emese** (حمص). في داخل لبنان، تحكم عرب آخرون أيضاً، اليطوريون، بمعبد بعلبك الكبير وأسسوا دولة منفرجة الذراعين في البقاع وجبال لبنان الشرقية بين بعلبك و أبيلا دو ليسانياس (سوق وادي بردى). واحتل عدد

http://www.al-maktabeh.com

كبير من الإمارات أصغر حجماً المناطق الجبلية في جبال العلويين، «ولايات ربعية» يحكمها عرب، وإغريق، إن لم نقل يهوداً.

بعد أن قدموا من آسيا الوسطى قبل وقت قصير من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، لم يتأخر البارتيون في بناء دولة قوية شملت أولاً إيران ثم ما بين النهرين منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. سك ملوكهم، الذي حملوا لقب أرشاك، النقود تقليداً للملوك الهلنستيين (الصورة في الأسفل تمثل قطعة نقدية عليها صورة الملك الفارسي ميتريدات الأول). ساهم الضغط الذي مارسوه على السلوقيين في زوال سلطة هؤلاء سريعاً. كما قامت إمارات في العديد من المناطق السورية، كايميزا (حمص) وأرسوزا (الرستن). الصورة في الأعلى، قناع ضريحي من الفضة المذهبة عثر عليه في مدينة الموتى الملكية في حمص، وفيه دلالة على ثراء هؤلاء الملوك.

غزو البارت ونهاية السلوقيين

المملكة، التي انهارت في المركز، تعرضت لغزو البارثيين[١٣] **Parthes** من الشرق. وبعد أن استقاموا في الهضبة الإيرانية، عند منتصف القرن الثالث

مكتبة المهتدين الإسلامية

قبل الميلاد، استولى البارتيون على بابل نحو أربعينات القرن الثاني. في العام ١١٣ قبل الميلاد، كانوا في دورا – أوروبوس (الصالحية). وكان الفرات بمثابة الحدود بين البارتيين والسلوقيين. بذلك، فإن قسماً كبيراً من سورية الحالية، منذ وقت مبكر إلى حد ما، لم يعد إغريقياً، وظل بارتياً لمدة قرنين أو ثلاثة قرون، حتى الغزو الروماني مرة أخرى عام ١٦٥ ميلادي.

وقعت مدينة دورا أوروبوس التي بناها أحد قادة سلوقس في القرن الثالث قبل الميلاد عند التخوم بين سورية وما بين النهرين، تحت الاحتلال البارتي لزمن طويل. وتنامت فيها المواطَنة العالمية، خصوصاً بعد أن دخلت إليها آلهة من كل الأصول، مثل أرسو Arsou، إله من ما بين النهرين، صُوِّر بملامح محارب بارتي.

http://www.al-maktabeh.com

منذ السنوات ١٢٠ قبل الميلاد، نجحت أهم المدن الإغريقية، صور، وصيدا، ولاودقية **Laodicée**، وسلوقية[١٤]، وحتى أنطاكية، في أن تنتزع من الملوك الضعفاء امتياز إعلانها «حرة»، وهذا ما أعفاها من أن تساهم بالمال والرجال في الحروب بين الملوك. إلا أن ذلك لم يجعلها في منأى عن التدمير والنهب، ولكن أمكنها على الأقل أن تحمي نفسها بنفسها وأن تعقد تحالفات تناسبها مع القوى الخارجية. وهكذا، عام ٨٣، لما أرهقهم عجز الملوك السلوقيين، قرر سكان أنطاكية استدعاء تيغران الأرميني[١٥] لحمايتهم: استولى بلا عناء على كل سورية الشمالية والوسطى، مع بعض الاستثناءات النادرة (سلوقية بيريا). وانقطع حكم السلالة السلوقية التي فر اثنان من آخر سليليها.

سورية تحت سيطرة روما

لم يبق الرومان، غير الموجودين كثيراً من حيث الظاهر، بلا نشاط. بعد انتصارهم على أنطيوخس الثالث عام ١٨٩ قبل الميلاد في آسيا الصغرى، فرضوا عليه معاهدة سلام أفامية (١٨٨ ق. م) الأليمة التي قلصت المملكة السلوقية إلى ممتلكاتها في سورية وما بين النهرين والمناطق الإيرانية الأخرى التابعة لهما. وفي الوقت الذي ضغطوا على أخلافه كي يدفعوا تعويضاً حربياً كبيراً (١٥٠٠٠ تالان)، وأخذ ولي العهد رهينةً ثم تركه يهرب في الوقت المناسب، ومع دعمهم المنظم لخصوم السلوقيين، خصوصاً اليهود واللاجيون، فعلوا الكثير لإنكاء النزاع داخل الأسرة الحاكمة وإضعاف حكام أنطاكية. وبالتأكيد، انتهى الأمر بهم بأن دفعوا ثمن ذلك، إذ سهل اختفاء الأسطول السلوقي نمو القرصنة وقطع الطرق. هذا الوضع راق لروما بعض الوقت، إذ وجدت فيه وسيلة سهلة للحصول على العبيد. ولكن، بعد أن حمّل القراصنة المسؤولية للسفن التجارية الرومانية، قبضوا على رومانيين من مراتب عالية (كان قيصر أحد ضحاياهم)، وتجرأوا حتى بالوصول إلى اللاتيوم (وسط إيطاليا)، فقررت روما أن تضع حداً لذلك، لاسيما وأن خصماً رهيباً في الشمال، ميتريدات السادس أوباتور، ملك البنطس (في آسيا الصغرى)، قد حرمهم فجأة من أملاكهم في آسيا الصغرى، وتحالف مع القراصنة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في العام ٦٧ ق.م، حصل بومبيوس[١٦] على قيادة استثنائية للقضاء على القراصنة. وفي العام ٦٦ ق.م، أوكلت إليه مسؤولية قتال ميتريدات. ضمن هذه المعطيات، ظهرت الجيوش الرومانية لأول مرة في سورية. وبينما طارد بومبيوس خصمه ميتريدات في القوقاز، نزل اثنان من نوابه في سورية، حتى دمشق، خلال العام ٦٥. لحق بهما بومبيوس عام ٦٤ وأعلن عندئذ ضم المملكة السلوقية إلى الإمبراطورية الرومانية، على شكل مقاطعة جديدة، سورية.

بعد تكليفه بإعادة السلطة الرومانية إلى آسيا الصغرى، نزل القائد الروماني بومبيوس فـي سوربة عام ٦٤ قبل الميلاد على رأس جيش قوي. واستغل الفرصة لإلغاء الأعمال التي قام بها سلفه وغريمه لوكولوس، الذي كان قد أعاد السلوقيين إلى أنطاكية. ورأى أن البلاد يجب أن تكون ليس لأولئك الذين لم يحسنوا الدفاع عنها بل لأولئك الذين أنهوا الاحتلال الأرمني، وحول المملكة السلوقية إلى مقاطعة رومانية.

لم تكن هذه المقاطعة السورية الأولى تشمل كل الولايات السلوقية السابقة. في الواقع، اختار بومبيوس أن يبقي على استمرار كامل الدول

http://www.al-maktabeh.com

المحلية تقريباً، التي قبلت أن تصبح «صديقة وحليفة للشعب الروماني». وتم القضاء على زعماء قطاع طرق وطغاة محليين، ولكن بقيت معظم الدول الأصلية التي أصبحت منذئذ «تابعة»، تحت حماية روما. في الواقع، لم تضم المقاطعة سوى مناطق الشاطىء المدينية، من سورية الشمالية، وبعض القطاعات في الجنوب (دمشق، والمدن العشر(١٧) شمال - غرب الأردن). ظهرت سورية الرومانية إذن كنوع من الخليط الذي تتقارب فيه مناطق خاضعة لإدارة روما المباشرة ودول تابعة.

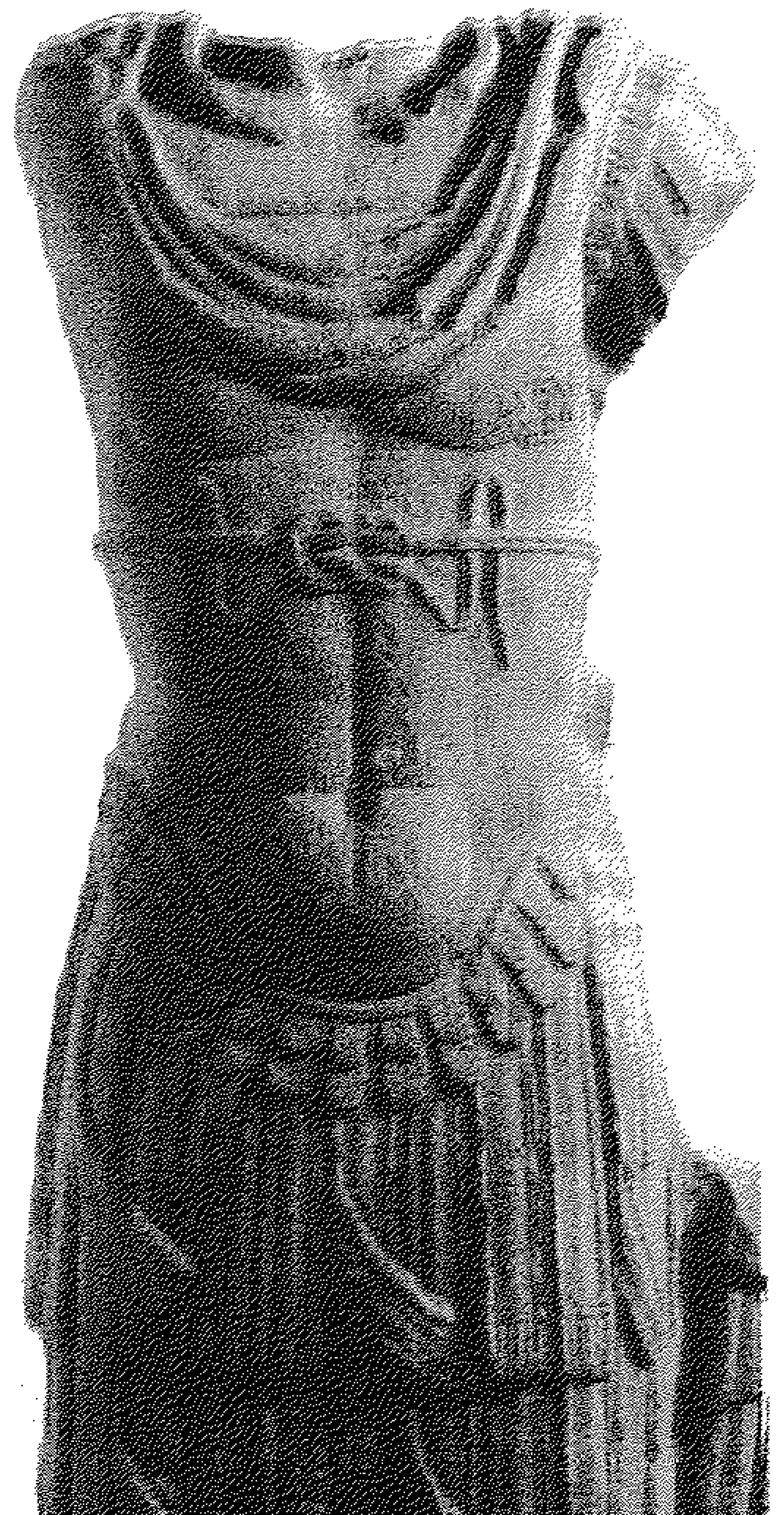

يشير هذا التمثال الذي عثر عليه في حوران، سواء كان لجندي أم لإله، إلى وجود الفيالق الرومانية في كل مكان من سورية، المقاطعة الحدودية مع البارتيين ثم مع الإمبراطورية الفارسية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

هذا الوضع لم يغيره أخلاف بومبيوس، ولا أنطونيوس الذي لم يستجب لمطالب كليوباترة، ولا أوغسطس[١٨]. إذا اكتفينا بسورية ولبنان الحاليين، فإننا لم نشهد الضم التدريجي لإمارات أصلية إلى المقاطعة بدقيق العبارة إلا خلال القرن الأول بعد الميلاد. ونجهل التفاصيل فيما يخص الأصغر بينها، غير أننا شهدنا بالتتابع اختفاء كوماجينا (نحو ٧٠ م)، وإمارة إميزا / حمص وأرثوزا / الرستن (٧٢) وخلقيس لبنان (٩٢) ومملكة أغريبا الثاني السورية الجنوبية (نحو ٩٢ – ٩٦)، أخيراً مملكة الأنباط (١٠٦)، الوحيدة التي لم تضم إلى سورية ولكن التي شيدت في مقاطعة جديدة، الإقليم العربي أو المقاطعة العربية **l`Arabie**.

سورية الرومانية

مع ضم مملكة الأنباط، أنهت روما نظام الإدارة غير المباشرة. كانت سورية ولبنان الحاليان آنذاك بالكامل ضمن المقاطعة السورية، التي شملت أيضاً كوماجينا، باستثناء حوران والجولان اللتين كانتا ضمن المقاطعة العربية.

بعد أن غزاها لوقيوس فيروس عام ١٦٥ ميلادية، أصبحت دورا أوروبوس مدينة حامية بالغة الأهمية عند الحدود البارتية. وسرعان ما ضمت وحدات إضافية، منها وحدة خفارة من التدمريين. وتجلى هذا الوجود للجيش في كل مكان بشكل خاص في العديد من المحفوظات الباقية، مثل Feriale Duranum، التي تضم روزنامة للأعياد والاحتفالات الدينية في الحامية. وربما يدخل قربان الحاكم العسكري يوليوس تيرنتيوس، المصور هنا على رسم جداري في معبد بل (الصورة) في إطار هذه الاحتفالات: يبدو الحاكم العسكري أنه يتصرف تصرفا حسناً باسم وحدته.

http://www.al-maktabeh.com

كانت سورية منذ البداية إحدى أهم المقاطعات الرومانية، وقد أوكل حكمها إلى حاكم من مرتبة عالية جداً. وقد عسكرت فيها أربع فرق بشكل دائم، لثلاث مهمات: السيطرة على المدن السورية التي كان يخشى قيام اضطرابات فيها، ومراقبة البارتيين، وبالأخص التزود بالسوقات العسكرية اللازمة للحملات الرومانية فيما وراء الفرات. الغزوات البارتية النادرة (في ٥٣ – ٥٠ و ٤١ – ٤٠ قبل

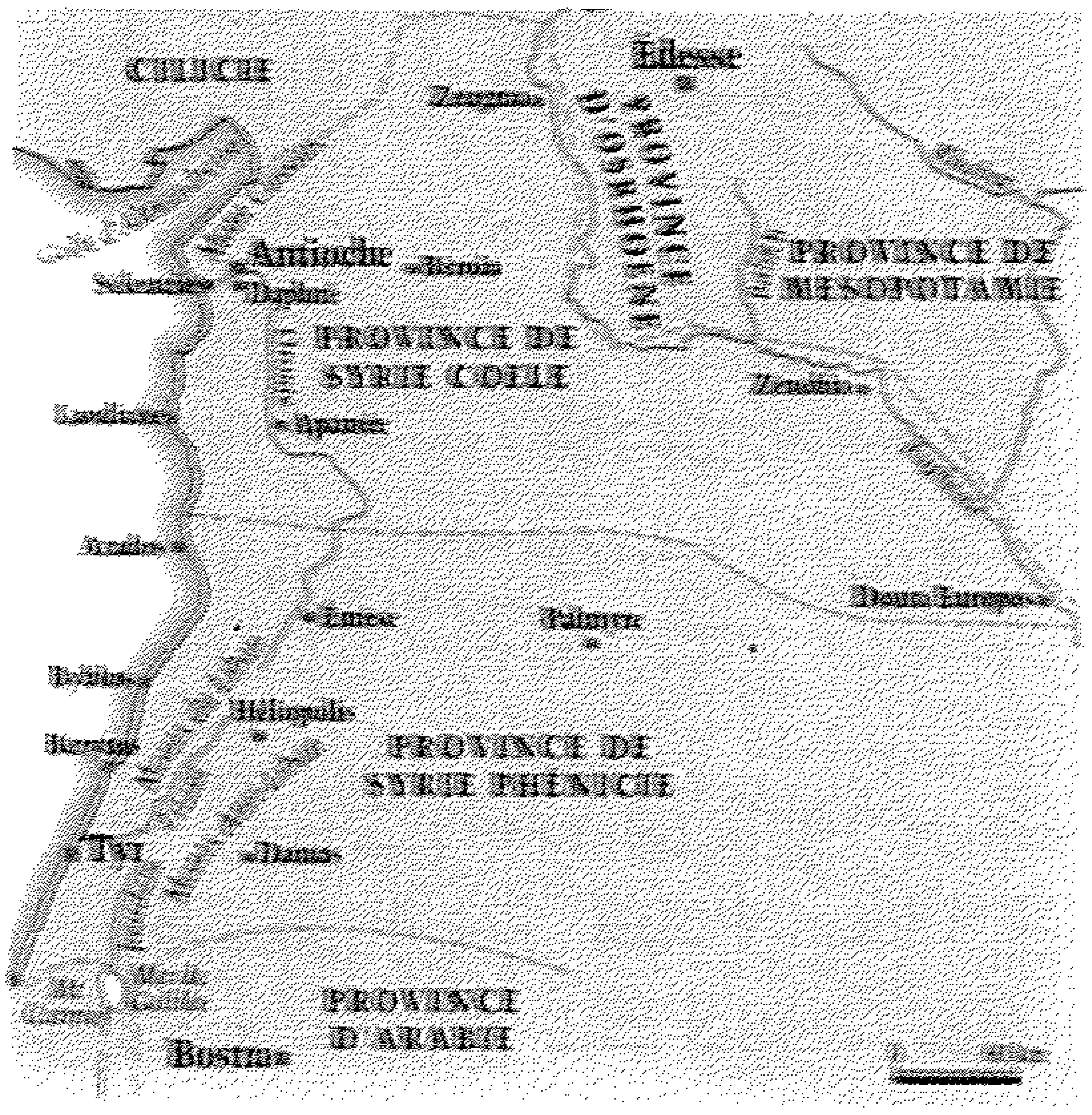

في العام ٦٤ قبل الميلاد، شملت مقاطعة سورية التي أوجدها بومبيوس، وبشكل رئيسي، المناطق الأكثر تمدناً، في الشمال الغربي، وعلى الشاطىء الفينيقي، وفي المدن العشر، في حين كانت توجد دول أصلية تابعة كثيرة حول المقاطعة وفيها. ومن أوغسطس إلى فسبسيانوس، ساهم دمج الدول التابعة في جعل سورية مقاطعة شاسعة تمتد من الفرات إلى غزةٍ (غير مشار إليها على الخريطة). تم إلحاق مملكة الأنباط بالإمبراطورية عام ١٠٦، وشُكلت مقاطعة جديدة، ولاية العربية. في العام ١٩٤، قسم سبتيموس ساويرس سورية إلى قسمين: سورية الجوفاء في الشمال وسورية الفينيقية في الجنوب. وكانت أنطاكية وصور عاصمْتيهما على التوالي. في العام ١٩٥، أنشئت مقاطعة أوسرهوين Osrhoène فيما وراء الفرات وشملت عدة إمارات تابعة، أضيفت إليها إديسا (الرها) عام ٢١٣ – ٢١٤ . أخيراً، في العام ١٩٨، أكملت مقاطعة ما بين النهرين Mésopotamie هذا الترتيب حتى دجلة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الميلاد)، التي أثارها الرومان أنفسهم، توقفت مع أوغسطس. بالمقابل، حمل الرومان الحرب إلى جيرانهم عدة مرات، في القوقاز خلال القرن الميلادي الأول، وإلى وادي الرافدين تحت حكم ترايانس[١٩] (١١٤ – ١١٧)، ثم في بداية حكم ماركوس أورليوس أنطونيوس (١٦٣ – ١٦٥)، وتحت حكم سبتيمس ساويرس[٢٠] (١٩٥ و١٩٨)، وتحت حكم كاراكالا[٢١] (٢١٥ – ٢١٧). توقفت غزوات ترايانس شرق الفرات ودجلة منذ ١١٨ ميلادية، غير أن لوسيوس فيروس غزا دورا – أوروبوس (الصالحية) والضفة اليسرى للفرات ١٦٣ – ١٦٥، بينما أعيدت إديسا (أورفا) إلى الحلف الروماني. أوجد سبتيمس ساويرس مقاطعتين جديدتين ما وراء الفرات، أوسروين **Osrhoène** وما بين النهرين، وشملتا المناطق السورية الواقعة بين الفرات، والبليخ، والخابور ودجلة. إذن، لم تدخل سورية الحالية كلها – وعلى نحو عابر – ضمن الإمبراطورية الرومانية إلا في وقت متأخر.

التهديد الساساني:

الفرس الساسانيون[٢٢]، الذين وصلوا إلى السلطة في طيسفون عام ٢٢٦، ظهروا عدائيين فوراً. وكان على الرومان منذئذ أن يدافعوا عن أنفسهم، وهذا ما فعلوه مقابل الكثير من التنازلات. بعد أن بلغت أنطاكية، وصلت الجيوش الفارسية إلى ضواحي أفامية، وسقطت دورا – أوروبوس عام ٢٥٢ قبل تدميرها عام ٢٥٦. وقضى عدة أباطرة في حملات صعبة: غورديانوس الثالث عام ٢٤٤، وفاليريانوس عام ٢٦٠، الذي أسر وسجن، وكاروس في صيف ٢٨٣، الذي صعق خلال عاصفة قرب طيسفون، وأذينة ملك تدمر وزوج زنوبيا الذي حشد جيشاً وقاتل الفرس بنجاح بين عامي ٢٥٢ و٢٦٨. وبعد موته، أعلنت أرملته زنوبيا وابنه وهب اللات نفسيهما إمبراطورين وتمكنا من السيطرة على سورية لبعض الوقت (٢٦٨ – ٢٧٢). لكن أورليانس، الإمبراطور القوي، رفض تقاسم السلطة معهما، وقاتلهما حتى الاستيلاء على تدمر عام ٢٧٢. بعد حملة كاروس ونومريانوس عام ٢٨٣، شهدت الجبهة الفارسية فترات هدوء طويلة وجرت الحملات التي قام بها الرومان فيما وراء الفرات.

http://www.al-maktabeh.com

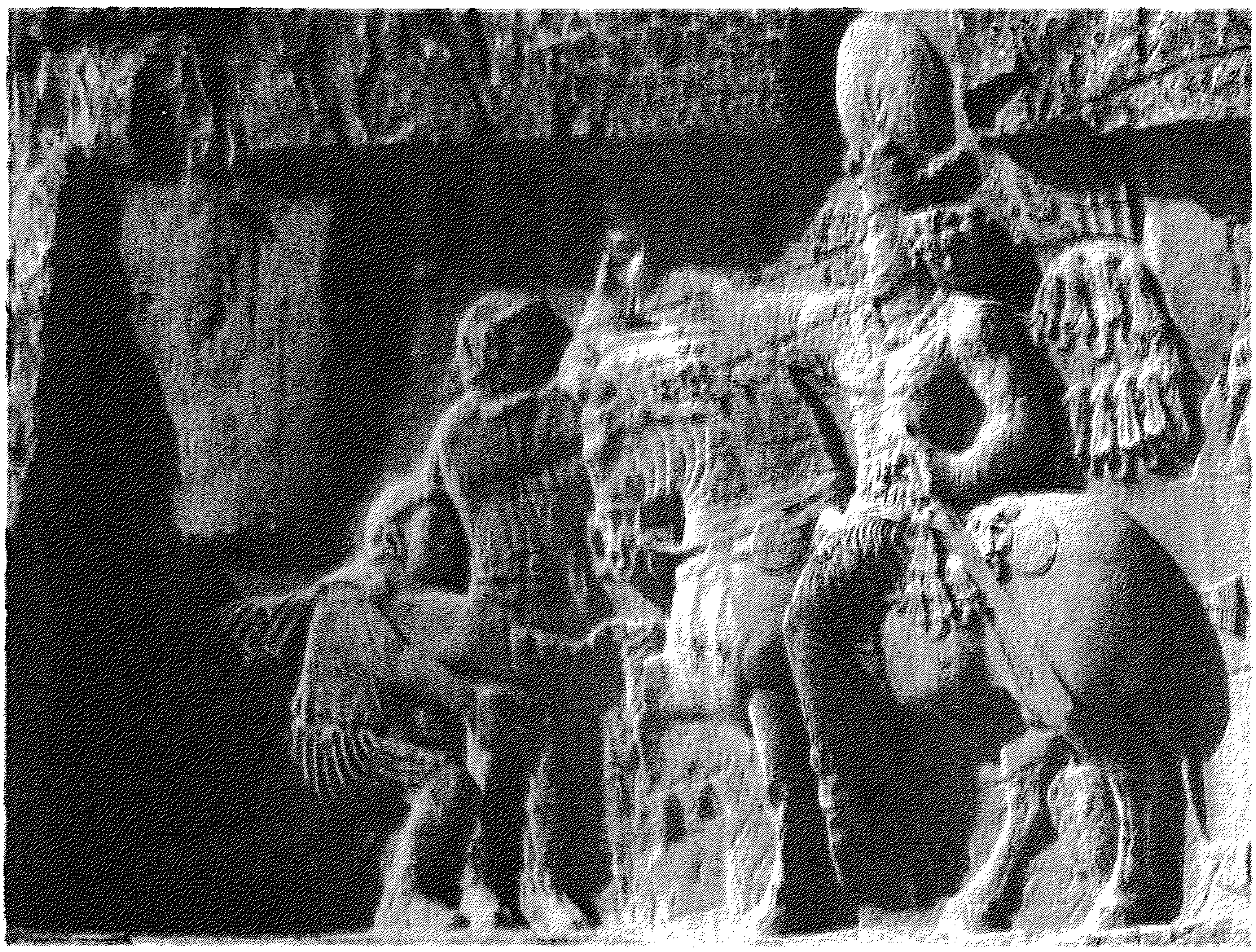

فـــي جنوب إيران، على فالق صخري، في أسفل ضريح آبدي لداريوس الأول، مشهد يظهر الملــك الساساني شابور الأول بعد أسره الشهير للإمبراطور الروماني فاليريانس عام ٢٦٠ خلال معــركة إديســا عقب حملة له على سورية ٢٥٩ – ٢٦٠ . يبدو فاليريانس جاثياً وماداً سيفه في إشـــارة للاستسلام. وترافق حكايةٌ طويلة مفصلة، الــ Res Gestae Divi Saporis ، صورَ هذه الحمـــلات المدمــرة التي استمرت طويلاً. وعلى الرغم من أن الحملات قادت الساسانيين حتى أطـــراف هضبة الأناضول، فإنهم لم يستطيعوا احتلال سورية بشكل دائم؛ وانسحبوا عقب هزائم قاســـية، دافعة الرومان إلى شن حروب انتقامية دارت على مقربة من أسوار عاصمتهم طيسفون. إلا أن هــترا (الحضـــر) ودورا أوروبوس (الصالحية) دمرتا عام ٢٤٠ و٢٥٦ على التوالي إلى الأبـــد، وتعرضـــت مـــدن أخـــرى لغزواتهم، بما في ذلك أنطاكية. وكانت هذه الغزوات تشكل مناسبات لبعضها، مثل أفامية، وبصرى، ودرعا، كي تقوم بأعمال ترميم أو تبني أسواراً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

استطاعت سورية أن تتنفس أخيراً؛ غير أن عبور الجيوش المستمر، ومطالب الدولة من المال، والمؤن، والرجال، جعل السكان المساهمين يعيشون أوضاعاً قاسية.

من فترة احتلال الفرس الوجيزة لدورا أوروبوس، بين ٢٥٢ و٢٥٦، بقيت من آثارهم هذه الرسوم الجدارية التي تمثل فرساناً يرتدون لباساً على الطريقة الفارسية.

ونتبين أن التجارة مع ما بين النهرين أصبحت أقل كثافة مع ازدياد الأخطار: قفز سعر الفائدة بالنسبة لمثل هذه الحملات بمعدلات عالية جداً.

إعادة تنظيم الإمبراطورية الشرقية:

شرع ديوقليتيانوس(٢٣) بإصلاحات إدارية هامة شهدت تطبيقاتها الواضحة في سورية. قسّم المقاطعات القائمة لإيجاد وحدات أصغر. وإلى المقاطعات الثلاث سورية الجوفاء **Syrie Coele** (في الشمال)، و سورية الفينيقية وأوسروين، أضيفت أوفراتيزيا **Euphratésie** أو فراتيا، منبج الفرات (عاصمتها هيرابوليس)؛ وفي الجنوب استمرت المقاطعة العربية بشكل مصغر. وأصبحت أنطاكية، فضلاً عن أنها عاصمة أبرشية الشرق، تجمعاً كبيراً لست عشرة مقاطعة من ما بين النهرين إلى مصر وليبيا. وحوالى ٤٠٠، حدثت تقسيمات أخرى. جزئت سورية الجوفاء إلى قسمين، سورية الأولى في الشمال (عاصمتها أنطاكية)، وسورية الثانية جنوباً (عاصمتها أفامية)، بينما حدث الأمر نفسه في سورية الفينيقية: فينيقيا الأولى بطول الساحل (عاصمتها صور)، وفينيقيا الثانية (وعاصمتها دمشق) في الداخل.

http://www.al-maktabeh.com

مع ذلك، قيام القسطنطينية عام ٣٢٤، والحضور المتزايد للأباطرة في القسم الشرقي من الإمبراطورية (خصوصاً في أنطاكية، وتقسيم الإمبراطورية فعلياً إلى قسمين منذ وفاة ثيودوسيوس[٢٤] (٣٩٥)، كل ذلك منح سورية وزناً متنامياً في هذا المجموع.

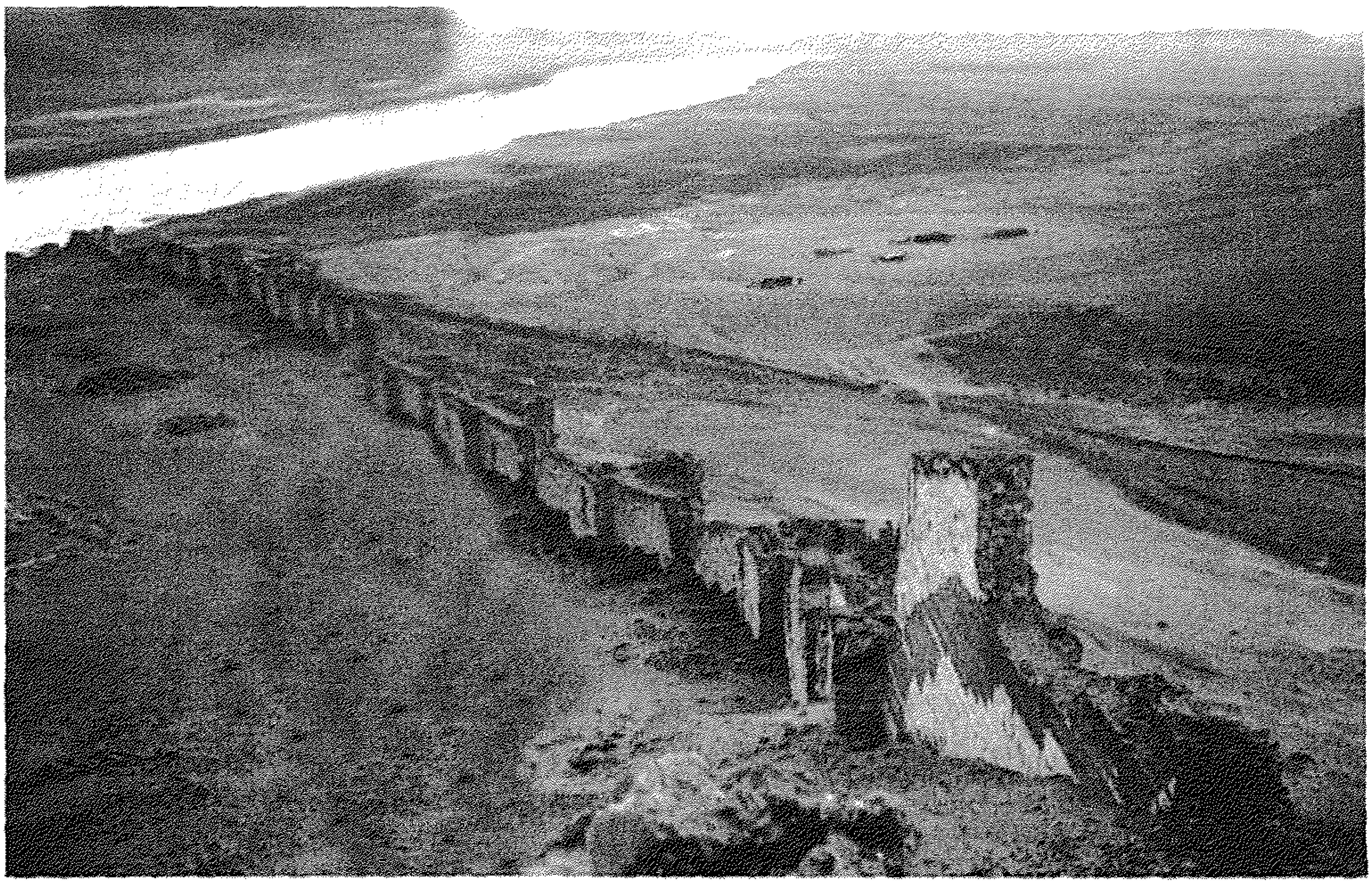

الملكة زنوبيا

في ممر ضيق لمجرى الفرات الأوسط، عند أعالي دير الزور، بنيت مدينةٌ حصنٌ أضيفت أسوارها، التي بقيت محفوظة جيداً، إلى القلعة. شهدت هذه المدينة، «زنوبية» Zénobie (حلبيه)، التي أنشأتها دون شك ملكة تدمر زنوبيا ، أوج ازدهارها في القرن السادس، عندما جعل منها يوستينيانس واحدة من قلاعه التي كلفت بحراسة ممر الفرات.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ورغم العديد من أوضاع السلام، بقيت الجبهة الفارسية متحركة. الحملة التي قادها يوليانوس عام ٣٦٣، ثم حملة جوفيانوس، أعقبتهما فترة سلام مسلح طويلة، تخللتها أعمال حربية عام ٤٢٠ – ٤٢٤، ثم من ٥٠٢ إلى ٥٠. وصل الفرس إلى أسوار أنطاكية عام ٥٢٩، ثم عام ٥٣١. معاهدة «السلام الدائم» التي وقعت في تلك السنة لم تستمر سوى سنوات، وفي العام ٥٤٠، نهبت أنطاكية، وأجلي سكانها عنها، بينما دفعت مدن سورية أخرى مبالغ باهظة من الفضة والذهب للإبقاء عليها. خرجت سورية مستنزفة من الحرب. وأتاح سلام تم التوقيع على معاهدته عام ٥٦٢ لمدة خمسين سنة إعادة بناء دفاعات البلاد، غير أن الإمبراطور يوستينس خرقها عام ٥٧٢: في السنة نفسها أحرق الفرس أفامية!. إلا أن الوقت الأكثر مأساوية هو دون شك غزو الفرس لكامل سورية عام ٦١٤، الذي تبعه احتلال امتد حتى عام ٦٢٩. وحينما ظهرت الجيوش الإسلامية على أبواب الإمبراطورية عام ٦٣٤، حينها فقط، نجت هذه الأخيرة من الفرس.

الفتح العربي

تغيرت الأمور في الصحراء أيضاً. منذ سقوط تدمر، عام ٢٧٢، ظهرت حركات قبلية كبرى في شبه الجزيرة العربية أثرت على سورية. كان عمرو بن عدي، أحد سليلي أمراء أورفا، قد أنشأ إمارة في ما بين النهرين، في الحيرة، وناصر الساسانيين. في بداية القرن الرابع، بدا ابنه وخليفته امرؤ القيس بن عمرو (نحو ٣٢٨)، «ملك جميع العرب»، مسيطراً على عدد كبير من القبائل حتى قلب شبه الجزيرة العربية، وعسكر على أبواب سورية، إذ أن قبره موجود في النمارة (جبل العرب)

http://www.al-maktabeh.com

عند تخوم حوران. كانت المغامرة بلا نتيجة في ذلك الحين، لأن أمراء الحيرة، اللخميين، تحصنوا في ما بين النهرين. إلا أن جماعات أخرى جاءت من شبه الجزيرة العربية، وسعت روما للاعتماد على كل منها بالتعاقب للسيطرة على أطراف سهوب وصحارى الإمبراطورية: تنوخ، وصالح، وغسان، حصلوا أخيراً على مساعدات ومراكز رفيعة في نظام مراتب البلاط الإمبراطوري مقابل مساعدتهم في السيطرة على جماعات البدو الرحل.

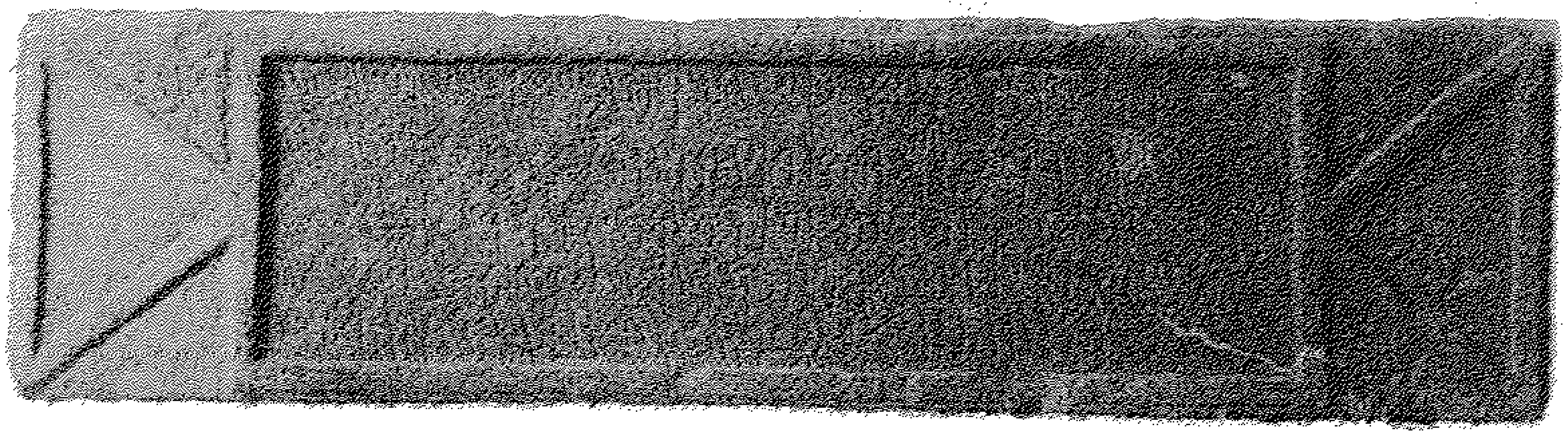

عند تخوم حوران، ضريح امرؤ القيس يحمل واحدة من أقدم التسجيلات الأثرية العربية (٣٢٨ ميلادية). يمجد التسجيل الأثري «ملكَ كل العرب»، الذي امتدت سلطته بعيداً في شبه الجزيرة العربية.

إذن، فمن الطبيعي تماماً أن نجد الغساسنة إلى جانب الوحدات البيزنطية خلال المعركة الكبرى التي جعلت سورية في أيدي الجيوش الإسلامية، معركة اليرموك (تموز ٦٣٦). وكان قد تم الاستيلاء على بصرى، أول مدينة تنتقل إلى سلطة الإسلام في سورية، منذ عام ٦٣٥. ثم، تقدم الفتح العربي الإسلامي سريعاً: دمشق منذ ٦٣٦، أنطاكية في ٦٣٨. كان يمكن أن يبدو هذا الفتح الجديد بالنسبة للكثيرين عابراً، مثلما كان الحال مع الفرس في العقد الذي سبق: أثبتت التتمة أن الأمر ليس كذلك. وانتهت ألف سنة تقريباً من الهيمنة الإغريقية الرومانية بشكل فعلي ونهائي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان مركز قصر ابن وردان العسكري والإداري، الذي شيد عام ٥٦٤ عند تخوم السـهب شرق مدينة حماة، مكرساً لضبط تحركات البدو الرحل ومراقبة الحدود قبالة الفرس. كان القصر يضم صالات استقبال وغرفاً خاصة بالإدارة، في حين كان الجنود يقـيمون فـي ثكنة متهدمة اليوم. وكانت الكنيسة، التي ضمت ثلاثة صحون ورواقاً، تعلوها قبة (إلى يسار الصورة).

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني

ألــق المـــدن

مدناً أصلية قديمة كانت أم منشآت جديدة بناها ملوك هلنستيون، فإن المدن السورية قد ازدانت عبر حقبة الإمبراطورية الرومانية بأوابد رائعة - شوارع بأروقة، وأقواس، ومعابد، ومسارح، وحمامات حارة... - شكلت دلالة جلية على ازدهار الحياة الحضرية التي ارتكزت إلى رخاء مذهل.

شهدت سورية منذ الألف الثانية قبل الميلاد حضارة مدينية مزدهرة. إلا أن كبريات مدن عصر البرونز ماري (تل الحريري) وإيبلا (تل مرديخ) الألأخ (تل عطشانه)، وقطْنة (المشرفة)، وأوغاريت (رأس شمرا)، دمرت في معظمها، وأهملت أو انهارت بشكل كبير في الاضطرابات نحو ١٢٠٠ قبل الميلاد. واحتفظت حلب وحماه وحدهما بنشاط هام بعد استيطان الآراميين. تضاف إليهما ممالك أخرى حول زنجرلي في أقصى الشمال ودمشق في الجنوب. ونشأ بذلك محور مديني شمالي - جنوبي داخل البلاد. في الوقت نفسه، ظهرت الممالك الفينيقية، من أرادوس (أرواد) إلى عكا، متراصفة من الشمال إلى الجنوب على الشاطىء.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تدمـر

http://www.al-maktabeh.com

إقامة المستوطنين الإغريق

لم تبق المدن القديمة في معظمها ناشطة فقط بعد ٣٣٢ ق.م، بل أضيفت إليها منشآت جديدة كثيرة، وهي سلوقية في غالبيتها، استجابة لمجيء عدد كبير من الإغريق والمقدونيين. واختيرت سورية الشمالية لتكون فيها عاصمتهم، أنطاكية، إذ كانت تتميز بأنها متوسطية، أي قريبة من العالم الإيجي حيث كان للسلوقيين مصالح كثيرة، وشرق أوسطية أيضاً، على طريق ما بين النهرين وإيران حيث امتدت مملكتهم. إذن كان يجب تحويل سورية السلوقية إلى منطقة آمنة، استناداً إلى المستوطنين الإغريق والمقدونيين.

أبــدع أوتيخــيدس السيسيوني، نحو ٢٩٦ – ٢٩٣ ق. م، صورة حظ وثروة أنطاكية، وهو نمــوذج لقي انتشاراً واسعاً. والنموذج هو عبارة عن امرأة ترتدي تاجاً مفرَّضاً يرمز إلى أسوار المدينة، وتضع قدمها على نهر العاصي مجسداً في شكل إنسان. كيفت تدمر (الصورة ٢٦) وكل المدن الأخرى هذا النموذج مع حاجاتها، مبقية على التاج الذي يرمز إلى الأسوار.

من الصعب تقدير عدد الوافدين الإغريق والمقدونيين إلى سورية، ويبدو أنه كان مقتصراً، أو تقريباً كذلك، على الفترة السابقة لــ ٢٥٠ ق.م. على كل حال، خلال هذه الفترة وحدها بنيت مدن جديدة لاستقبالهم. استقر المستوطنون بشكل

مكتبة المهتدين الإسلامية

رئيسي في سورية الشمالية وعلى جانبي وادي الفرات، ولكن على الأرجح ليس في المدن الفينيقية المسكونة منذ وقت مضى، دون أن يعني ذلك أنه لم تكن هناك حالات استيطان فردي فيها. ولم تزد هذه التحركات السكانية دون شك عن بضع عشرات من آلاف الأشخاص. ويشير عدد الحصص الاستيطانية المخصصة لأنطاكية [٥٥٠٠ شخص] إلى أن أياً من المدن الجديدة لم يكن مكرساً لاستيعاب أكثر من ٥٥٠٠ إلى ٦٠٠٠ نسمة، أي ٢٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ مهاجر إجمالاً، وأقل من ذلك دون شك في أغلب الحالات. ضمن هذه الشروط، من المرجح أن عدد المستوطنين لم يتجاوز قط ١٠٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠ شخص.

بنى هيرودوس (٧٣ – ٤ ق. م) وأخلافه في القرن الأول الميلادي مستوطنات متباينة الأصول في سورية الجنوبية، بهدف تطبيق سياسة المصالحة التي طلبتها روما. في Danaba (الصورة في الأعلى)، يقول تسجيل قديم: «الإغريقيون المقيمون في Danaba، (يُبَجِّلون) مينوفيلوس Ménophilos بسبب رِفْقِه». مارس الإغريق المقيمون في سورية منذ أيام الإسكندر كل المهن الصغيرة، كتلك التي تشير إليها هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار، وقد عثر عليها على الشواطىء اللبنانية. ولم يكونوا عسكريين ولا موظفين.

http://www.al-maktabeh.com

غالباً ما استندت الممالك الهلنستية، التي بنيت على القوة، إلى المرتزقة المنحدرين من المملكة نفسها أو من مقاطعات بعيدة. في صيدا، في القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد، ترك جنود يعودون في أصولهم إلى بيسيديا، وفريجيا، وكاريا، وليسيا، وكريت، وتساليا وبيلوبونيز، هذه المسلات الضريحية المرسومة، التي كان ينصبها مواطنوهم أو خدمهم.

المدن الجديدة

بدلاً من تشتيت المستوطنين في الأرياف، فضلوا تجميعهم في مراكز سكنية جديدة حصل معظمها بسرعة كافية على وضع (قانون) المدينة الإغريقية، الـ **polis**، الدويلة المدينة. وهكذا، ظهرت منذ عام

مكتبة المهتدين الإسلامية

٣٠٠ ق.م سلوقية بيريا، وأنطاكية، وأفامية، ولاودقية على البحر، ودورا – أوروبوس، وأخرى غيرها ساهمت في تربيع سورية الشمالية (قيرهوس، وخلقيس جبل بيلوس، وزوغما السلوقية)، أو في الوسط (لاريسا العاصي، وسلوقية بيلوس، وأرثوزا) وما بين النهرين الأعلى (إديسا، نيسيبيس [نصيبين]). ويعطينا المؤلفون القدماء عشرات الأسماء، ما يزال يتعذر حتى الآن تحديد مواضع الكثير منها.

مع كل تشييد، كانت هناك عملية مسح تخصص لكل مستوطن قطعة أرض في المدينة لبناء منزله، وحصة من الأراضي الصالحة للزراعة التي كان كثير من المستوطنين يشغّلون فيها فلاحين محليين. وهكذا، في نواحي أنطاكية، كانت المساحات الريفية تسير وفق اتجاهات المخطط المديني نفسها. وحيثما يتم منح وضع الدويلة المدينة، كانوا يشكلون مجلساً وينتخبون قضاة. في الأصل، كان المستوطنون وحدهم يشكلون «شعْب» الدويلة المدينة، ولكن سرعان ما تم قبول السكان المحليين المهيلَنين، الذي أصبحوا بدورهم إغريقيين. وبينما كانت هذه المدن الجديدة تنشأ، كانت المدن الفينيقية والسورية تتكيف مع الظروف الجديدة. ويبدو أنه لم تحصل فيها حالات إقامة كبيرة لمستوطنين إغريق أو مقدونيين، ولو أن بعض عمليات المساحة حول دمشق وحلب أمكن أن توحي بحدوث إعادة توزيع للأراضي في العصر الهلنستي. وفي فينيقيا، تم الانتقال من وضع المدينة – المملكة إلى الدويلة المدينة دون حدوث انقلابات سكانية، لصالح النخب المحلية المهيلَنة.

http://www.al-maktabeh.com

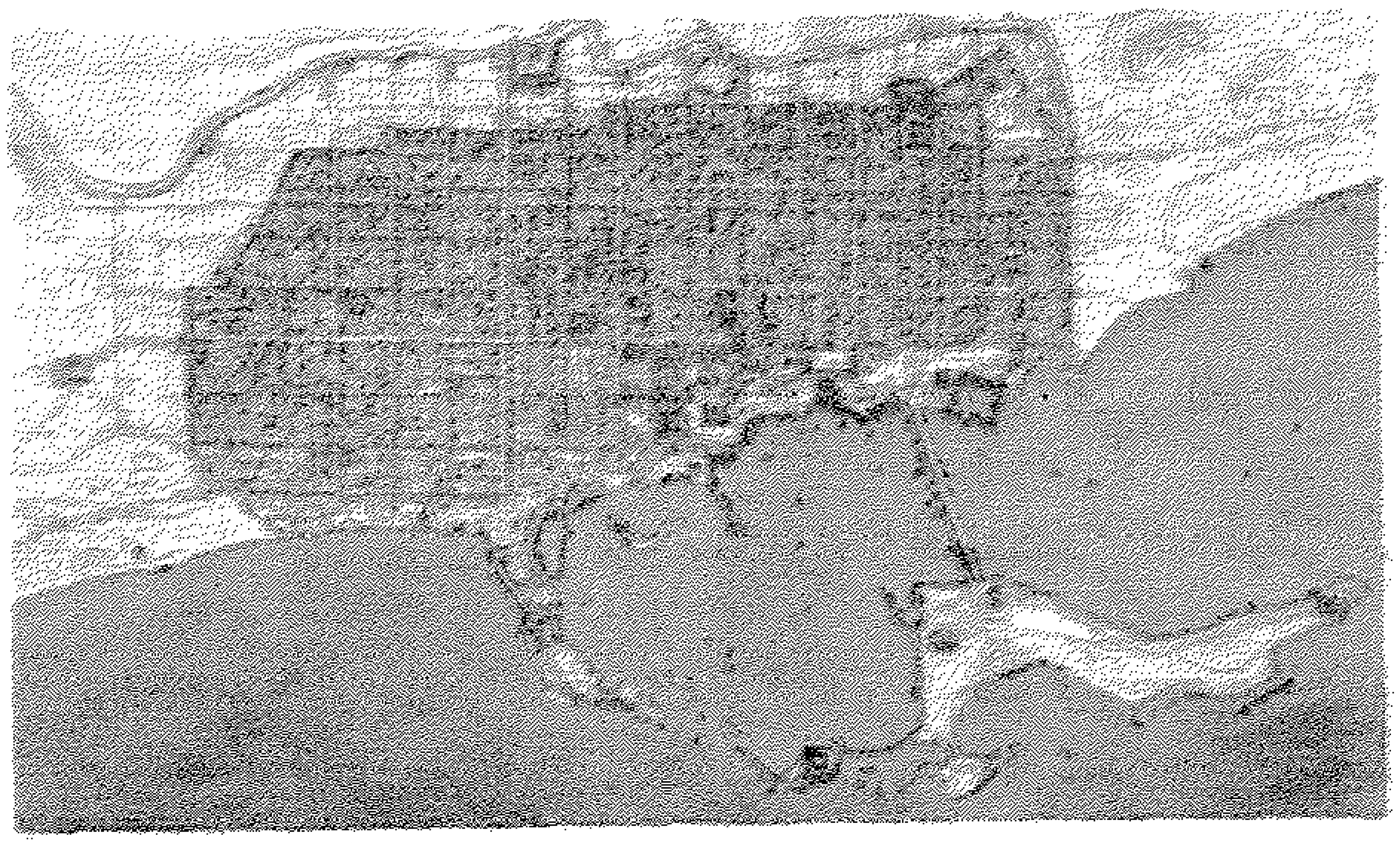

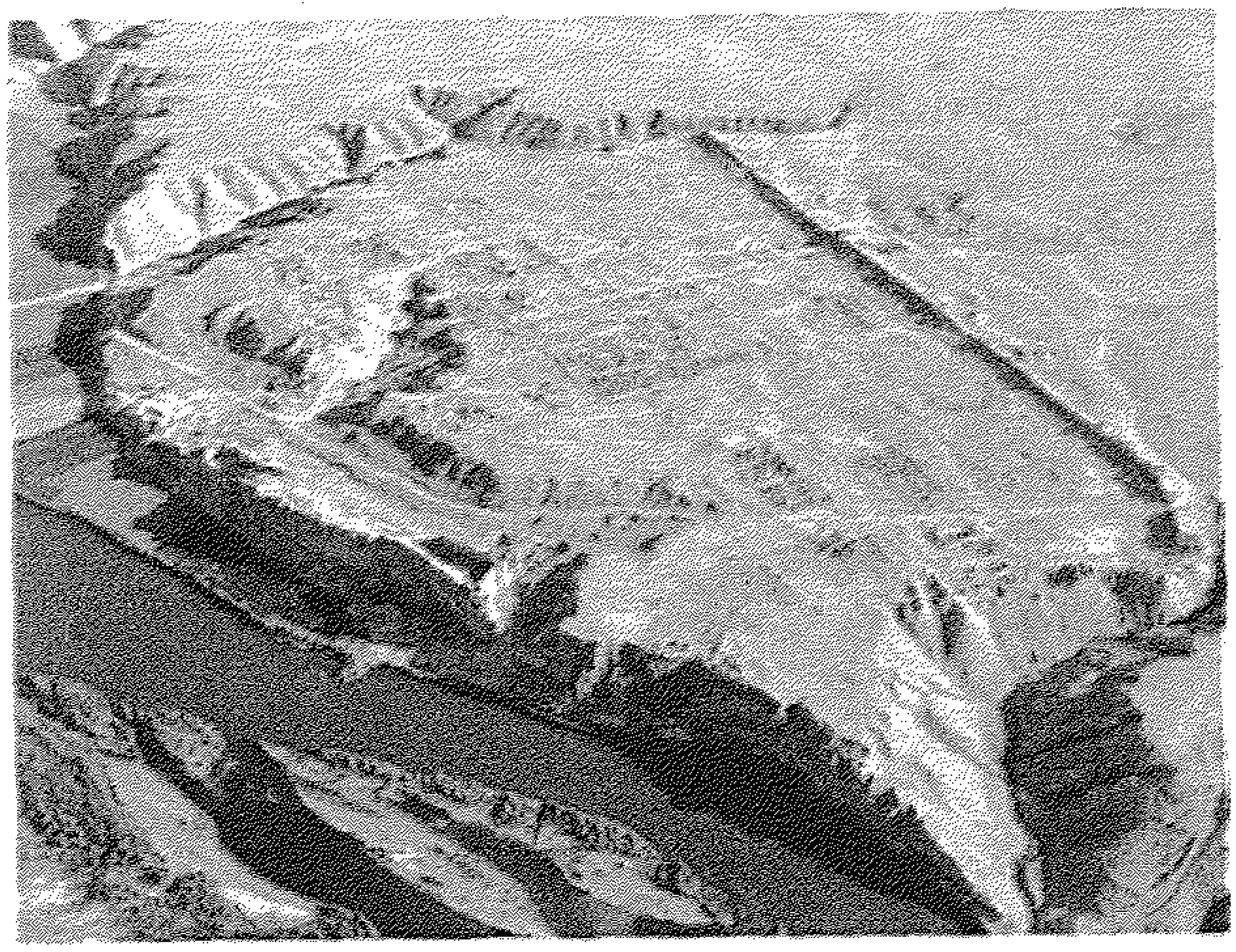

كما هو الحال في الإسكندرية (الصورة في الأعلى)، تبنت دورا أوروبوس (الصورة في الأسفل) مبادىء التمدين الهلنستي: خط متعامد يفصل بين حصص منتظمة، يمكن تكرارها إلى ما لا نهاية. يحد السورُ حيزاً مدينياً أوسع من اللازم. في الأصل، كان على المدينة أن تمتد حتى أسفل القلعة، ولكن، في القرن الثاني قبل الميلاد، تم إطلاق مخطط لتنظيم المدينة على المرتفع المطل على الفرات. وأفادت دورا أوروبوس الجديدة من حمايات طبيعية على ثلاثة جوانب بوجود واديين عميقين حول المرتفع في الشمال وفي الجنوب منه. وبني في الغرب سور على عجل لمواجهة التقدم البارتي. لكن ذلك لم يمنع البارتيين من الاستيلاء على المدينة عام ١١٣ قبل الميلاد، لتبقى المدينة تحت سيطرتهم حتى حملة لوسيوس فيروس عام ١٦٥ ميلادية، أي ما يقرب من ثلاثة قرون، دون أن تتخلى عن تنظيمها المديني ولا عن عاداتها الإغريقية. ومن الجهة الأخرى للنهر، كانت تمتد أراض قابلة للزراعة حتمية لحياة المدينة، المخططة على ضفة النهر الصحراوية هنا من منطقة الفرات.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أخذت في الحسبان كثيراً أهداف أخلاف الإسكندر عندما يشيدون مدناً. رأى البعض في ذلك إرادة تهلين للسكان المحليين، ووجد آخرون فيها تقسيماً تربيعياً عسكرياً وسياسياً للبلاد، بينما رأت فئة ثالثة أن في الأمر تنمية للبلاد من خلال زيادة أماكن التبادل. في الواقع، غالباً ما تم الخلط بين الأهداف والنتائج. لقد كمن السبب الحقيقي الوحيد في ضرورات الإقامة للمستوطنين القادمين من اليونان ومقدونيا المعتادين على هذا الشكل التنظيمي. ولم يكن الأمر يتعلق، بأي حال من الأحوال، بتهلين السكان المحليين الذين لم يكن ملوكهم السلوقيون ينتظرون سوى شيء واحد: الإتاوة والضرائب. وأوجد نجاح هذه المنشآت قنوات جديدة للتبادلات. وشكلت هذه النوى السكانية الإغريقية نقاط استناد للإدارة الملكية، لجيشها الذي كان يبقي فيها على حاميات أحياناً. وفي بعض الأحيان، كانت تنبثق مدن من الحاميات، مثل دورا – أوروبوس، التي لم تحصل إلا في وقت متأخر تقريباً على وضع الدويلة المدينة. لكن ذلك نتيجة لنجاح إنشاء المدن، وليس هدفاً مخططاً له مسبقاً.

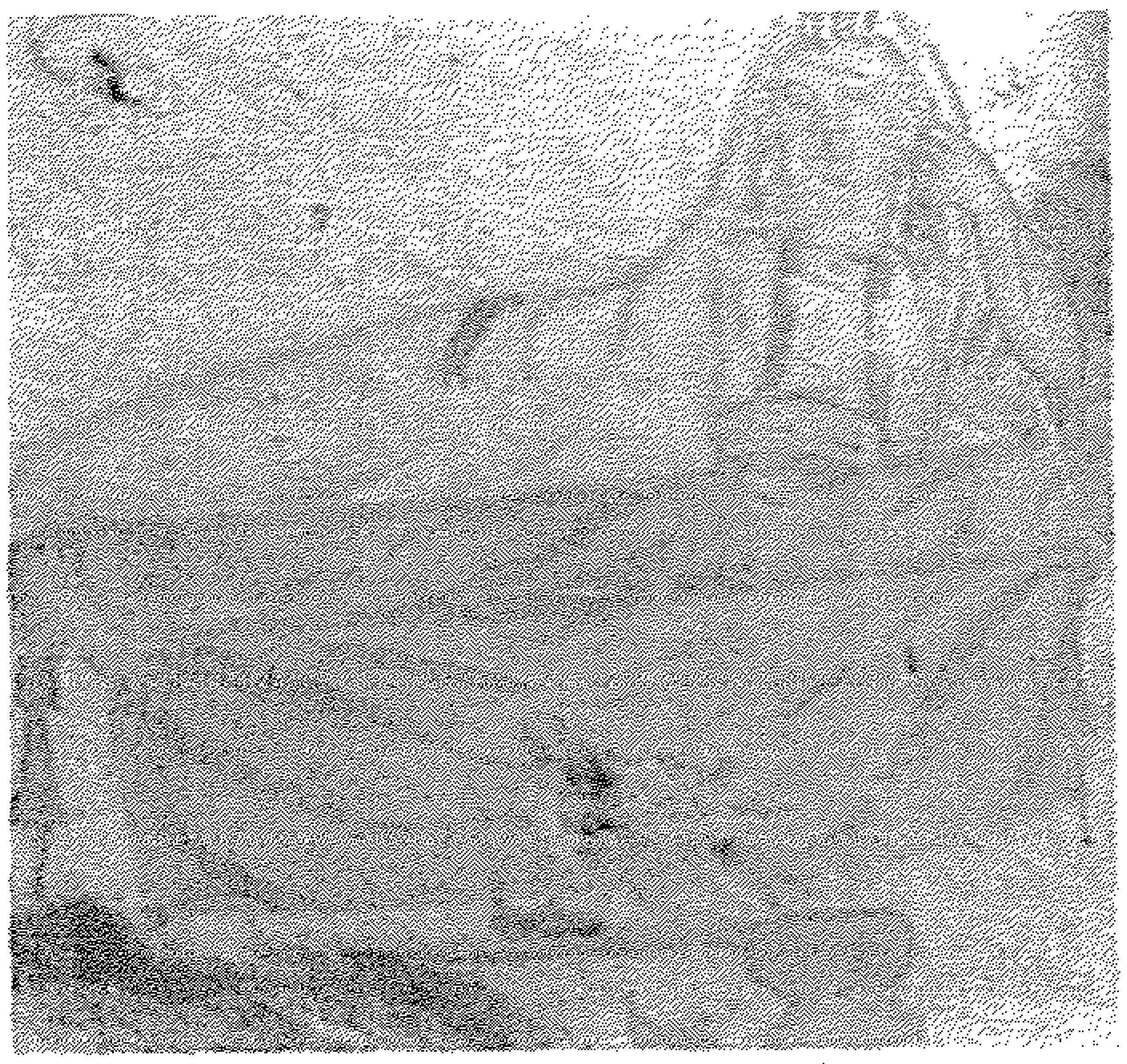

http://www.al-maktabeh.com

منذ العصر الكلاسيكي، بدا سكان المدن الفينيقية متأثرين بالتجديدات الفنية القادمة من البلدان الإغريقية. وعلى الرغم من أنه وجد تقليد طويل من التوابيت الشبيهة بالإنسان، المقتبسة من مصر، فإن الصيدونيين الأغنياء لم يترددوا في استدعاء فنانين إغريق أو تدربوا في اليونان كي يضيفوا إلى غطاء التابوت رأساً منحوتاً وفقاً للقوانين الكلاسيكية . وبعد غزو الإسكندر، تهلّنَ الحضر سريعاً ولم يعودوا يتميزون عن الإغريق الأصليين. الصورة هنا هي لمسلة تسمى مسلة روبيا، مصدرها صيدا، وتمثل فتاة ميسورة تتحدر من تلك الأوساط المهلنة، وهي مستلقية على سرير النوم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عدا ذلك، ورغم أن إنشاء المدن لم يكن يهدف إلى تهلين السكان المحليين، فإن هؤلاء لم يُمنعوا قط من التهلُن. في ذلك، لم يكن مجتمع سورية المُهَيْلَنة مجتمعاً كولونيالياً: كان يمكن للسكان المحليين أن يحصلوا فيه على نفس وضع السادة من خلال التثاقف. وكان مفهوم الهوية الإغريقي يساعد على ذلك، إذ أن الخطيب الأثيني إيسقراط أعلن منذ العام ٣٨٠ قبل الميلاد: «يطلق اسم الإغريق بالأحرى على الناس الذين يشاركوننا التنشئة والثقافة أكثر مما يطلق على أولئك الذين يشاركوننا أصولنا» (Panégyrique, 50).

فينيقيا، تثاقف سريع

تحولت المدن – الممالك الفينيقية في الواقع إلى مدن «على الطريقة الإغريقية»، إلى دويلات مدن، من خلال إلغاء الملوك وحسب، خلال النصف

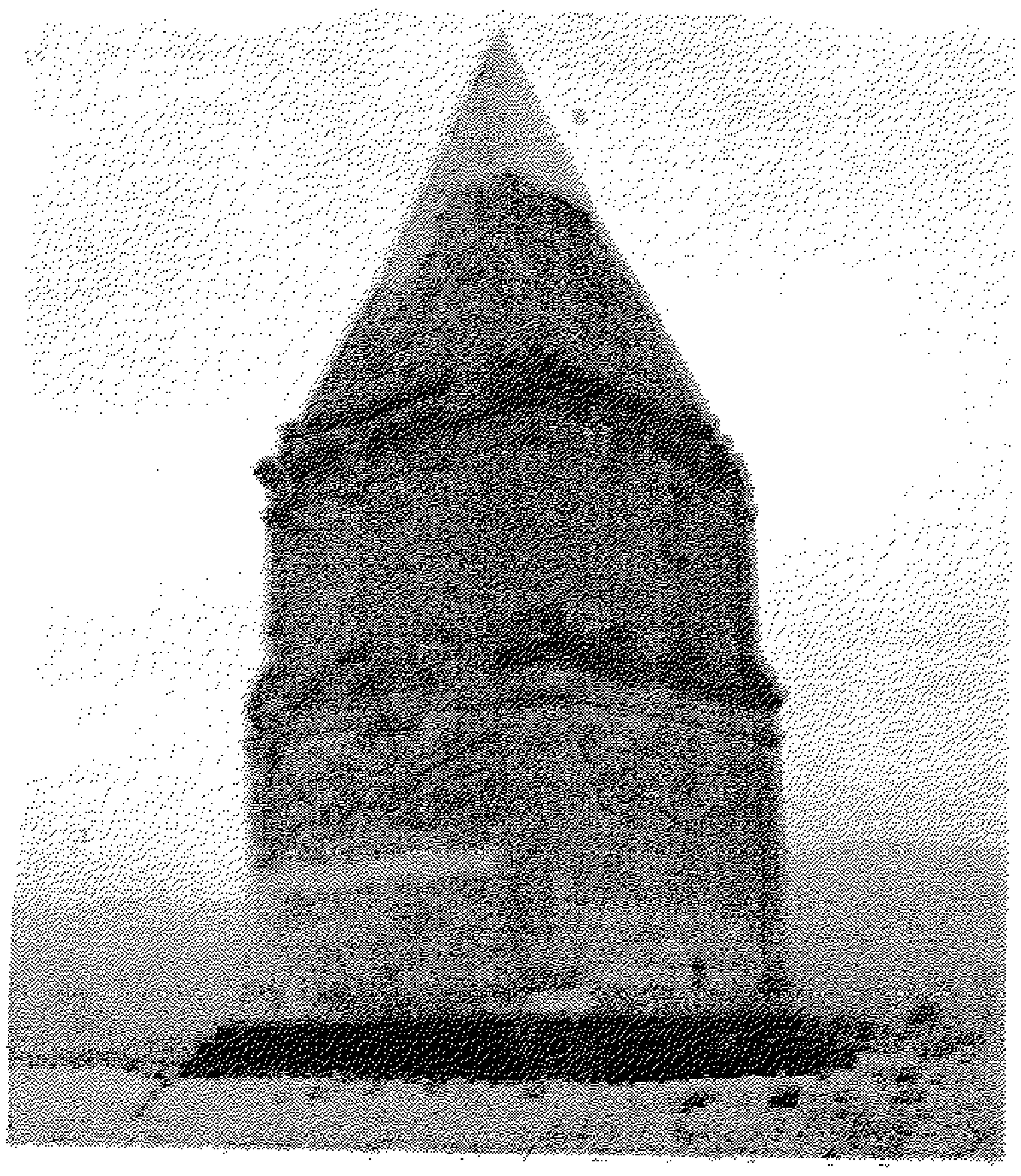

هذا الأبد من الهرمل، شمال البقاع اللبنانية، هو شاهد على الثراء والثقافة الإغريقية للأمراء المحليين، الذين عرفوا، في نهاية العصر الهلنستي، كيف يفيدون من ضعف السلطة الملكية كي يخصوا أنفسهم بميدان لا يخضع لسيطرتها. وكان هذا الضريح، المغطى بهرم، يحمل على كل وجه من وجوهه مشهد صيد، مشيراً إلى نشاط هؤلاء الأرستقراطيين المهلنين. وكان لديهم مربون في خدمتهم، مثلما تشير هذه المسلة هنا في الأسفل من القرن الثالث أو الرابع الميلادي، التي تمتدح صفات أحد هؤلاء بأبيات منقوشة غير منتظمة من الشعر.

http://www.al-maktabeh.com

الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. وبقيت المؤسسات الأخرى على حالها، واكتفي دون شك بإضافة بعض الوظائف الضرورية لحسن عمل المدن الجديدة، كوظائف مسؤولي مصلحة المياه ومديري المنشآت الرياضية البدنية.

قبل نهاية القرن الثالث، نظر إغريق العالم الإيجي إلى سكان صور، وصيدا (صيدون)، وبيبلوس (جبيل)، وبيريتوس (بيروت) على أنهم إغريق، مثل الآخرين، إذ كان قد تم قبولهم للمشاركة في المباريات الكبرى في إطار الرابطة الإغريقية. كان لجميع سكان صور وبيريتوس، الذين نعرف هويتهم، أسماء إغريقية ولم يعودوا يميزون عن الإغريقيين الأصليين. ومن الصحيح أن هذه المهمة كانت ميسرة بالنسبة للنخب الفينيقية، المعروفة من قبل الإغريق منذ زمن طويل. أدى الفينيقيون دوراً لا يستهان به في الميثولوجيا الإغريقية، إذ عرف الصيدونيون على أنهم مستوطنو مدينة أرغوس (اليونانية) ومؤسسو ثيبة بيوسيا[٢٥]. وكانت أوربا[٢٦] الجميلة، محبوبة زيوس، صيدونية.

في القرن الرابع قبل الميلاد، وبينما كان التجار الفينيقيون يترددون إلى المرافىء الإغريقية وبالأخص بيريا، كان آلاف من المرتزقة الإغريق، العاملين في خدمة الملك الفارسي، يجوبون الشاطىء السوري.

إذن، لم ينطلق التثاقف من فراغ. كان بالأحرى سريعاً. هل يعني ذلك تلاشي الثقافة الفينيقية وأصالة الفينيقيين؟. لا بد من التمييز بين مدن وأرياف، بين نُخَبٍ والطبقات الأدنى من المجتمع. إذا كانت النخب تتهلن سريعاً، فإن الأرياف بقيت غريبة إلى حد كبير عن الثقافة الجديدة: في قرية أم العواميد، على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من صور، نجد التسجيلات الأثرية مكتوبة كلها بالفينيقية ولا نجد فيها أي أثر للتأثيرات الإغريقية. في الطبقات الأدنى من المجتمع، بقيت الفينيقية بالتأكيد هي اللغة الدارجة؛ وبقيت التسجيلات الفينيقية سائدة حتى نهاية العصر الهلنستي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مع ذلك، الثقافة الفينيقية، بالمعنى الأوسع للعبارة، فقدت أصالتها حتى انصهرت إلى حد كبير في الثقافة الإغريقية المسيطرة. وهكذا، خرجت الفينيقية من الاستخدام الدارج المكتوب والمحكي منذ بداية العصر الإمبراطوري. ولم تستمر الفينيقية بعد ذلك إلا على شكل حروف معزولة على النقود أو في أسماء العلم. إلا أنها اختفت كلغة حية، ضحية في الوقت نفسه لنجاح اللغة الإغريقية ونجاح الآرامية التي ما كفت تتقدم.

تصور هذه المسلة الضريحية، من القرن الثالث أو الرابع ميلادي، رجلاً اسمه سقميلوس، وزوجته، واسمها إينيه، وابنتهما واسمها أوبيه. وفي حين يرتدي الأب حلة رومانية ومعطفاً، وهذا ما يميزه على أنه أحد الأعيان المحليين، ترتدي المرأتان لباس رأس معقداً وحلياً عديدة. وإذا أمكن تفسير جمودية هذا العمل جزئياً على أنها ناتجة عن قساوة البازلت، فإنه يدل بشكل خاص عن أن مكان نحته يعود إلى منحت من منطقة دمشق أو منطقة حوران.

http://www.al-maktabeh.com

انتصار النموذج الإغريقي

كان الوجهاء المحليون المهيلَنون ينظرون إلى حياة المواطنية على أنها رمز لترقيتهم، حتى أنهم هم أنفسهم طالبوا الملوك السلوقيين، ثم الأباطرة الرومان، بمنح الجماعات السكانية المحلية التي كانوا يعيشون فيها وضع المدينة الإغريقية. لم تكن تلك حال فينيقيا فقط، بل أيضاً سورية الداخلية، في بعض المدن الآرامية القديمة، كحماة أو دمشق. تبيِّن مطالبة النخب المحلية المهيلنة هذه أن إنشاء المدن استمر لوقت طويل بعد وصول آخر المستوطنين. بعض المدن رممها أو أعاد بناءها القائد الروماني بومبيوس أو نوابه في المدن العشر نحو ٦٤ – ٦٠ قبل الميلاد، غير أن مدناً أخرى رُقّيت طيلة العصر الإمبراطوري: تدمر في العام ١٩ ميلادية، وحمص في العام ٧٢، وبصرى في عهد ترايانوس، والسويداء (ديونيزياس) خلال القرن الثاني، وشهبا (فيليبوبوليس) عام ٢٤٤ – ٢٤٥، وشكا (مكسيميانوبوليس) عام ٢٨٧ أو ٣٠٢. وفي ذلك برهان على أن النموذج بقي جذاباً. لم تكن المدن السورية تختلف عن المدن الإغريقية الأخرى، ونلحظ فيها المؤسسات نفسها الموجودة في أماكن أخرى: مجلس (شيوخ أو نواب)، وحكام (كبير القضاة، ومأمور المياه)، وخبراء الطقوس (مدراء المؤسسات الرياضية البدنية). وكما في أماكن أخرى، تعتمد المدينة في تمويلها جزئياً على سخاء الأفراد الأغنى، الذين يكافأون بإقامة تماثيل لهم ومنحهم ألقاباً فخرية («أب المدينة»)، ومختلف الامتيازات (ضريح عند أسوار المدينة، ومكان شرف في المسرح...).

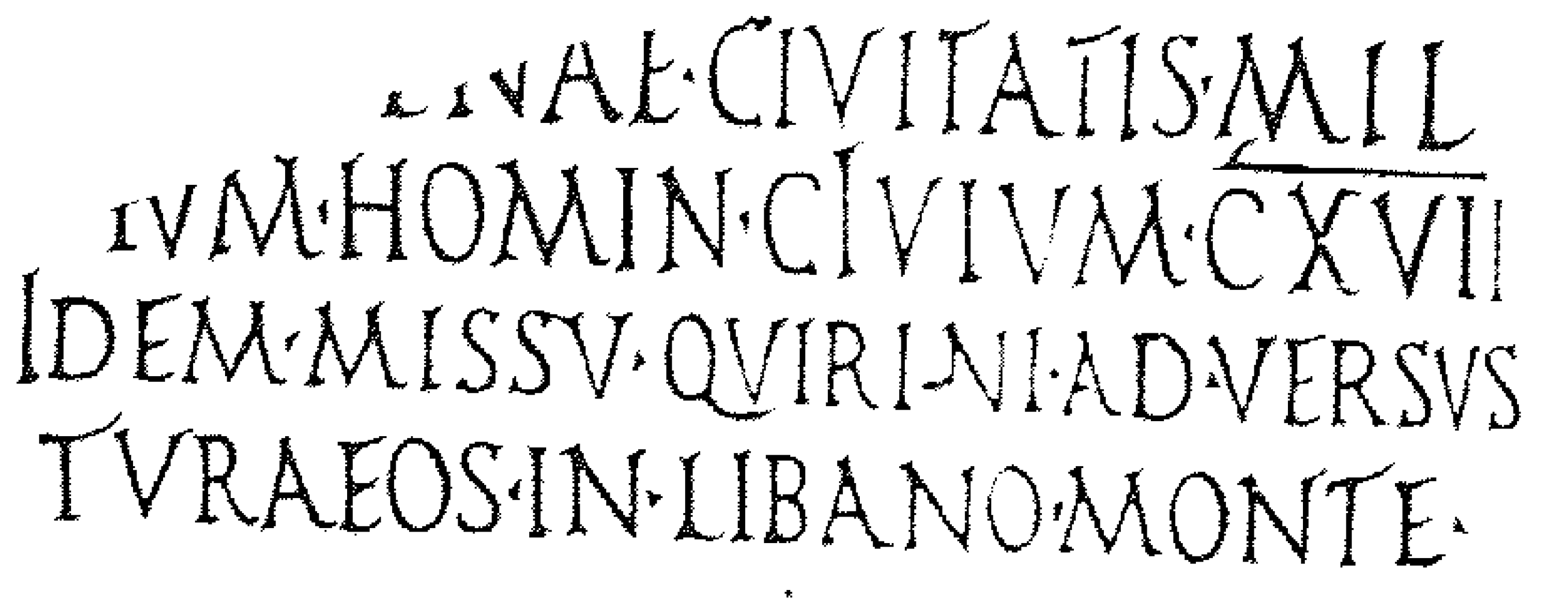

شاهدة طويلة تعود لموظف روماني تشير إلى العدد ١١٧٠٠٠ مواطن في مدينة أفامية في العام ٦ ميلادي. إنها معلومة قيمة، ولكن تصعب الإفادة منها، وهي مع ذلك تجعل من المدينة واحدة من أكثر المدن السورية سكاناً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المدن السورية الكبرى

تجلى نجاح المدن في سعتها، حيث وصلت مساحتها إلى عشرات الهكتارات غالباً، وأحياناً إلى مئات الهكتارات (٢٥٥ هكتار في أفامية، وأكثر من ٦٠٠ هكتار في أنطاكية)، ولو أنها لم تكن محضّرة بالكامل. أما أرقام عدد السكان، فهي موضع جدالات حادة. التعداد الوحيد الذي وصل إلينا في النصوص القديمة يشمل إقليم أفامية: أحصي فيها ١١٧٠٠٠ نسمة في العام ٦ميلادي. ولكن هل كان ذلك يشمل كل الأشخاص الأحرار، المواطنين وحدهم؟. في أنطاكية، خلال القرن الثاني – الثالث الميلادي، يبدو أن عدد السكان لم يكن يقل عن ٢٥٠٠٠٠ نسمة. إلا أنها كانت مدينة كبيرة تتعذر مقايستها ببقية المدن السورية.

تشكلت أنطاكية، التي تمتد عند سفوح جبل سيلبيوس، من تجاور عدة أحياء اتحدت أخيراً داخل سور مشترك في زمن الإمبراطور تيباريوس. وقد أصبح شارعها الرئيسي الطويل، الذي بلط بإشراف هيرود، والذي تحيط به الأروقة، نموذجاً للعديد من المدن الأخرى في الإمبراطورية. ولما كانت مدينة ملكية، فقد أصبحت مع روما مكاناً لمرور لأباطرة المتكرر، والذين أقاموا فيها أيضاً مراراً عديدة في القرن الميلادي الرابع.

http://www.al-maktabeh.com

كانت المدن السورية تظهر فخامة وذوقاً تضاهي فيهما مثيلاتها في العالم الإيجي. ولا بد مرة أخرى من الاكتفاء بالوصوف الأدبية بالنسبة للعصر الهلنستي[٢٧]. يصف المؤرخ اليوناني بوليبيوس جمال معابد سلوقية في القرن الثاني قبل الميلاد، ويمكننا أن نثق بأن السلوقيين أرادوا منافسة اللاجيين عندما جعلوا من أنطاكية مدينة لا تقل جمالاً عن الإسكندرية. بالنسبة للعصر الإمبراطوري، أصبح التوثيق غزيراً ويشهد على روعة المدن السورية. وحدث أن أعطت هذه المدن نموذجاً: ربما كانت أنطاكية أول مدينة في الإمبراطورية تتزين بشارع أروقة في عهد تيباريوس[٢٨]. وانتشر هذا الطراز في كل مكان، خصوصاً في سورية كلها، وهو ما انتهى بإعطاء طابع متماثل نسبياً لكل هذه المدن. وسواء كان الأمر بنتيجة الزلازل المدمرة (حول زلزال عام ١١٥ مدينتي أنطاكية وأفامية إلى أنقاض)، أم حباً في التجميل، فإن المدن السورية تجددت بالكامل في العصر الإمبراطوري. على كل حال، ما كان يمكن لذلك أن يتوافق ومرحلة إقامة هامة للرومان والإيطاليين في سورية، إذ باستثناء مستعمرة بيروت، قطب النشاط اللاتيني الذي ضم منذ وقت مبكر كفايةً دون شك موظفين وحقوقيين مكلفين بترجمة المنشورات الإمبراطورية إلى الإغريقية، لم يتواجد فيها سوى أفراد معزولين منهم، خصوصاً شيوخ المهن. إذن، استجاب تحول المدن السورية بذلك لضرورات أخرى، خصوصاً هم الظهور، والمنافسة مع الجارات.

مكتبة المهتدين الإسلامية

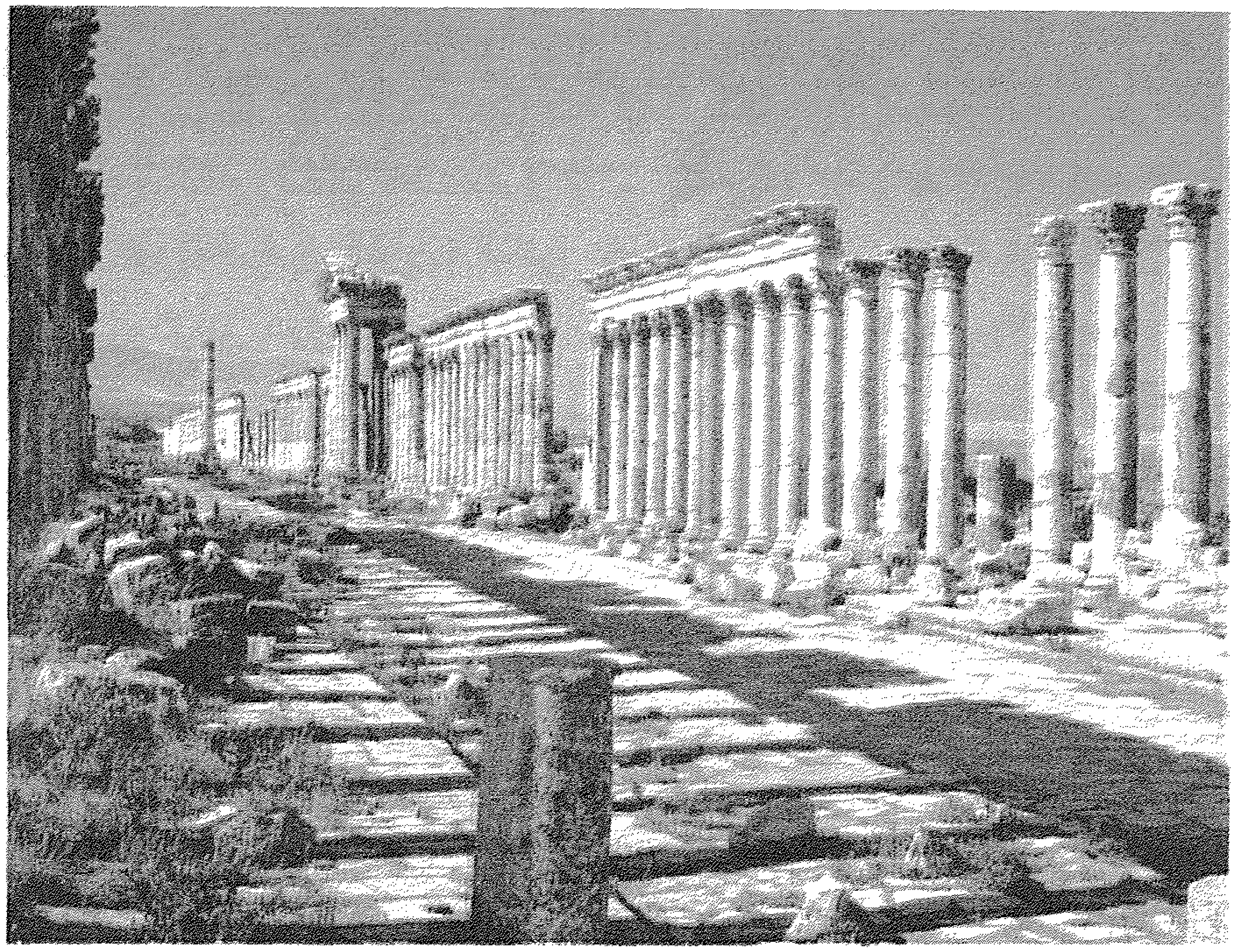

كانت أفامية، التي بناها سلوقوس الأول منذ ٣٠٠ قبل الميلاد، تأوي قسماً من الجيش السلوقي، وبالأخص الفيلة. وقد أتت بعد مستعمرة أخمينية ودون شك بعد تأسيس من أنتيغونس الأعور (أكبر قواد الإسكندر). ولما بنيت على مرتفع يطل على وادي العاصي المستنقعي، اتخذت المدينة المخطط المتعامد الذي اتبعته منشآت هلنستية عديدة أخرى، مثل دورا - أوروبوس، وأنطاكية. وبقي الـ ٢٥٥ هكتاراً، التي ضمها محيطها اللامنتظم، غير مسكون جزئياً باستمرار، في حين نمت قرى قبالة البوابة الشمالية. ونجهل ماذا كانت تشبه المدينة الهلنستية، لأن الأنقاض الحالية لا تعود إلى ما قبل القرن الميلادي الثاني. في الواقع، تعرضت أفامية لهزة كانون الثاني ١١٥ ، التي دمرت أنطاكية، وخضعت في السنوات التالية لإعادة إعمار واسعة. أصبح الشارع شمال - جنوب العريض جداً (٢٠ م ممر طريق، و٤٠ م من داخل الأروقة)، الذي يصل طوله إلى ٢كم تقريباً، طريق النصر آنذاك، وازدان بأعمدة تضفي مؤثرات مختلفة (أعمدة ملساء، ومخددة، ومجدلة)، بينما انتصبت الأعمدة الفخرية في وسط الممر.

http://www.al-maktabeh.com

تنظيم المدن وفن العمارة

كانت غالبية المدن السورية تحتفظ بمخطط متعامد، مع محور مفضل، دون إلحاق تغيير بمخطط الأسوار. إلا أن المباني العامة خضعت للتحول والازدياد: الأحرام على الجدران العريضة (على الطراز الروماني)، والمسارح، والمدرجات، وساحات السباق، وأقواس النصر، والأبواب الآبدية كانت ذوق العصر السائد. بنيت معابد أخرى، ليست أقل فخامة، مقتبسةً عناصر زخرفتها من الفن الإغريقي – الروماني، دون أن يمس ذلك بالبنية العميقة للمبنى. تلك كانت الحال في تدمر، مع معبدي بل وبعلشمين، وفي بعلبك مع مركز عبادة جوبيتر الضخم الذي تتابع بناؤه على مدى ثلاثة قرون.

تجلت الفخامة أيضاً في المسكن الخاص. وقد وجدت في أنطاكية، وسلوقية، وأفامية، وتدمر بقايا منازل فسيحة من العصر الإمبراطوري، غالباً أكثر من ١٠٠٠ متر مربع، مع فناءات بأروقة معمَّدة وحجرات استقبال مبلطة بالفسيفسائيات التي هي من الأجمل في العالم المتوسطي. اكتشافات زوغما الحديثة على الفرات تشير إلى أنه غالباً ما كانت تضاف إلى الفسيفسائيات رسوم جدارية أندر مقاومة للزمن. وحتى المدن الصغيرة، مثل فيليبوبوليس (شهبا) وديونيزياس (السويداء) أعطت فسيفسائيات جميلة تشير موضوعاتها الميثولوجية إلى دخول الثقافة الإغريقية إلى النخب البلدية في سورية كلها: أورفيوس، وربات الفن، وكوكبة ذات الكرسي **Cassiopée**، وأعراس آريس وأفروديت، والنزاع بين ديونيزوس وهرقل، وسواها من الموضوعات الأيقونوغرافية التي تقاسمها إغريقيو سورية مع مجمل النخب المثقفة في حوض المتوسط الشرقي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

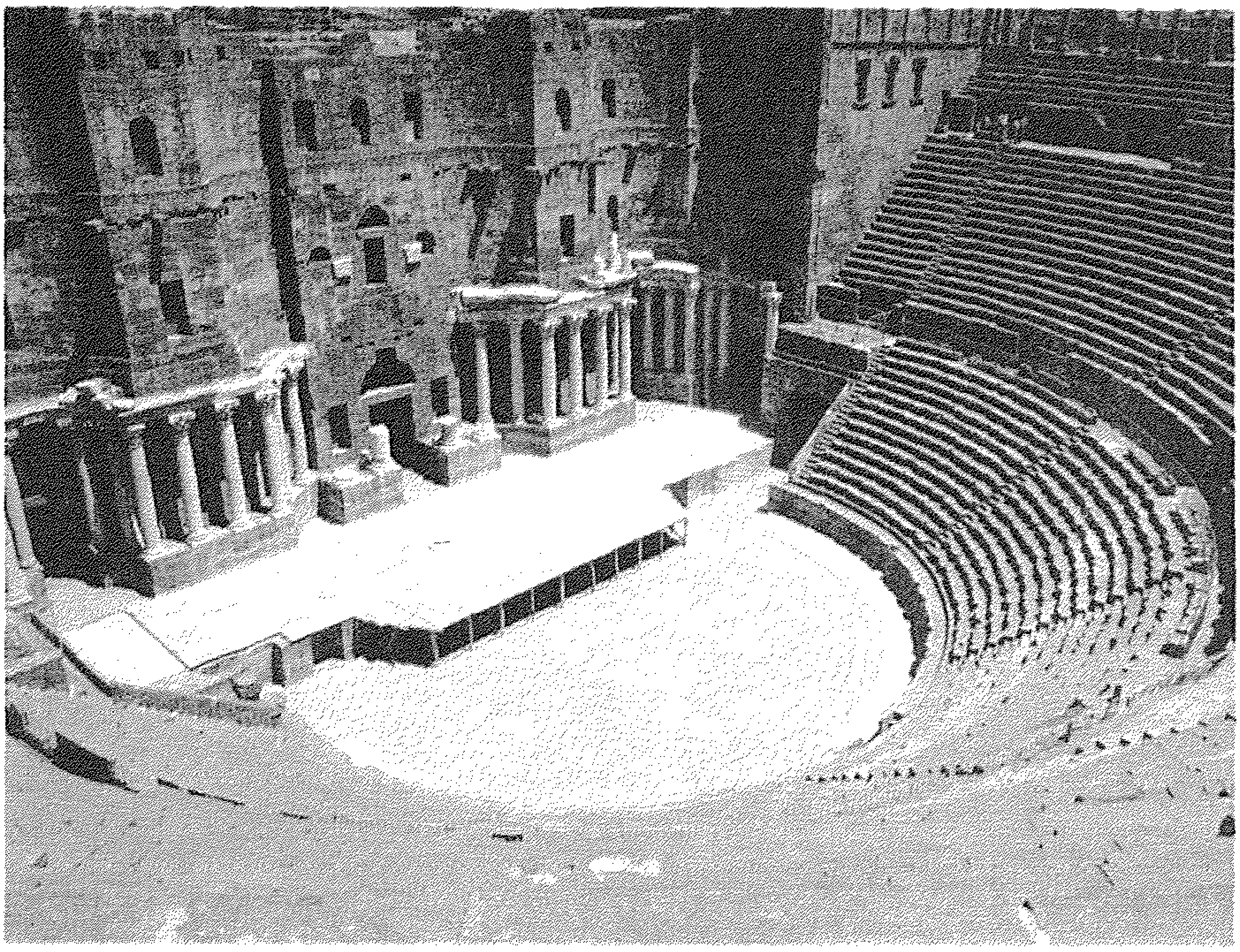

أصبحت بصرى، العاصمة الشمالية لمملكة الأنباط، تحت حكم ملكي الأنباط الأخيرين، مليكوس الثاني (٤٠ – ٧١) ورابل الثاني (٧١ – ١٠٦)، وبشكل طبيعي، مكان الإقامة الجديد لحاكم مقاطعة العربية، في حين أقام أحد الفيالق معسكره عند التخوم الشمالية للمدينة. ولما كان لها وضع الدويلة المدينة، واسمها نيا ترينااي Néa Trainae، ازدهرت بصرى منذ إنشاء مقاطعة العربية خلال القرن الثاني الميلادي بالصروح الرئيسية التي تشكل عادة زينة المدينة الرومانية الشرقية: حمامات عمومية، وميدان، وأقواس آبدية، وشوارع رواقية، وبالأخص مسرح، هذا المسرح الذي بقي على حالته هذه حتى الآن بنتيجة تحويله إلى قلعة في العصر الإسلامي حين دعم ببُرَيْجات قوية من كل الجوانب. وقد أعيد رفع طابق واحد من الأعمدة على جدار الواجهة، في حين كان يوجد ثلاثة طوابق منها. وتشير تسجيلات أثرية على مقاعد المدرج حتى الآن إلى أماكن صانعي القِرَب وضاربي النحاسيات والصاغة. وتفسَّر ضخامة المسرح (٩٠٠٠ مقعد) جزئياً بحضور الجنود والموظفين الرومانيين الذين كانوا مواظبين على مشاهدة العروض.

http://www.al-maktabeh.com

لا يبدو أن «أزمة» القرن الثالث قد أثرت كثيراً على المدن السورية. من المؤكد أن الكثير منها عانى من الحروب: كانت دورا - أوروبوس قد هُجرت نهائياً بعد ٢٥٦ ولم تنهض تدمر من أسْرها بالفعل عام ٢٧٢. ولكن، خلافاً لما يلاحظ في المقاطعات الأخرى حيث بدت مدن القرن الرابع مقلَّصة قياساً بمدن القرنين الأول والثاني، لم يُلحظ في سورية حدوث انقطاع حقيقي في النمو المديني. لزم بالتأكيد مع الزمن القيام بأعمال إصلاح وإعادة بناء: بصرى، التي كان قد أعيد بناء أسوارها خلال القرن الثالث، باشرت أعمال البناء في منتصف القرن السادس. وفي كل مكان، لوحظ ازدهار الكنائس، التي زينت على نحو فخم بسجاجيد من الفسيفساء.

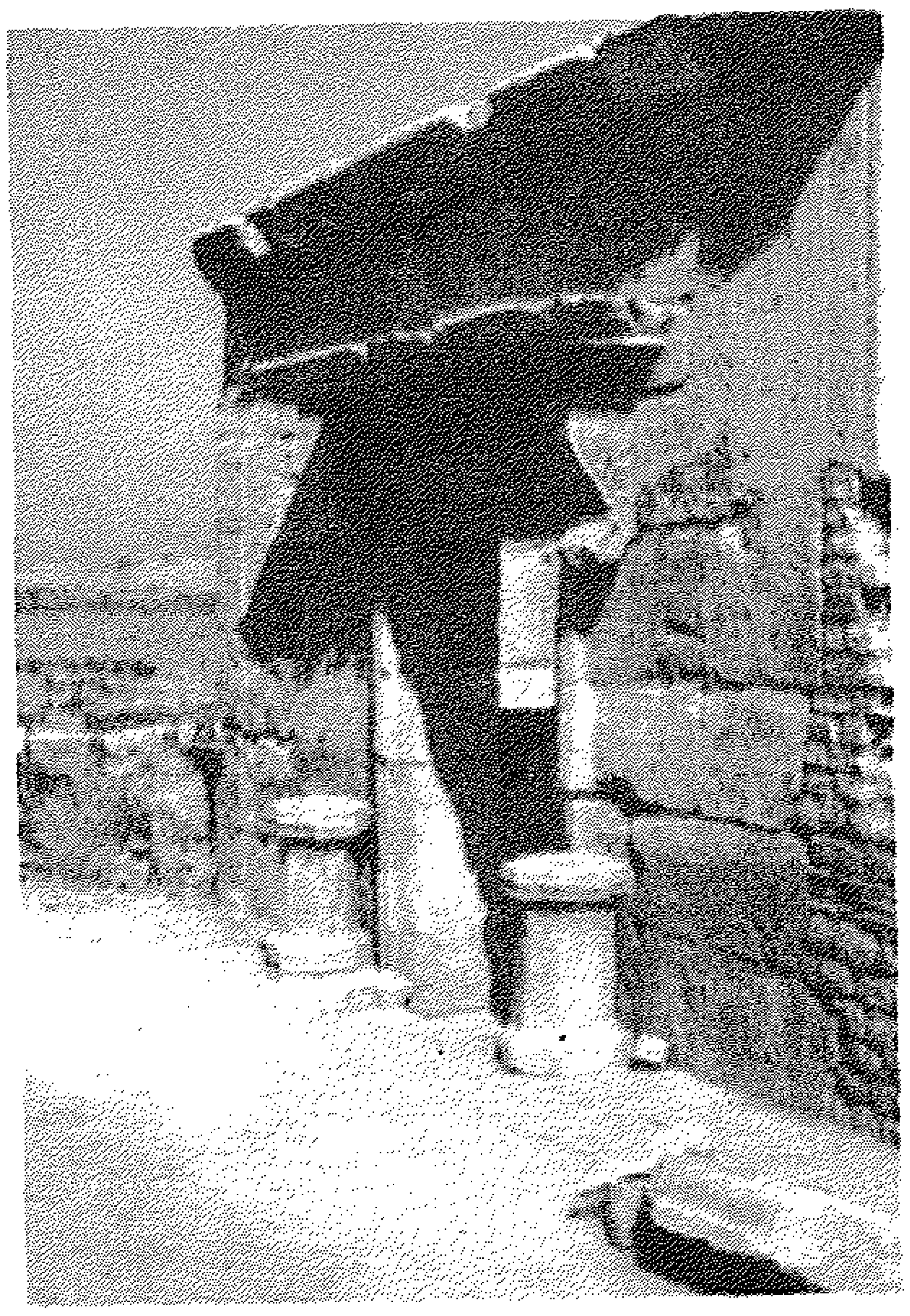

لم تكن المنازل الحضرية الغنية (هنا بيت بزوافر، أو حوامل جدارية، في أفامية) تُظهر ترفها الزخرفي على الواجهات الخارجية. ولما كانت تشغل جزيرة كاملة أو جزءاً منها بين أربعة شوارع، فإنها كانت تغطي أحياناً عدة آلاف من الأمتار المربعة، غير أنها لا تنفتح على الشارع إلا عبر باب بسيط قليل الزخرفة. هنا، نرى حاملتين جداريتين على شكل الحرف S وقد شغلتا بدقة وتحملان الظلة التي تحمي الزائر من المطر والشمس.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الحياة الثقافية

شهدت المدن السورية، بوتقة الثقافة الإغريقية طوال ما يقرب من ألف عام، حياة ثقافية غنية. ويبدو الدور الرئيسي الذي أداه في الآداب الإغريقية كثير من الفلاسفة والكتاب من أصل فينيقي منذ العصر الهلنستي

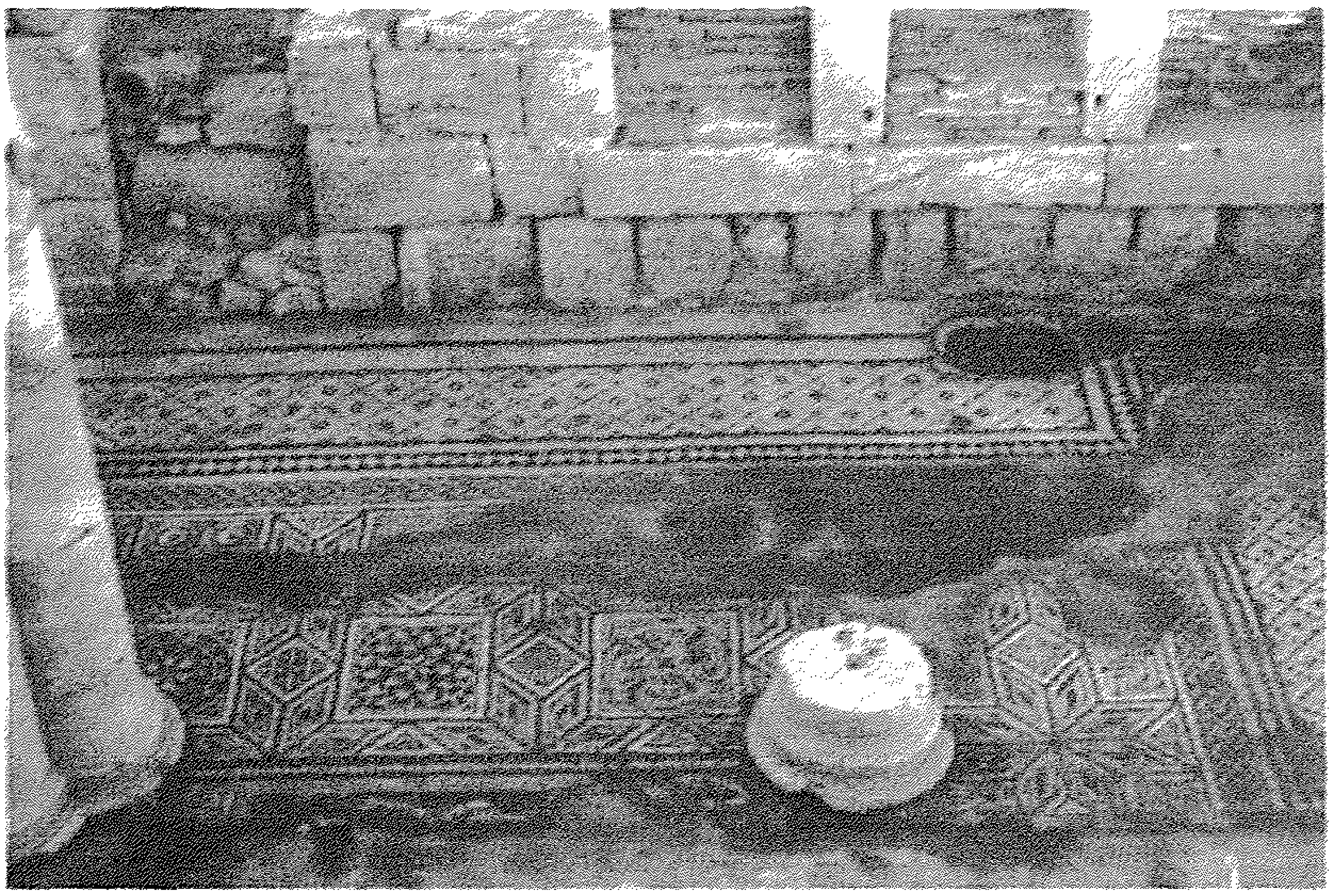

يظهر ترف الزخرفة كله في داخل المساكن الخاصة ويتمثل بشكل خاص في ثراء الفسيفساء الذي يغطي أرض غرف الاستقبال كما الممرات؛ هنا في الباحة المعمدة لبيت بأعمدة ذات فصين في أفامية، اكتفوا بأشكال هندسية حيث أفاض الفنان مع ذلك في تأثيرات المنظورات والأحجام. في أماكن أخرى، هنالك مشاهد تنم عن تذوق أصحاب المُلْك للأساطير الإغريقية أو الموضوعات الفلسفية مثل وليمة الحكماء السبعة.

ألمع دلالة على ازدهار الهلينية في هذه المنطقة. كوكبة من الفلاسفة، الرواقيين(٢٩)، والكلبيين(٣٠) والأبيقوريين(٣١)، انحدرت من صور وصيدا أكثر من المدن السورية الأخرى. استمر هذا التراث في العصر

http://www.al-maktabeh.com

الإمبراطوري، مع مشاهير مثل الخطيب مكسيمس الصوري (١٢٥ – ١٨٥) والفيلسوف بورفيروس الصوري (٢٣٤ – ٣٠٥)، الذي شرح أفلاطون وأرسطو دون كلل. ويجب أن نضيف إليهما عدداً من العلماء، مثل الجغرافي والرياضي مارينس الصوري (القرن الأول) وبالأخص المؤرخ فيلون الجبيلي (القرن الأول) الذي بدا مجرد مترجم لمؤلف سابق، سنشونياثنس البيروتي، غير أنه جمع في الواقع ما نعرفه، في عصره، عن الأساطير الفينيقية القديمة. وعلى الرغم من تبدده في معظمه، فإن هذه الأدب الإغريقي يدل على حب إغريقيي فينيقيا للتأمل الفلسفي وتخليهم التام عن لغتهم الخاصة بهم.

ساهم الكثيرون أيضاً من سوريي الداخل المهيلَنين في صياغة الثقافة الإغريقية. ومن الصعب تمييزهم عن الإغريقيين الأصليين، ولكن حدث أن طالبوا هم أنفسهم بهذا الأصل المحلي. ولكن، كان مينيبوس الجداري (أو القيداري)، الفينيقي الذي أصبح عبداً في سينوب (التركية اليوم) منذ غداة الغزو، هو مؤلف الهجائيات **satires** الشهيرة. ونادى مواطنه ميلياغروس(٣٢)، الذي ولد نحو ١٤٠ ق.م وتوفي نحو٦٠ ق.م، ومؤسس الأنطولوجيا الإغريقية، بثقافة ثلاثية آرامية – فينيقية – إغريقية. وفي عهد الإمبراطورية، كتب الفيلسوف لونجينس الحمصي (٢٠٥ – ٢٧٣ [مستشار الملكة زنوبيا، أعدمه الإمبراطور أورليانس]) وجمبليكوس الخلقيسي (٢٤٥ – ٣٢٥)، والروائيان لوقيانس السميساطي(٣٣) (١٢٥ – ١٩٢) وهليودورس الحمصي (القرن الثالث) الذي يعود في أصوله إلى أوساط سامية، بالإغريقية وتركوا أعمالاً بارزة جداً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

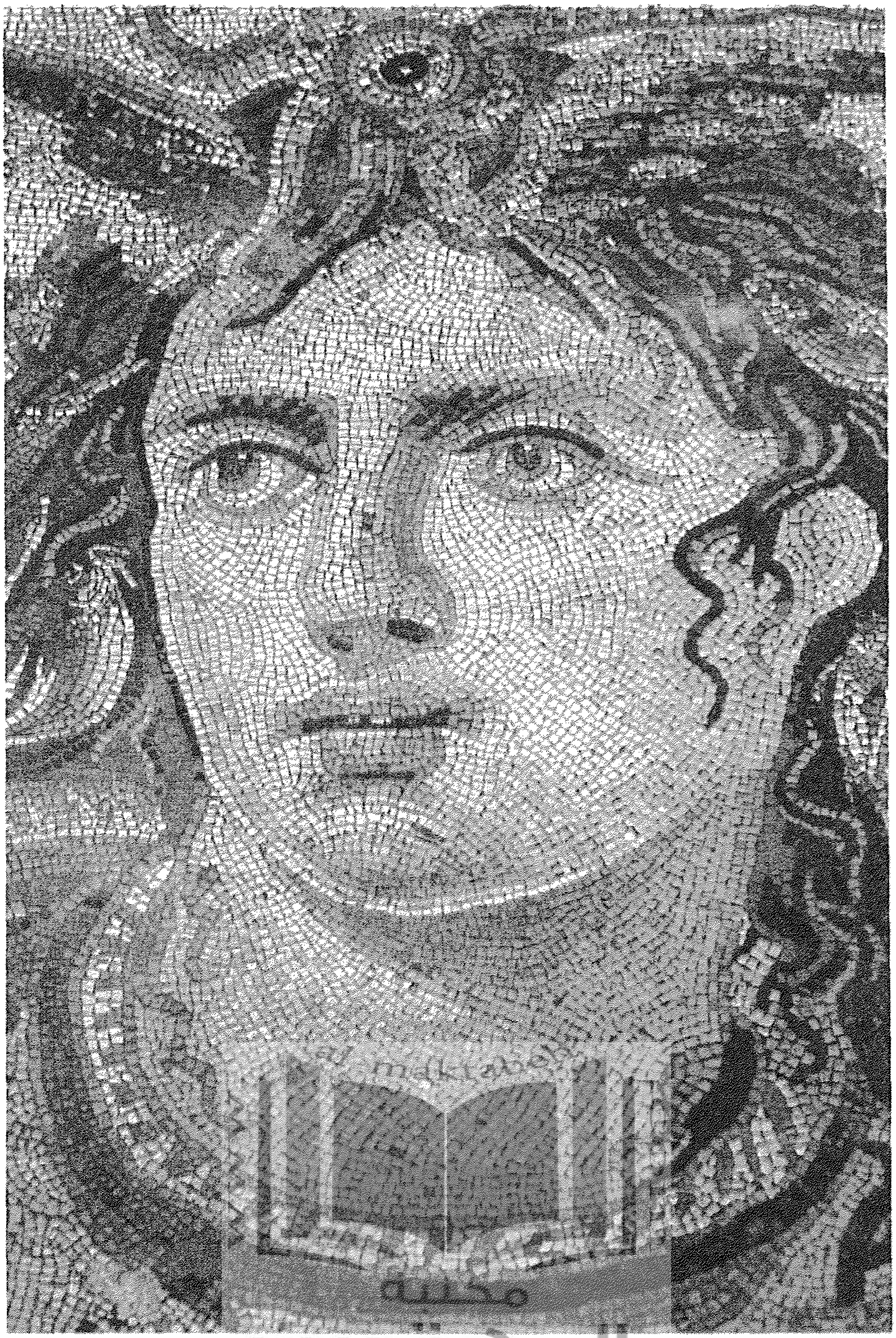

مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

بلغ فن الفسيفساء في سورية أوجه في العصرين الإمبراطوري والبيزنطي. هنا فسيفساء من فيليبوبوليس (شهبا) يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن الميلادي الرابع، وتمثل ثيتيس (تفصيل إلى اليسار،)، إلهة البحار العميقة وزوجة أوقيانوس، والتي تُعرف من الجُنيْحات على جبينها. وإلى المدينة نفسها ، تعود الفسيفساء التي تمثل جيا (الأرض) وخلق الإنسان والزمن اللا متناهي (الصورة في الأعلى)؛ وإلى يمين الصورة نفسها، بروميثيوس، الإله الذي منح البشر النار، يصيغ الشكل البشري، وفي الأعلى هيرمس، إله الخطابة والبلاغة وهو يوجه النفس نحو الشكل البشري. وفي الوسط، جيا، محاطة بفاكهة الحب وفي أعلاها تريبتوليموس مخترع الزراعة ورمز خصوبة الأرض والحظوظ التي تولِّدها. أخيراً، في أقصى يسار الصورة، يمثل إيون، وهو يمسك بدائرة البروج، إلى الزمن الخالد. في دفنه، قرب أنطاكية، ترتبط دورة الفصول (هنا الصيف، الصورة في الأسفل)، الشعبية جداً، بموضوع رخاء الأزمنة والعودة الدورية للزمن اللامنتهي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ظهرت المدينة كمركز للحياة الإغريقية. وهنا، أكثر من أي مكان آخر، تم اتباع السلوكات المميزة للعالم الإغريقي، والملبس الإغريقي، واستخدام الخمر وزيت الزيتون، وممارسة الرياضة، والانخراط في قيم المدينة، وتذوق الأشكال الفنية الإغريقية – الرومانية.

هل يعني ذلك أنه تجب مقابلة مدن «إغريقية» بأرياف «محلية»؟. هذا صحيح جزئياً دون شك، غير أن فيه مبالغة. تبدو الآرامية أنها استمرت كلغة دارجة في كل مكان، بما في ذلك المدن: كانت تترجم بها مواعظ يوحنا فم الذهب(٣٤) في كنائس أنطاكية في نهاية القرن الرابع. وفي تدمر، كانت اللغةَ الرسمية على قدم المساواة مع الإغريقية. وفي أورفا ظهر ما سمي «النهضة السريانية» في القرن الثاني، أي الازدهار الجديد لأدب آرامي مع برديصان(٣٥) وتلامذته في نهاية القرن الثاني الميلادي وبداية الثالث، الأدب الذي سمي لاحقاً بالأدب السرياني عندما أصبح في خدمة المسيحيين.

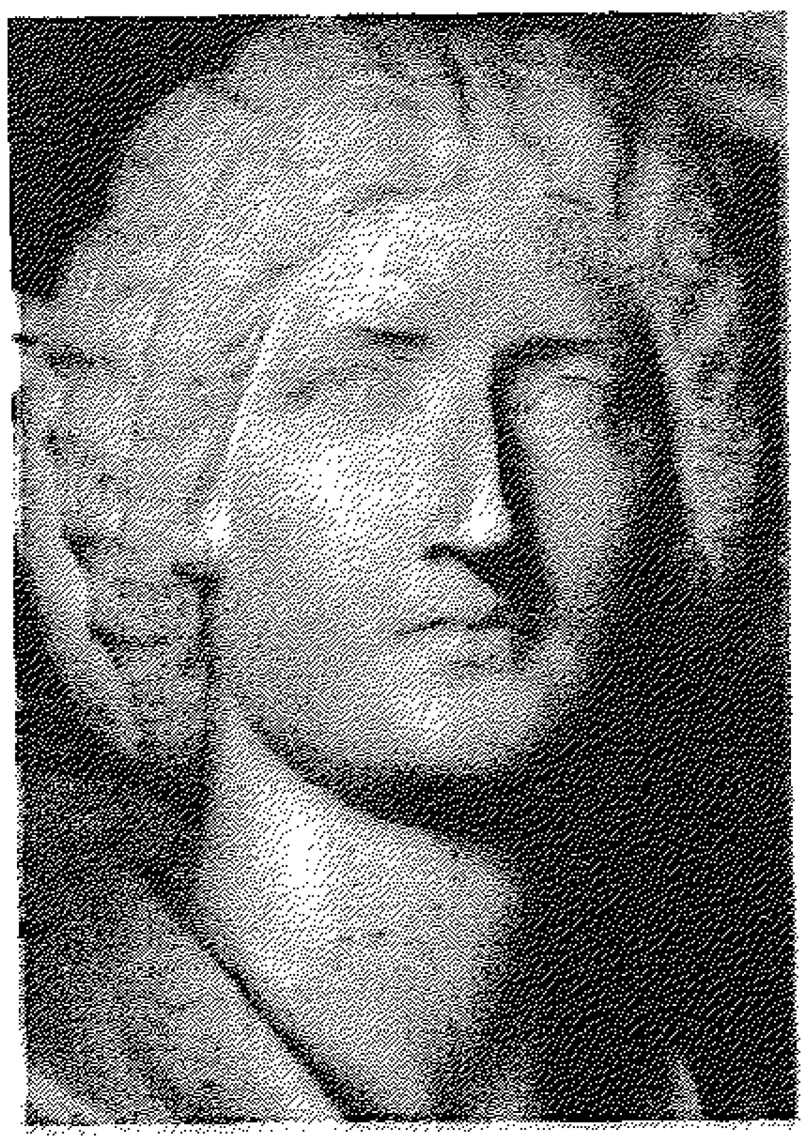

زوجة سبتيمس ساويرس، جوليا دومنا، التي كانت سليلة عائلة غنية من حمص ووريثة الكهنوت الأكبر للإله المحلي «الإله الجبل». شجعت جوليا دومنا الآداب والنشاط الفكري، وكانت تحب الأشياء الجديدة، بما في ذلك هذا الدين الجديد، المسيحية.

http://www.al-maktabeh.com

المدافن

الأحياء السكنية لم تنقب تنقيباً حقيقياً إلا في أفامية؛ بالمقابل، احتفظت مدن الموتى بعدد كبير من القبور الفخمة. أضرحة تدمر هي الأروع، بسبب تجمعها في غرب المدينة وطابعها الأبدي وزخرفتها. وتظهر القبور البرجية، كقبري إله بل وجمبليك، ثراء الأسر وهمّ الظهور في أعين مواطنيها؛ ولا تنم المدافن القبوية كثيراً، كمدفن الإخوة الثلاثة، المدفونين عند أبواب المدينة، عن ثراء أدنى، بزخرفتها المرسومة ومجموعات التماثيل النصفية الضريحية.

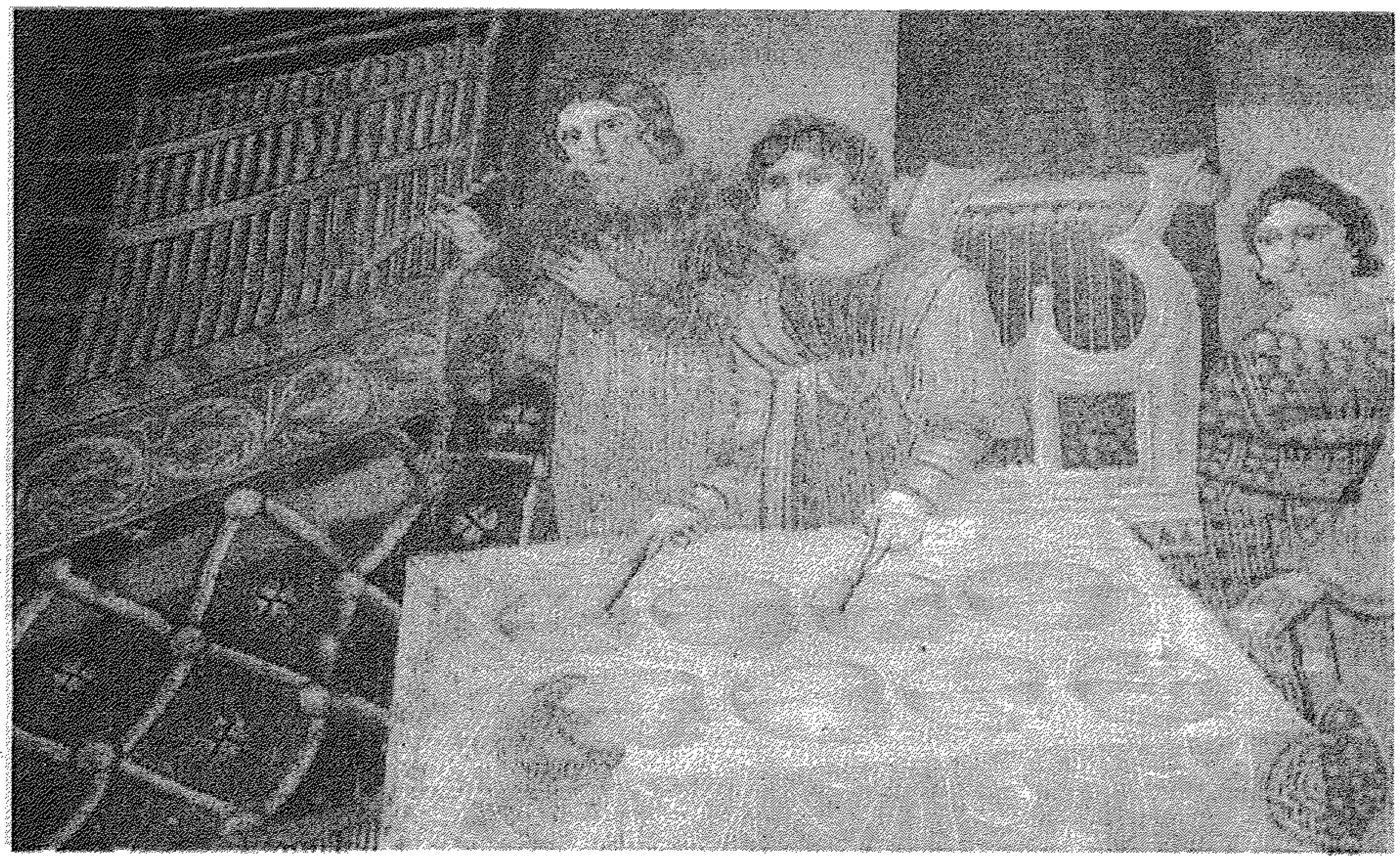

فسيفساء «الموسيقيات» الذي كانت تزدان به قاعة طعام في مريمين (غرب حمص). وتقدم هذه الزخرفة البلاطية الواسعة، التي تعود إلى نهاية القرن الميلادي الرابع، مثالاً نادراً عن موضوع مأخوذ من الحياة اليومية وليس من الأساطير أو التاريخ. نساء يعزفن على آلات مختلفة، من بينها أرغن نفخ، ونايان، وقيثارة ومجموعة كؤوس معدنية كآلات نقر.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وهكذا كانت كل مدينة تحاط بمدن موتى مدهشة بهذا القدر أو ذاك.

وحول بصرى وقنوات، تجاور الأضرحةُ والمدافن القبوية القبورَ المحفورة للناس الأكثر تواضعاً.

ساهمت النواميس، المصنوعة محلياً والمزينة بموضوعات وزخارف تقليدية بسيطة، كتلك التي وجدت في مدينة الموتى في صور (الصورة إلى اليسار)، أو المستوردة بنفقات كبيرة من اليونان أو من آسيا الصغرى، في تزيين مدن الموتى التي انتشرت بطول مخارج المدن. وكانت شاهداً على تذوق الأغنياء السوريين المهلنين للأساطير اليونانية التي لها علاقة بالموت، أو على نحو أعم، تذوقهم لمجمل الموضوعات الميثولوجية التي أبرزها كبار مؤلفي الماضي. على هذا الناووس (الصورة في الأسفل)، الذي عثر عليه في صور، ومصدره آسيا الصغرى، برياغم، ملك طروادة، يتوسل إلى البطل آخيل بأن يعيد إليه جثة ابنه هكتور الذي نراه إلى يسار الصورة وقد جره حصان.

http://www.al-maktabeh.com

في صور، تمتد مدينة الموتى بطول الطريق الذي يفارق المدينة مازجاً بين النواويس المرفوعة على ركائز والقبور العامة ذات التجاويف. وفي صيدا، كانت مدافن قبوية كثيرة تحت أراضي الأرياف، وكان بعضها مزيناً برسوم جميلة ذات موضوعات ميثولوجية. في دورا – أوروبوس كما في زنوبية (حلبيه **Halabiyyeh**)، كانت أبراج تضم عدة عشرات من القبور، على النموذج التدمري.

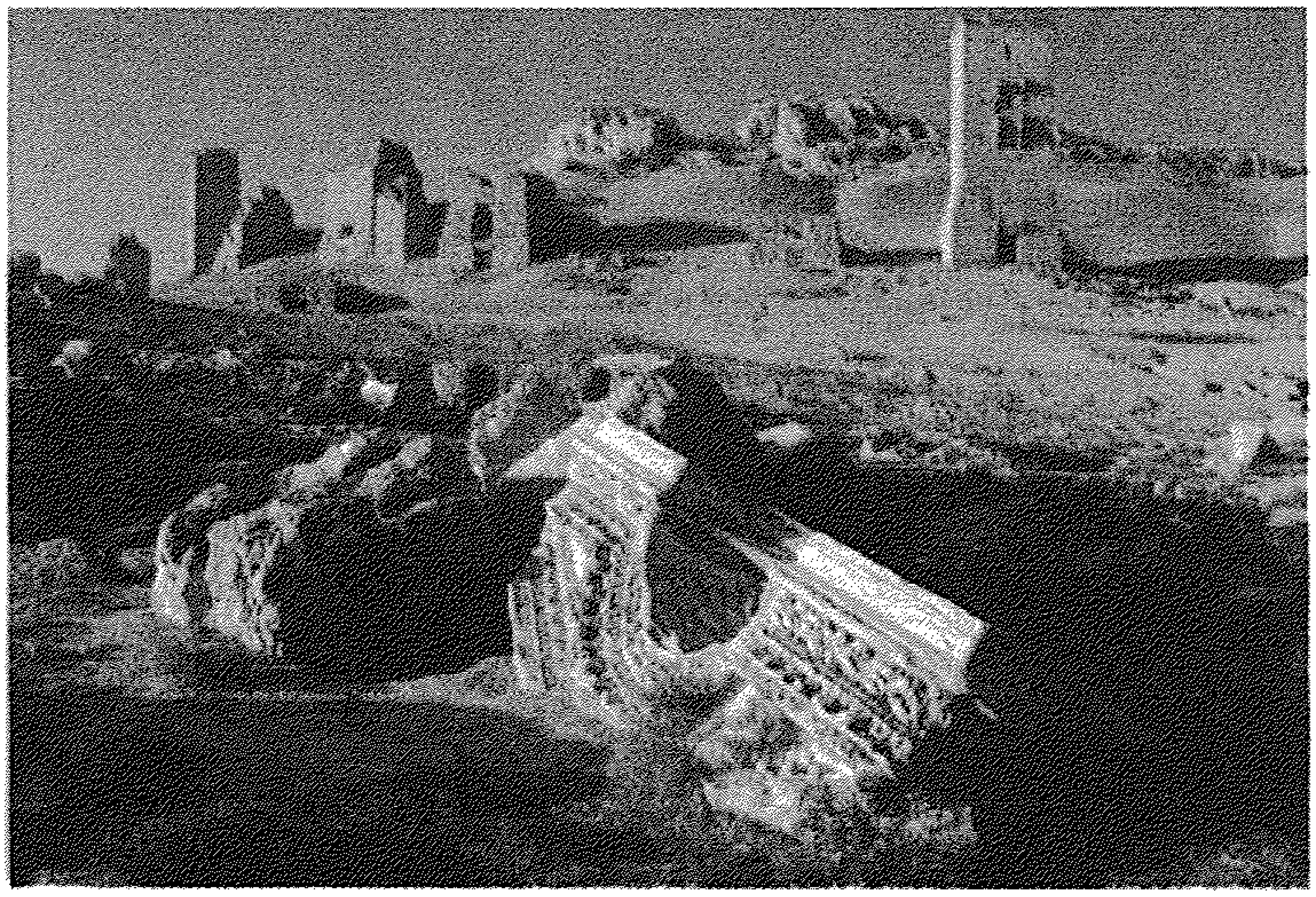

لا يشكل وادي القبور عند مخرج تدمر الغربي سوى واحدة من مدن موتى هذه المدينة، الأفخم ربما، بسبب كثرة الأبراج المدفنية. تعرض الكثير من هذه الأوابد للدمار، غير أن البقايا المنحوتة تشير إلى بذخ معظمها: جبهة القبر ٣٦ (الصورة في الأعلى) تتيح تقدير ثراء زخارف هذا البناء الذي لا بد أنه كان واحداً من الأوسع والأغنى خلال القرن الميلادي الثالث، وربما كان يخص وورود، أحد أفراد أسرة من أصل فارسي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

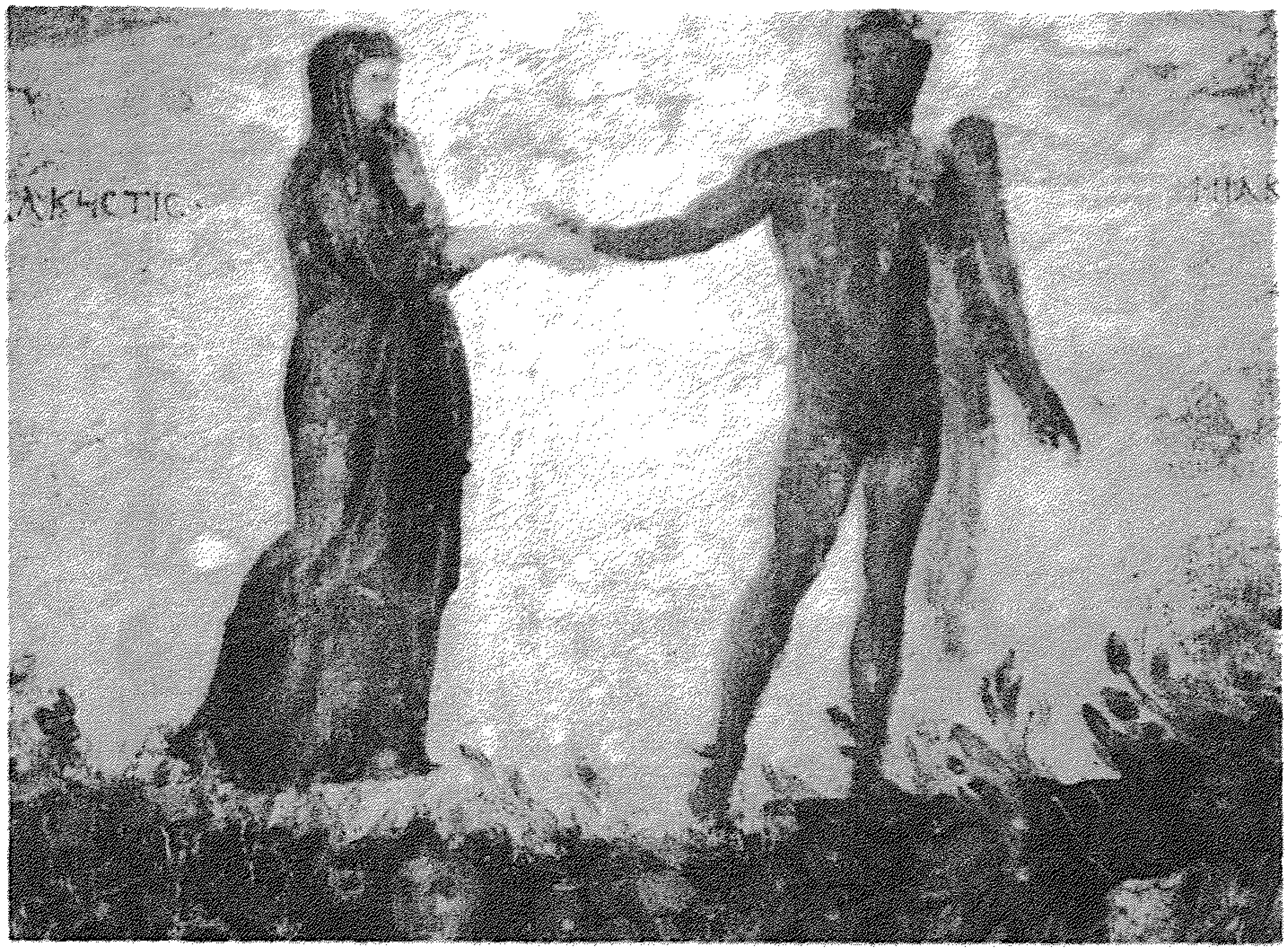

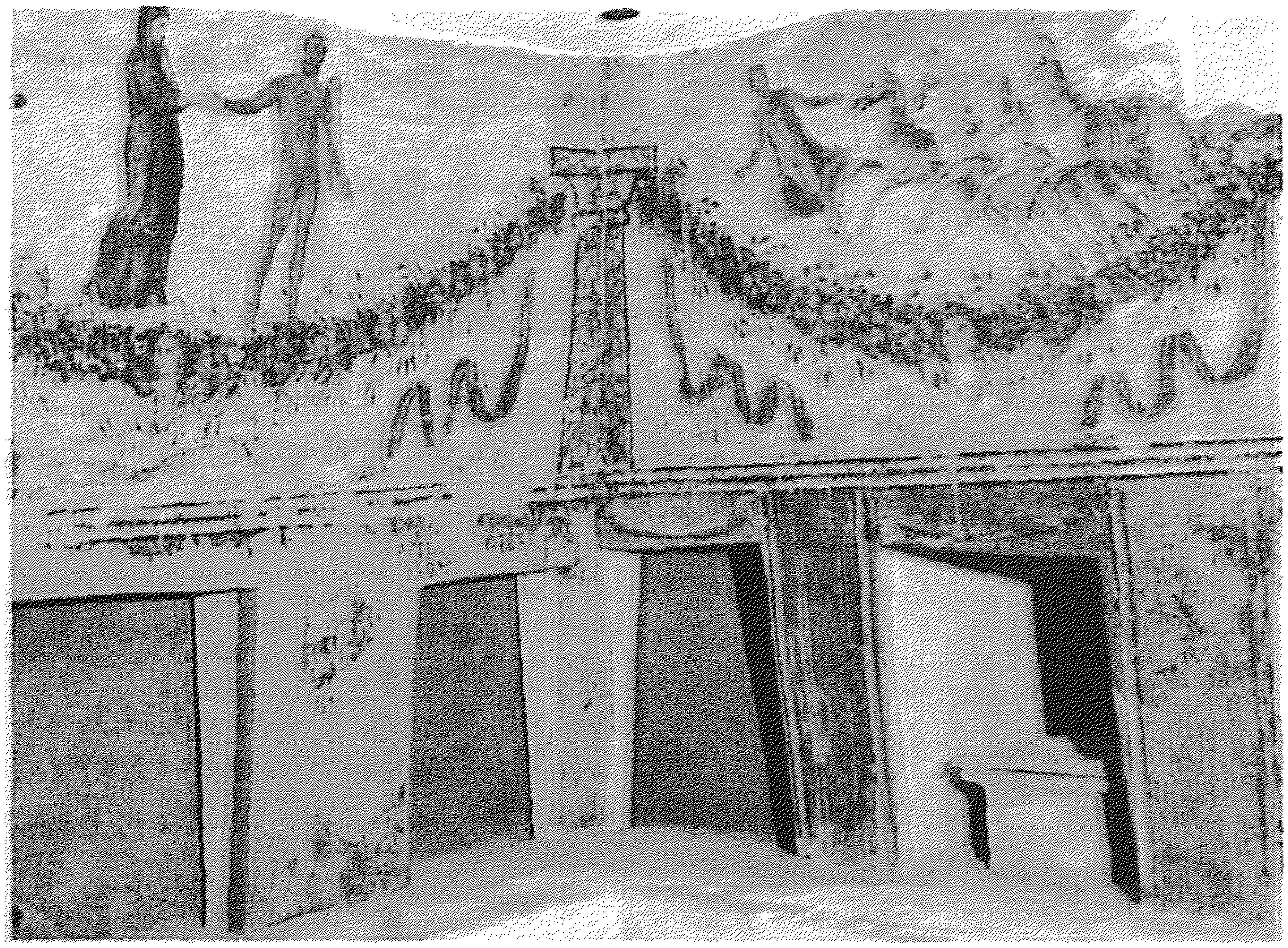

http://www.al-maktabeh.com

أعطت المدافن القبوية على الشاطىء الفينيقي، كما تلك التي عثر عليها في تدمر أو في المدن العشر، بعض نماذج الرسوم الضريحية، على الرغم من أن كثيراً منها قد خرب منذ القرن التاسع عشر. إلى اليسار، في مدفن قبوي من مدينة صور تم ترميمه في متحف بيروت، نرى هرقل، المعروف من هراوته، وقد استعد لإعادة الحسناء ألكستيس إلى الأرض بعد أن قبلت أن تموت لإنقاذ زوجها ملك تساليا. إلى اليسار (الصورة نفسها، إلى الأسفل)، نرى هيرمس (إله الخطابة والبلاغة) يمسك عربة هاديس استعداداً لاختطاف زوجته بيرسيفوني. كانت كل كوة في الجدار تضم تابوتاً. وفي تدمر، في مدفن الإخوة الثلاثة، الذي يعود تاريخه إلى ١٤٠ ميلادية، كانت الجثامين ترقد على صفائح جيرية مثبتة على الجدران بمدرجات صغيرة.

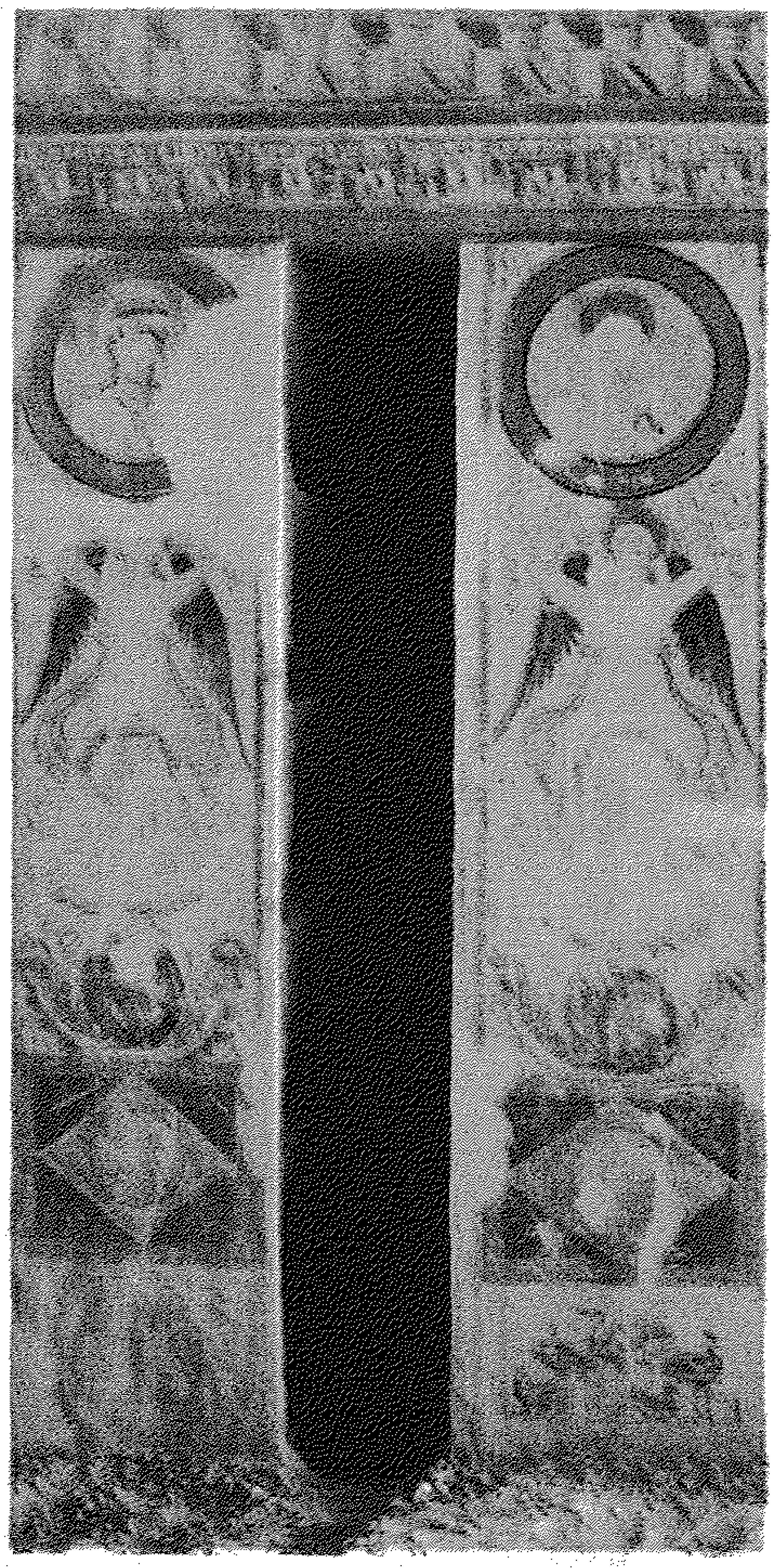

مكتبة المهتدين الإسلامية

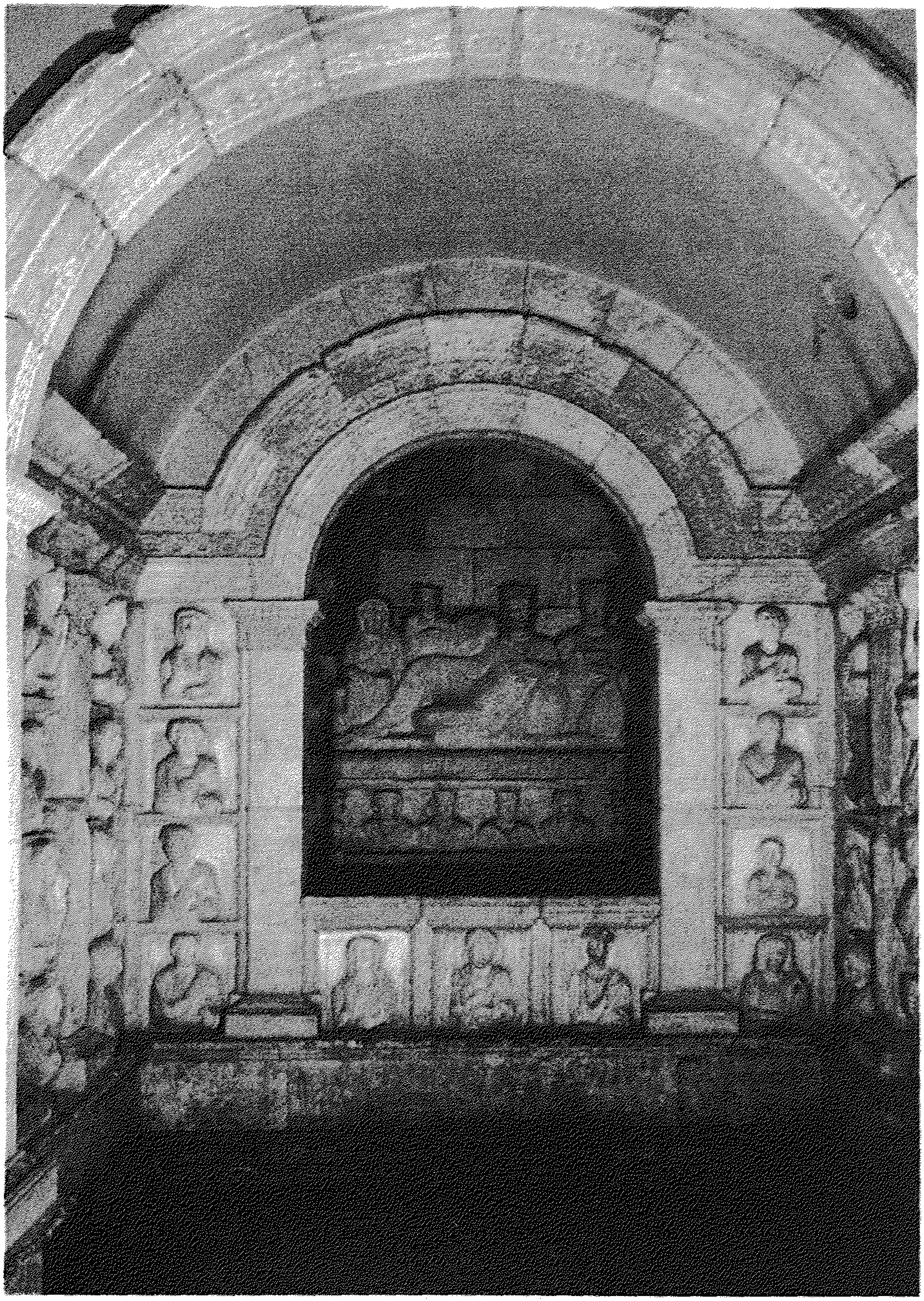

http://www.al-maktabeh.com

تضم تدمر ثلاثة أنماط من القبور على الأقل: حفر بسيطة تعلوها مسلة (نُصَيْب) للناس العاديين، وأبراج ضريحية، وقبور تحت أرضية، المدافن القبوية. يكمن التشابه بين الأبراج الضريحية (أو المدافن البرجية) والمدافن القبوية في أنها جميعاً مصممة بحيث تستوعب عشرات إن لم يكن مئات المتوفين (أربعمائة موضع في برج إله بل). في مدفن أعيد ترميمه في متحف دمشق الوطني، تابوت مالك المكان يشغل موضعاً مميزاً، بارزاً قبالة المدخل. يرتدي هذا المالك، المتمدد والمحاط بأقاربه، كسوة رأس كهنة بل، وقد وضع المتوفون الآخرون في الحجيرات (تجاويف)، الخانات المسدودة بصور الأموات، كصورة قائد القافلة الموجود في الأسفل، الذي يرتدي على الطريقة الرومانية، وقد حرص على إظهار ناقته، كذكرى لمهنته أو لمصدر ثروته. في الأعلى، نقش بارز قليلاً يمثل مشهد وليمة، على غرار أغطية التوابيت. كان العديد من المدافن القبوية يضم ثلاث حجرات حول ردهة المدخل. أما الأحياز غير المشغولة فكان يمكن تأجيرها أو بيعها.

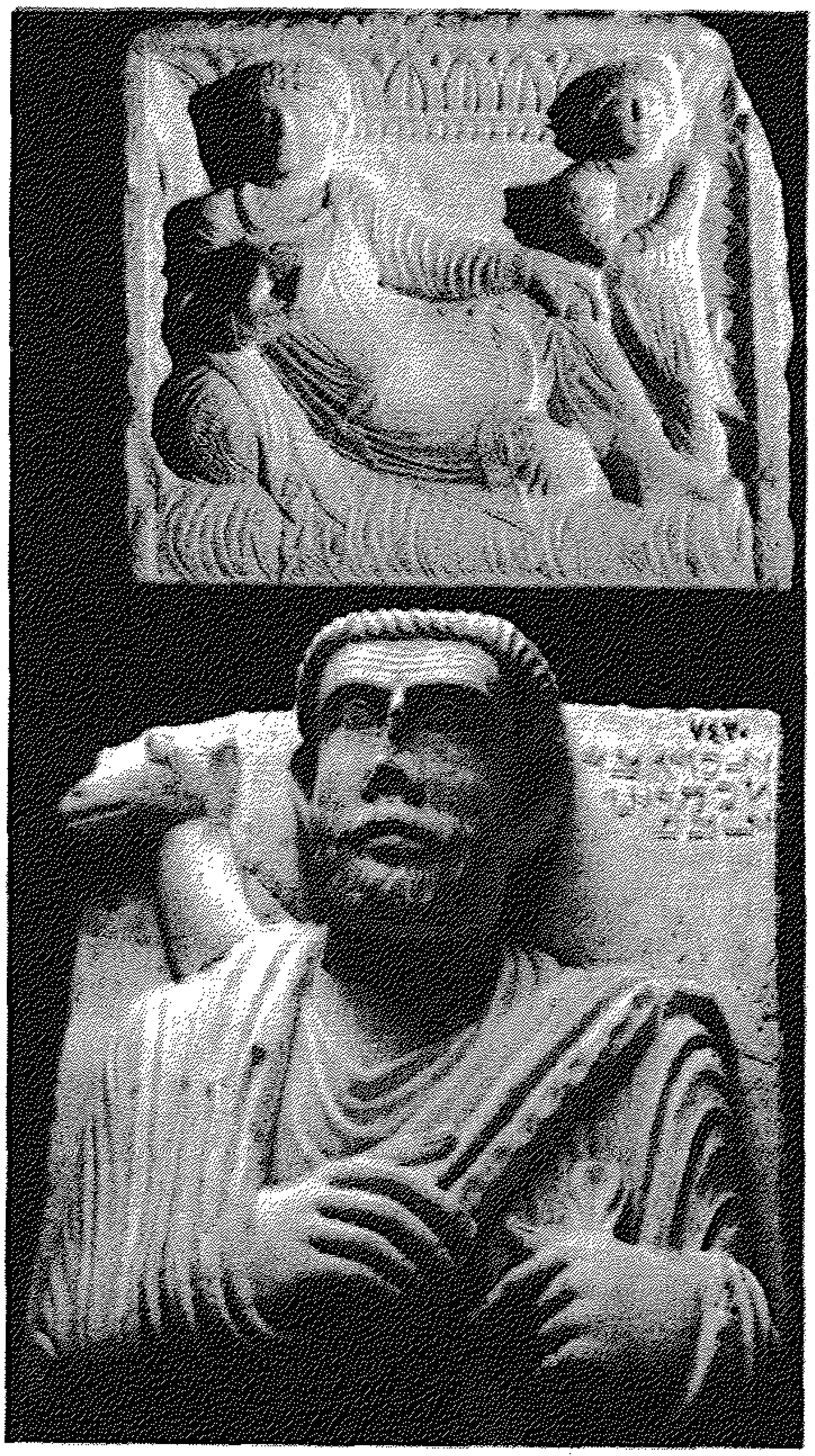

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت الجمال تؤمن عبور الصحراء، من الفرات إلى حمص،
واستخدمت أيضاً لمناسبات الاحتفالات، كحالات الطواف

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

حضارة قامت على التبادل

بين البحر المتوسط وآسيا، بنت سورية ثروتها اعتماداً على موقعها كمفترق طرق وعلى مواردها الخاصة. وقد صنعت شهرتها أولاً منذ العصور القديمة من خلال نشاط حرفي انتشر في كل المدن السورية، الزجاج، والأرجوان وبعض المنتجات الكمالية. ولكن، ساهمت إنتاجات أخرى أيضاً أقل أهمية، كإنتاج القمح، والكرمة، والزيتون، في رخاء المنطقة الواسع.

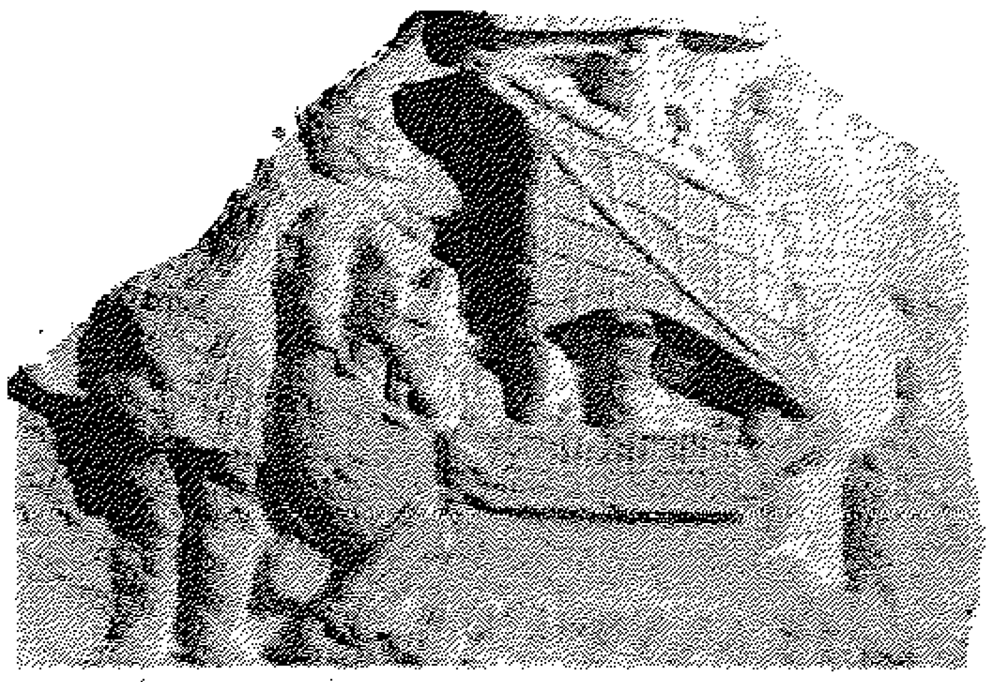

مشهد غير متوقع على نحت نافر في تدمر، مشهد سفينة أبحر فيها مالكها حتى سقيثيا، الهند دون شك. واستخدمت المراكب أيضاً لنزول الفرات

يرتكز ثراء المدن أساساً إلى ثلاثة مصادر للثروة: الريع العقاري، والإنتاج الحرفي، والتبادلات. الكثيرون من أهل المدن هم أولاً ملاك عقاريون كبار، ذلك منذ العصر الهلنستي، حيث كان العديد من المستوطنين يكتفي بالانتفاع من غلة الأراضي التي كانت تمنح لهم ويشغلون فيها الفلاحين المحليين. وتلك كانت هي الحال بالطبع بالنسبة لأفراد الحاشية الملكية، المنتفعين من أعطيات أسيادهم، على شكل قرى كاملة أحياناً، بمن فيها من الفلاحين، والذين يستمرون في استغلال الأرض لصالح السيد

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجديد. لم يختلف الوضع كثيراً في العصر الإمبراطوري. وكان العديد من الوجهاء المواطنين يقيمون في الأرياف، أو لهم فيها ملكيات عقارية.

في فينيقيا، حرفية كماليات

يُظهر تقليد قديم، تؤكده التوراة، الفينيقيين على أنهم حرفيون مهرة وتجار نشيطون. وغالباً ما نوه، بالنسبة للعصر الإغريقي – الروماني، إلى بعض المراكز (صور، صيدا) وإلى بعض المنتجات الحرفية المتميزة (الزجاج، والأرجوان) في إشارة إلى ازدهار المدن السورية التجاري. إلا أنه كانت تنتشر أيضاً في مدن صور، وصيدا، وبيروت، ولاودقية معامل متنوعة جداً كان يتم فيها تحويل المنتجات المحلية أو الآتية من بعيد. كما كان يتم إعادة حياكة أنسجة الحرير الخام التي كانت تأتي من الشرق الأقصى،

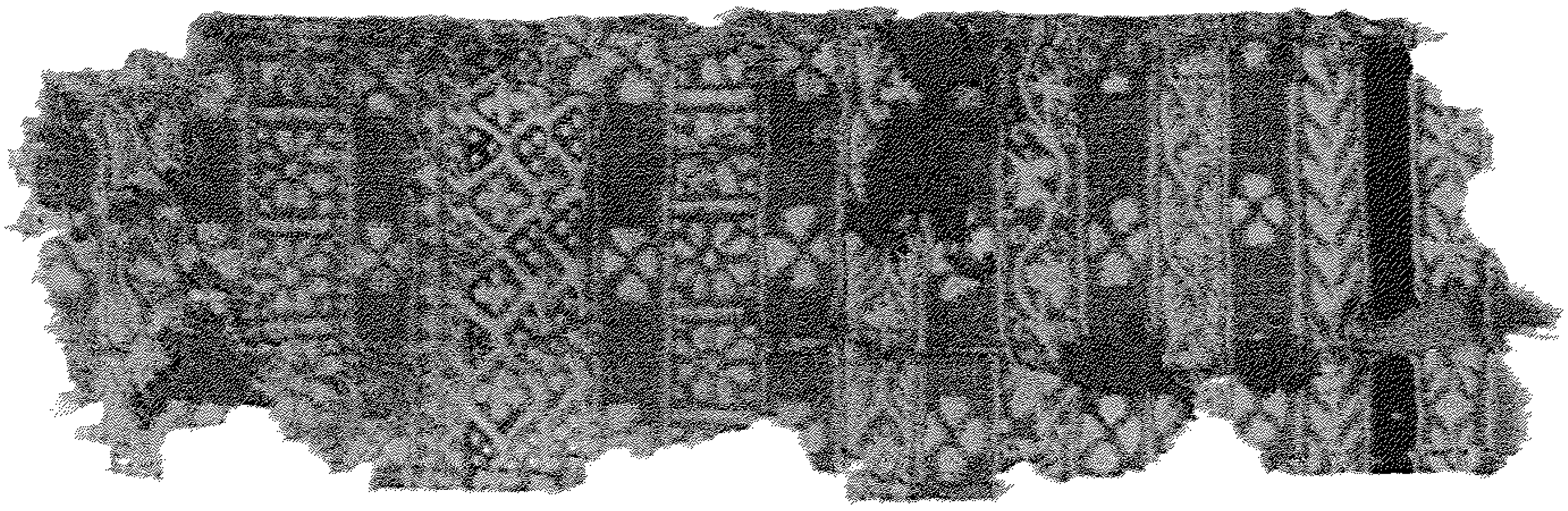

كان هذا القماش الصوفي قد نسج في تدمر نحو ٤٠ ميلادية. وتذكرنا عناصره الزخرفية بالزخارف التي تزدان بها أقواس المدينة وأبوابها كما لو أن النحاتين والنساجين كانوا يستخدمون النماذج التصميمية المرسومة نفسها. إلا أن تدمر أعطت أيضاً العديد من الأقمشة الأفخر، خصوصاً الأقمشة الحريرية، التي نسجت في الصين أو حتى محلياً. ويحمل بعضها حروفاً أو زخارف صينية تقليدية، ونسجت أخرى وفقاً لطلب الزبائن، وعليها زخارف غربية وكذلك صور جمال تستريح تحت الدوالي.

وتصبغ بالأرجوان، مما يمنحها قيمة إضافية مذهلة. واشتغلوا كذلك في الصوف المحلي، الذي كان يتم نسجه في العديد من المدن الداخلية. وأفادوا أيضاً من نوعية الرمل لتطوير نشاط صناعة الزجاج التقليدية، أحد أقدم

http://www.al-maktabeh.com

وأشهر اختصاصات فينيقيا: مهد اختراع الزجاج المنفوخ، نحو ٧٥ - ٥٠ قبل الميلاد، لإمكانات أشكال جديدة وأفضى بشكل خاص إلى صنع زجاجيات أدق وأخف. وأتاحت العطور، والطيوب، المستوردة من جنوب شبه الجزيرة

فتى أفريقي جالس على صخرة معطياً شكل هذا الإناء ومصدره موقع زاوية في الجولان. وهذا موضوع غريب أشاعته المشاغل الإسكندرانية، وكان مخصصاً كوعاء لاحتواء العطور أو الطيوب المستوردة من أفريقيا أو العربية الجنوبية.

العربية، ومن القرن الأفريقي، والهند، أو المنتجة محلياً، ظهور صناعة حرفية للأدوية ومستحضرات التجميل. بذلك، غذى النجارون، والحدادون، والخزافون وسواهم من أبناء المهن الأخرى ليس فقط السوق المحلية بل أيضاً التصدير. وتطلب كل ذلك تكافلاً وثيقاً مع الأرياف المحيطة التي كانت تقدم جزءاً من المادة الأولية، بل أيضاً علاقات منتظمة مع كبريات المراكز التجارية البعيدة، التي كان يمكن التزود منها بالمعادن (لم توجد في سورية أية حقول معدنية)، والطيوب، والنباتات الطبية، والعطور، والأنسجة الحريرية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

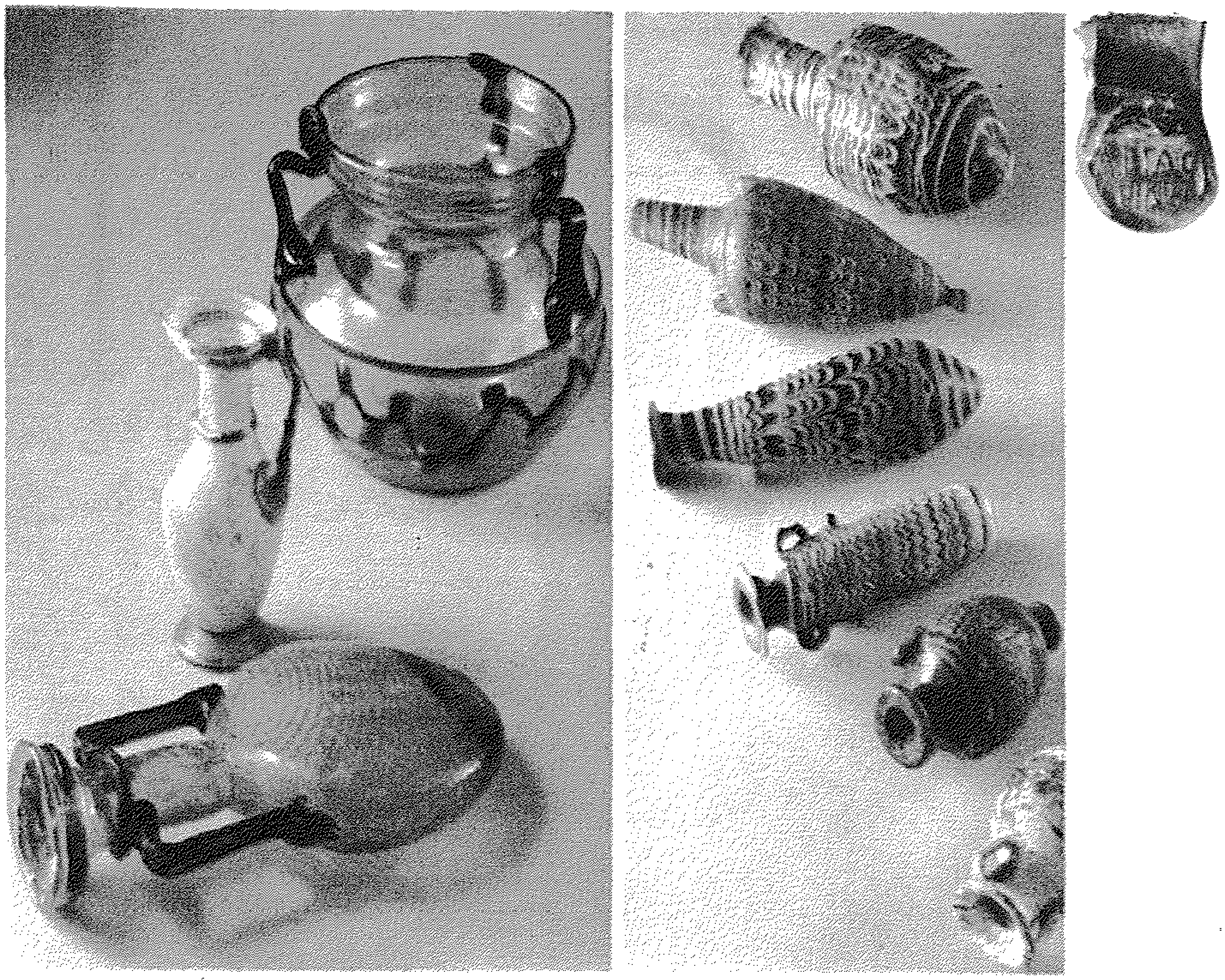

يشير كل المؤلفين القدامى إلى الجودة الاستثنائية لرمال المنطقة الممتدة بين عكا وصيدا ويشيدون بروعة صنع الزجاجيات الفينيقية. كانت المهارة الفنية لحرفيي صناعة الزجاجيات شهيرة، إبان العصور القديمة (القرن السادس حتى القرن الأول قبل الميلاد)، في الزجاج المقولب (إلى يمين الصورة، مع قطع مستوردة أو تقليدات محلية) وفي الزجاج المنفوخ بدءاً بالقرن الأول قبل الميلاد (إلى يسار الصورة). كانت كبريات مراكز إنتاج الشاطىء تصدر أكوام العجين الزجاجي إلى معامل فرعية في الداخل، فتصبها هذه، وتطور بدورها المنتج المنتهي. وكان بعض المشاغل الشهيرة، مثل إنيون والصيدوني أرتاس (الصورة في الصفحة ٧٣، في الأعلى أقصى اليمين)، يصدر إنتاجه مع وضع علامة عليه إلى أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وحتى جرمانيا وبريتاني الفرنسية.

http://www.al-maktabeh.com

تجارة بحرية مزدهرة

سورية هي ملتقى الكثير من تيارات التبادل: يدور الناس، والأفكار، والمنتجات في كل اتجاه. وخلال العصر الإغريقي الروماني، تمتعت المرافىء، على شاطىء المتوسط، كما الواحات في الصحراء، برخاء استثنائي.

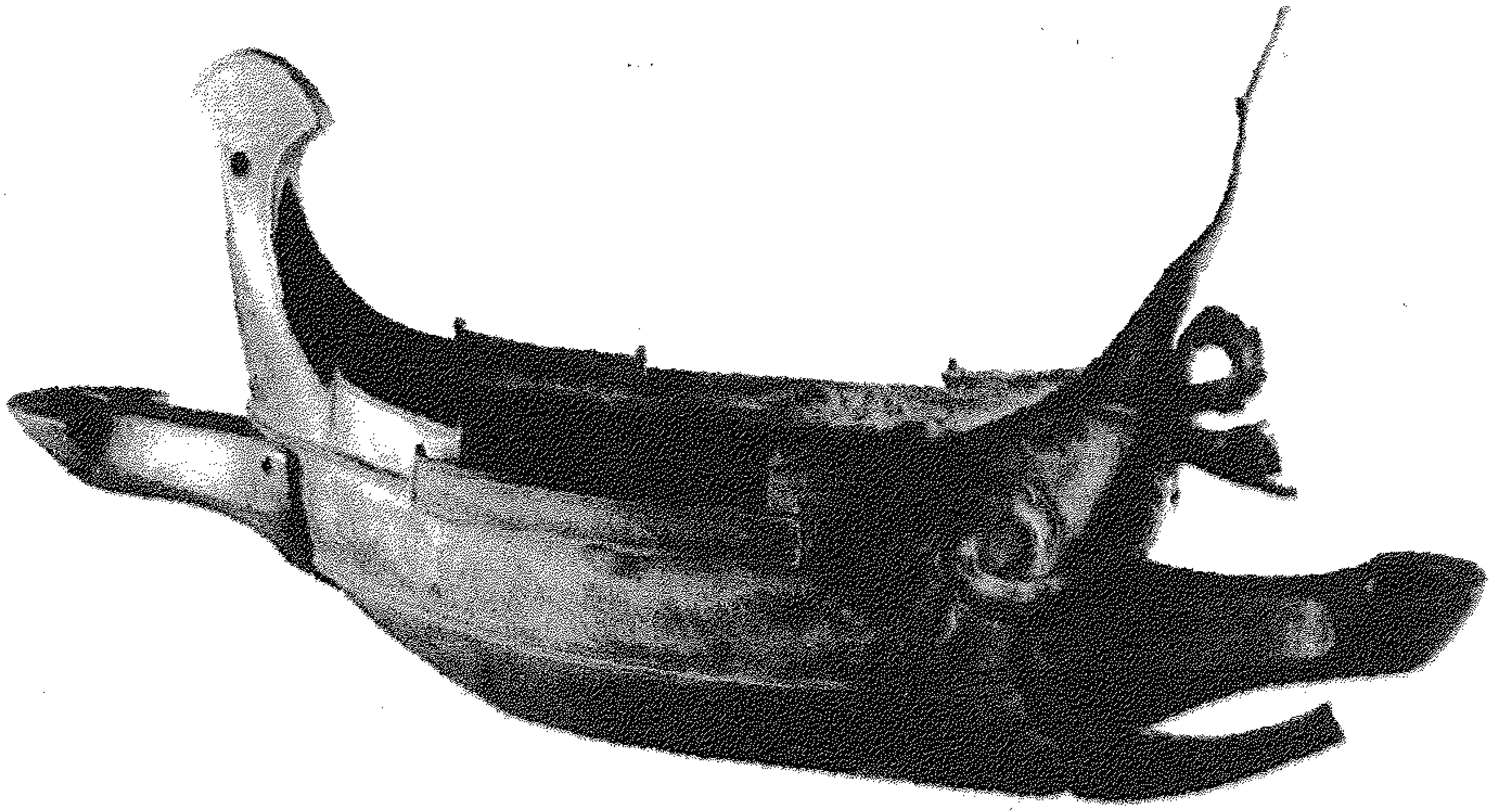

هذا المركب النذري، المصنوع من البرونز، كان قد قدمه كيردون ابن ديودوروس إلى الإله الأعلى المسمى زيوس بيتمارس، مثلما يشير التسجيل الإغريقي الموجود على جانب المركب؛ وهذا القربان مؤرخ بدقة، ١٢١ - ١٢٢ ميلادية. وعلى الرغم من أن مصدره هو إحدى قرى الداخل، في البقاع، نرى في هذا المركب القصير والضخم، بحق، صورة دقيقة كفاية عن السفينة التجارية الفينيقية في أوج ازدهار الإمبراطورية. فيما بعد، حُوِّل هذا الشيء الجميل إلى مصباح وربما تم تقديمه إلى إحدى الكنائس.

ومنذ العصر الهلنستي، كانت المرافىء الفينيقية تستقبل حمولات البضائع الآتية من حوض بحر إيجة. وكان الفينيقيون معتادين منذ زمن طويل على التردد إلى مجمل أرجاء البحر المتوسط، غير أن إقامة الإغريق

مكتبة المهتدين الإسلامية

في سورية، وتهلُّن الأعيان المحليين السريع أفرزا حاجات جديدة: لزم استيراد المنتجات التي اعتبرت حتمية، وكانوا قد اعتادوا عليها، الزيت، والخمر. وبشكل عام، جرت التبادلات بسهولة بنتيجة دخول مجمل الشرق الأوسط في الاقتصاد النقدي الذي لم يكن قد دخل على نطاق واسع من قبل إلى فينيقيا.

لا تتيح الوثائق، بنتيجة شدة تبعثرها، كتابة تاريخ مفصل حول التبادلات. ولكن، يلاحظ أن مرافىء الشاطىء السوري قد أدت دوراً في إعادة التوزيع ليس فقط باتجاه داخل البلاد، بل أيضاً نحو مصر. وهكذا، تورد محفوظات زينون الكونوسي **Zénon de Caunos** (منتصف القرن الثالث قبل الميلاد)، التي عثر عليها في الفيوم (مصر)، كشوفات حسابات جمركية تُظهر أن زينون جاء ليشتري من فينيقيا ليس فقط منتجات محلية بل أيضاً منتجات مستوردة من أثينا، ومن الجزر الإغريقية أو من مدن البحر الأسود. من جانبهم، لم يتردد التجار الفينيقيون في إقامة فروع لهم حيثما أمكنهم أن يجدوا بضائع:

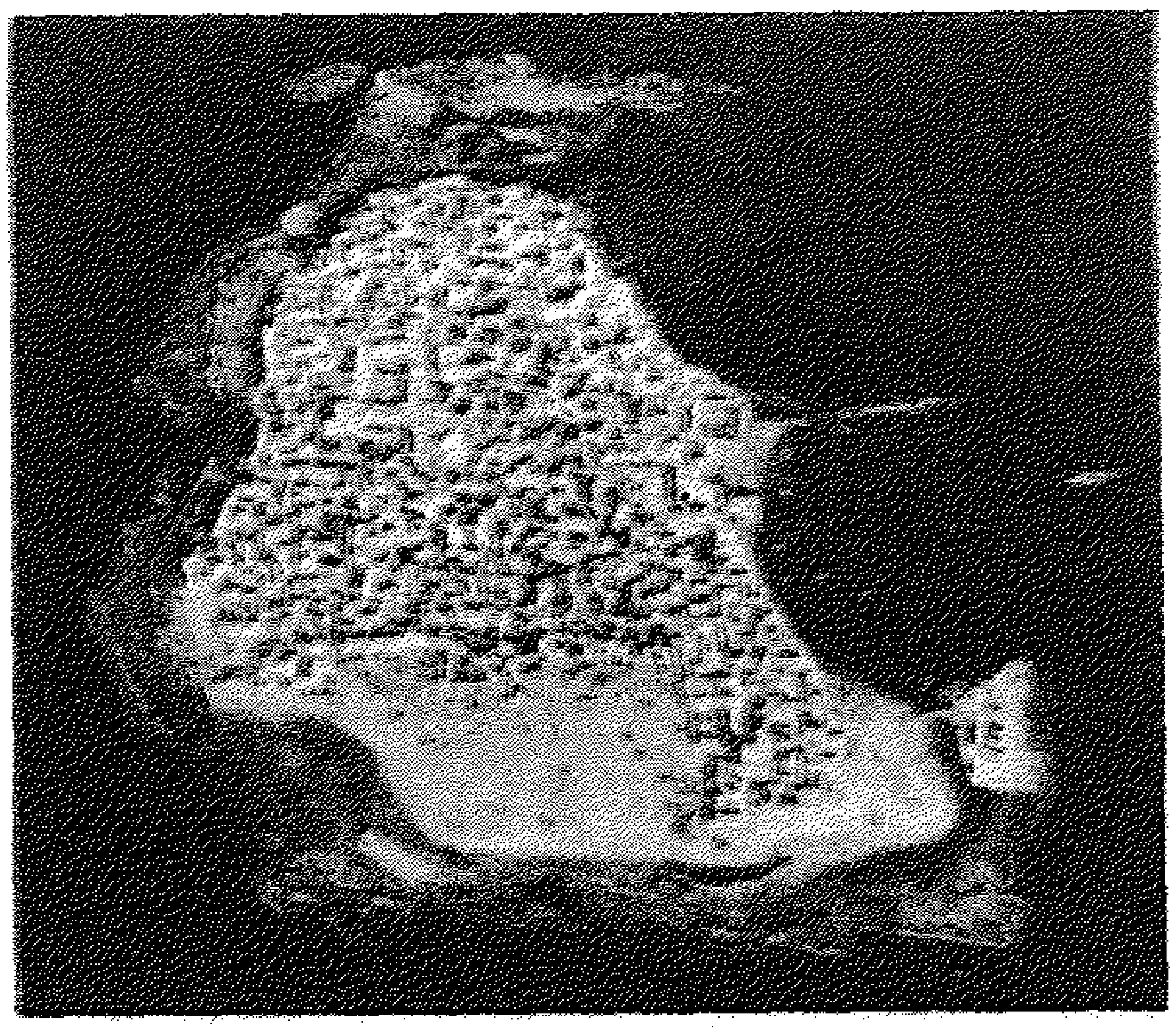

تفتح جزيرة آرادوس (أرواد) مينائيها في الجهة الشرقية، قبالة الشاطىء، على مسافة ٢ كم. وكانت الجزيرة كلها محاطة بسور سميك. وكان على الجزيرة، من أجل بقائها، أن تتحكم بالسهل الساحلي الغني الذي انتصبت عليه عدة مدن تابعة.

http://www.al-maktabeh.com

رودس (مرفأ إغريقي)، وبيريا (مرفأ إغريقي)، وبالأخص ديلوس (جزيرة إغريقية) منذ ١٦٧ قبل الميلاد. في ذلك التاريخ، أوكل أمر جزيرة أبوللو إلى أثينا مع إلزامها بأن تجعل منها مرفأ حراً. وعلى الرغم من صغر المرفأ، أصبحت ديلوس طيلة قرن الساحةَ الرئيسية لتجارة البحر المتوسط. كان يمر بها القليل من البضائع في الواقع، ولكن هنا كانت تعقد العلاقات وتبرم الصفقات وتنجز المعاملات المالية. وقد أقام فيها تجار من بيروت وصور، تجمعوا حول إله مدينتهم الرئيسي، بوزيدون بالنسبة للبعض وهرقل بالنسبة للآخرين.

قاست المرافىء السورية من نمو القرصنة منذ سنوات ١٣٠ قبل الميلاد عند غياب المعاناة من حروب أهلية تعصف بالمدن السورية: دمرت بيروت عام ١٤٣ قبل الميلاد؛ وترك قطاع طرق محليون بيبلوس تنزف نحو عام ٦٥ ؛ ونهب الرومان أرادوس عام ٣٨ قبل الميلاد. وكان لعودة السلام بعد ٣٠ قبل الميلاد نتائج جيدة جداً، فقد نهضت المدن بسرعة مرة أخرى، أحياناً بمساعدة الإمبراطور أو أمراء مجاورين. وتشير وفرة البقايا الآثارية التي تعود إلى هذه الفترة إلى سعة عمليات إعادة البناء. وأتاح الهدوء إعادة إعمار المرافىء، لجعلها أكثر أماناً. وكان للمدن البحرية الرئيسية مرفآن، مثل صور، وصيدا، وأرادوس. وفي سلوقية بيريا، المرفأ العسكري الذي كانت تتمركز فيه عمارة من الأسطول الروماني (**classis syriaca**)، صب سيل جارف في المرفأ مباشرة وملأه بالرمال. وحول الإمبراطور فسبسيانوس (٦٩ – ٧٩) مجرى السيل بواسطة نفق جيد المقاومة. وتمخضت عودة السلام وأعمال التسوية الجديدة هذه عن انتعاش النشاط في المرافىء السورية التي أفادت في الوقت نفسه من خبرة بحارتها ومن نشاط المدن الشاطئية الحرفي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

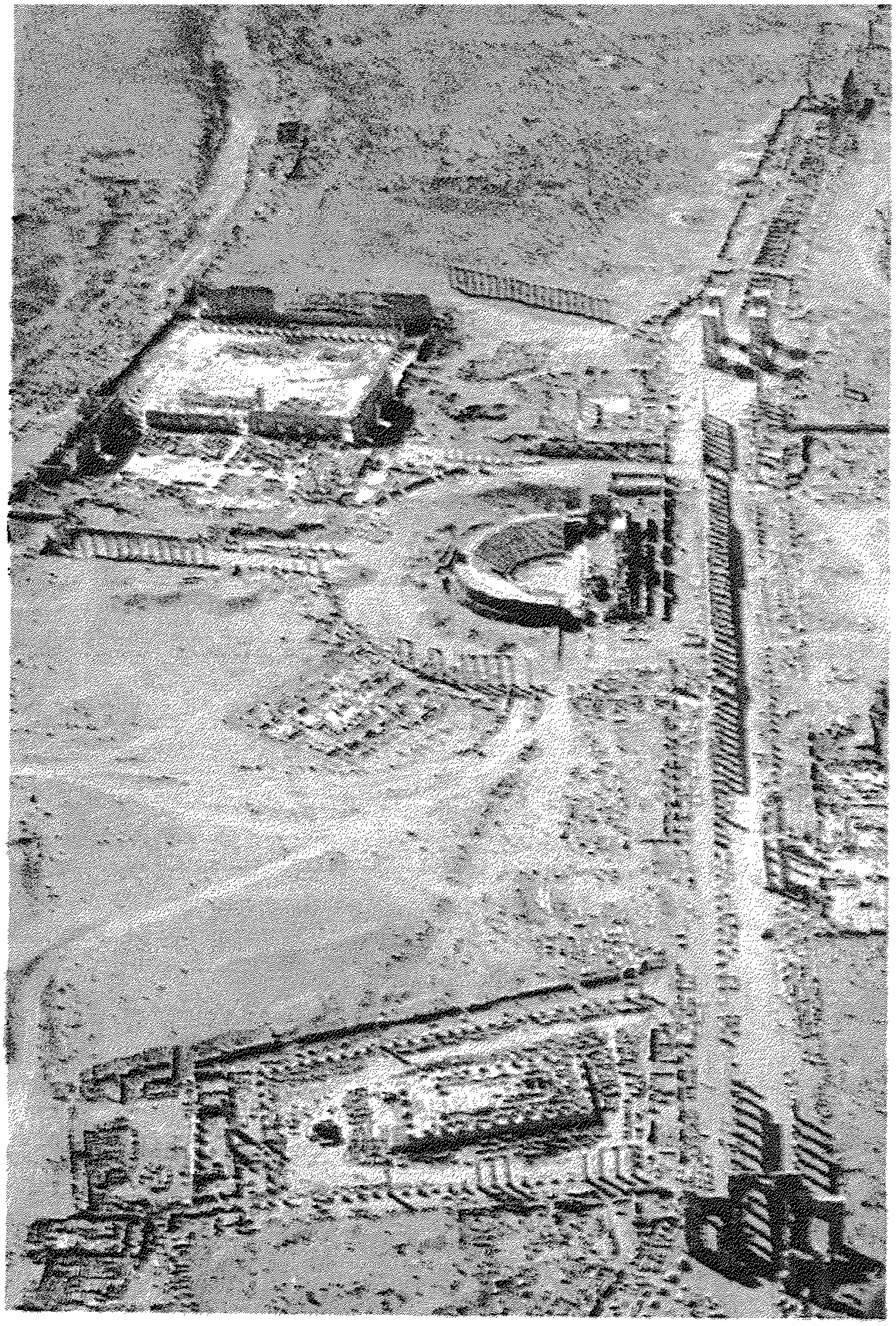

كان شارع تدمر الروماني الكبير (غرب شرق)، الذي تحده صروح فخمة- معبد نابو (في الأسفل)، والمسرح الذي لا بد وأنه استخدم كقاعة لاجتماع المجلس (بولوتيريون) والأغورة التجارية (في الأعلى إلى اليسار)- يُظهر للأنظار التماثيلَ والتسجيلات التكريمية المدونة على ركائز صف الأعمدة الكبير. وفي الأغورة، مكان تجمع التجار الآتين إلى تدمر بحثاً عن وسائل التوجه إلى ما بين النهرين، كان يتم أيضاً تكريم قادة القوافل.

http://www.al-maktabeh.com

تدمر وتجارة القوافل

كانت مرافىء المتوسط، التي تؤمن الاتصالات مع العالم الإغريقي والروماني، تتكامل مع الواحات التي تنظم فيها تجارة القوافل باتجاه ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية. في سورية نفسها، أدت واحة واحدة هذا الدور، تدمر. بقيت تدمر، ملاذ آراميي الفرات الأوسط القديم خلال الألف الثانية، مغمورة تماماً تقريباً خلال العصر الهلنستي كله. مع ذلك، كانت مدينة تدمر موجودة، ومزدهرة، ذلك أن أنطونيوس مرقس وجه إليها عام ٤١ قبل الميلاد جيوشه للحصول على غنائم. وقد عثرت الأعمال الحديثة للبعثة الآثارية الألمانية - السورية على المدينة الهلنستية جنوب المدينة الرومانية، ورسمت مخططها الدقيق نسبياً. ولكن، تلزم تنقيبات أخرى للتمكن من تقدير ثرائها. بانتظار ذلك، ما تزال المدينة الرومانية تتجلى بأبهى صورها، بين هيكل بل في الشرق ووادي الأموات في الغرب. ويشكل صف الأعمدة الكبير عمودها الفقري، غير أن المدينة لا تقتصر على هذه الزخرفة الأبدية.

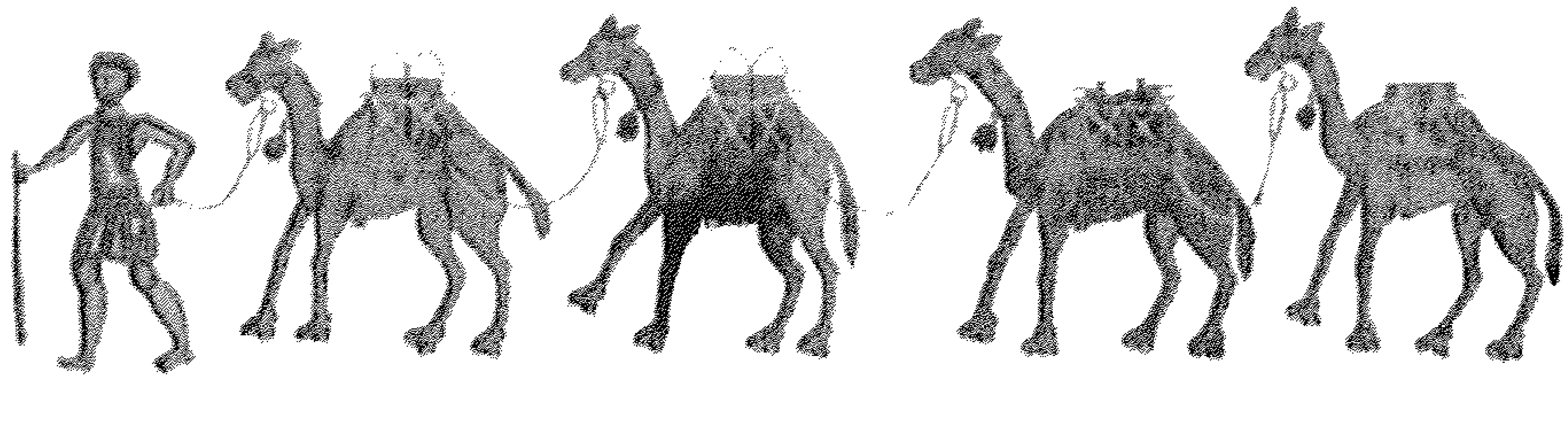

«موكاسوس، الجمّال»، مصوراً على فسيفساء في كنيسة في دير العدس (حوران)، وهو ينتمي دون شك إلى وسط أكثر تواضعاً: كان يمارس وظيفة المواكبة بين قرى المنطقة في القرن الميلادي السادس أو بداية السابع. في الواقع، كان الجمل يساهم، مع الحمار والبغل، في التبادلات المحلية وليس فقط في رحلات عبور الصحراء الكبيرة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ارتكز ثراء المدينة إلى وضعها كمدينة تجارية بين البحر المتوسط وما بين النهرين، في منتصف الطريق بين الشاطىء والفرات. إلا أن وضعها الجغرافي لم يكن كافياً لتأمين نجاحها. لقد لزمت شروط أخرى؛ أجاد التدمريون تقديم وسائط النقل الضرورية للتجار، الجمال، بل أيضاً الأدلاء والخفارة العسكرية التي يستحيل بدونها عبور الصحراء. عدا ذلك، أمنت تدمر أيضاً شرطةَ الصحراء حتى الفرات، حتى إلى ما وراء حدود الإمبراطورية الرومانية، وكانت تحتفظ بعلاقات مستمرة مع قبائل البدو الرحل في المنطقة.

مركز أعمال بين الشرق والغرب

كان على تدمر أن تنظم القوافل المنتظمة، وكان التجار يجيدون التمكن من العثور هنا على وسائل الذهاب إلى ما بين النهرين . ربما كان البعض يأتي إليها مكتفياً بالعمل التجاري. في الواقع، جعل منها استقطاب التجار وتركُّز البضائع مكاناً مواتياً للقيام بالأعمال، واقتراض الأموال، وإنجاز مشروعات من كل نوع. وتشير حسابات رجل أعمال عثر عليها في أحد القبور إلى أنه كان يوجد هنا رجال مال يجيدون تحريك قيم المال وفقاً للمخاطر. كانت هذه العمليات تتم في المدينة، ربما في الحيز الذي يسميه علماء الآثار «الأغورة»، المكان الذي جاء منه العديد من قواعد الأعمدة التي كانت قد أقيمت إكراماً لقادة القوافل.

http://www.al-maktabeh.com

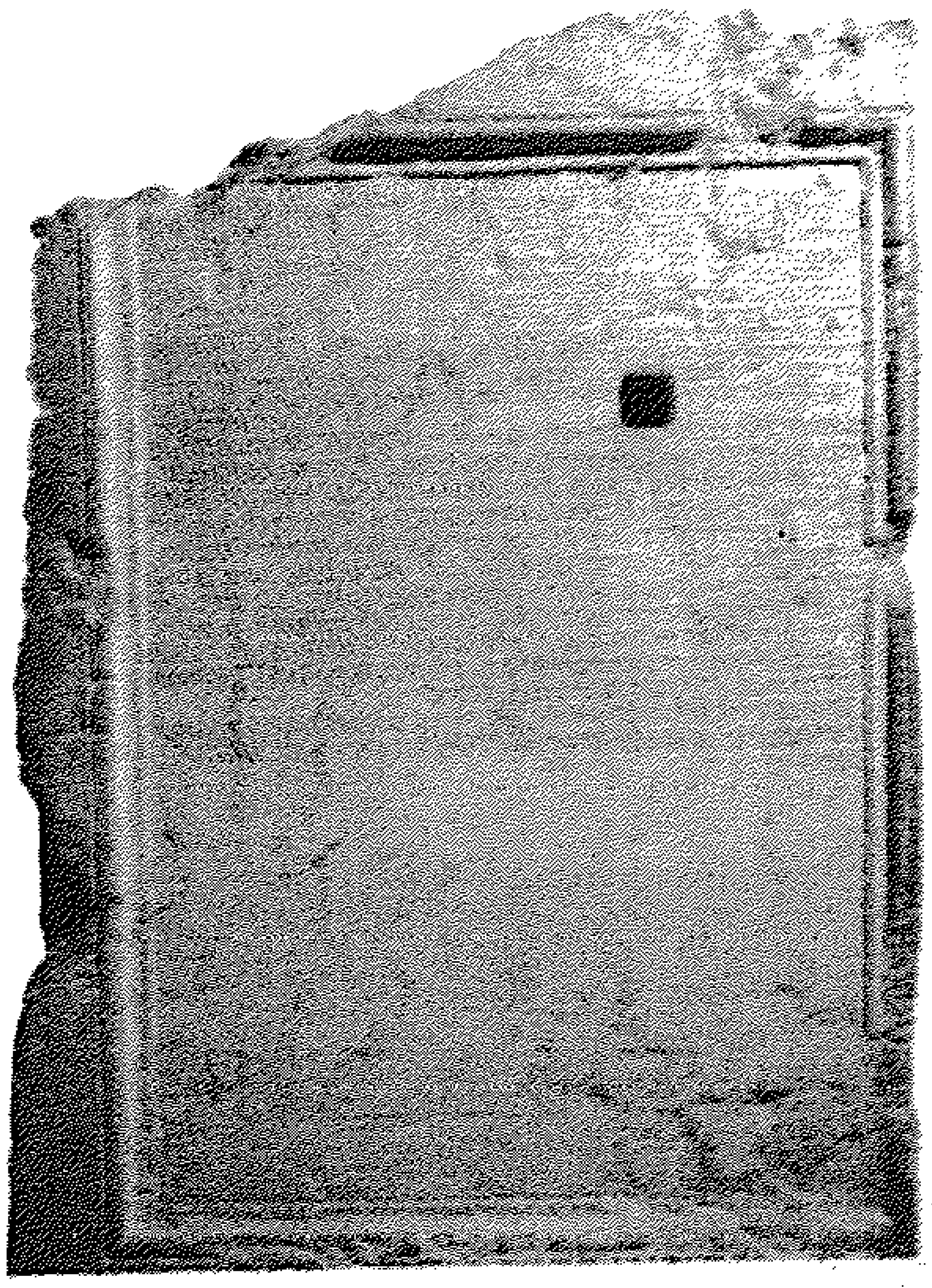

تسجيل طويل ثنائي اللغة (إغريقي – آرامي)، مشوه إلى حد كبير، يحدد تعريفة الرسوم البلدية لمدينة تدمر (هنا أحد أربعة أعمدة). كان على القوافل المتجهة من ما بين النهرين إلى البحر المتوسط تسديد الرسوم الجمركية الرومانية، غير أن القوافل التي تأتي بالبضائع إلى المدينة نفسها هي وحدها تدفع الرسوم البلدية. كانت الرسوم مفروضة على كل البضائع، الشحوم، والقماش، والعطور وحتى البغايا، «تلك التي تحصل على دانق أو أكثر، ستدفع [كرسم] دانقاً، وإذا حصلت على أقل من ذلك، يتلقى [الجابي] منها بمقدار ما تأخذ».

تدمر نفسها، لم تشهد كثيراً مرور القوافل. في الواقع، كانت هذه القوافل تتوقف في خانات القوافل المختلفة، التي اكتشفت في ضواحي المدينة. هنا كان مستخدمو مصلحة الضرائب الرومانية يحصلون على الرسوم الجمركية، ٢٥ % من قيمة البضائع، عند الدخول كما عند الخروج، وتدفع بالعملة الرومانية. وكان ذلك يناسب الصرافين، الذين كانوا يقبلون كل عملات المدن السورية وسواها. وشجع وجود التجار نشاط الأنزال، والمقاهي المطاعم، وحتى المواخير.

مكتبة المهتدين الإسلامية

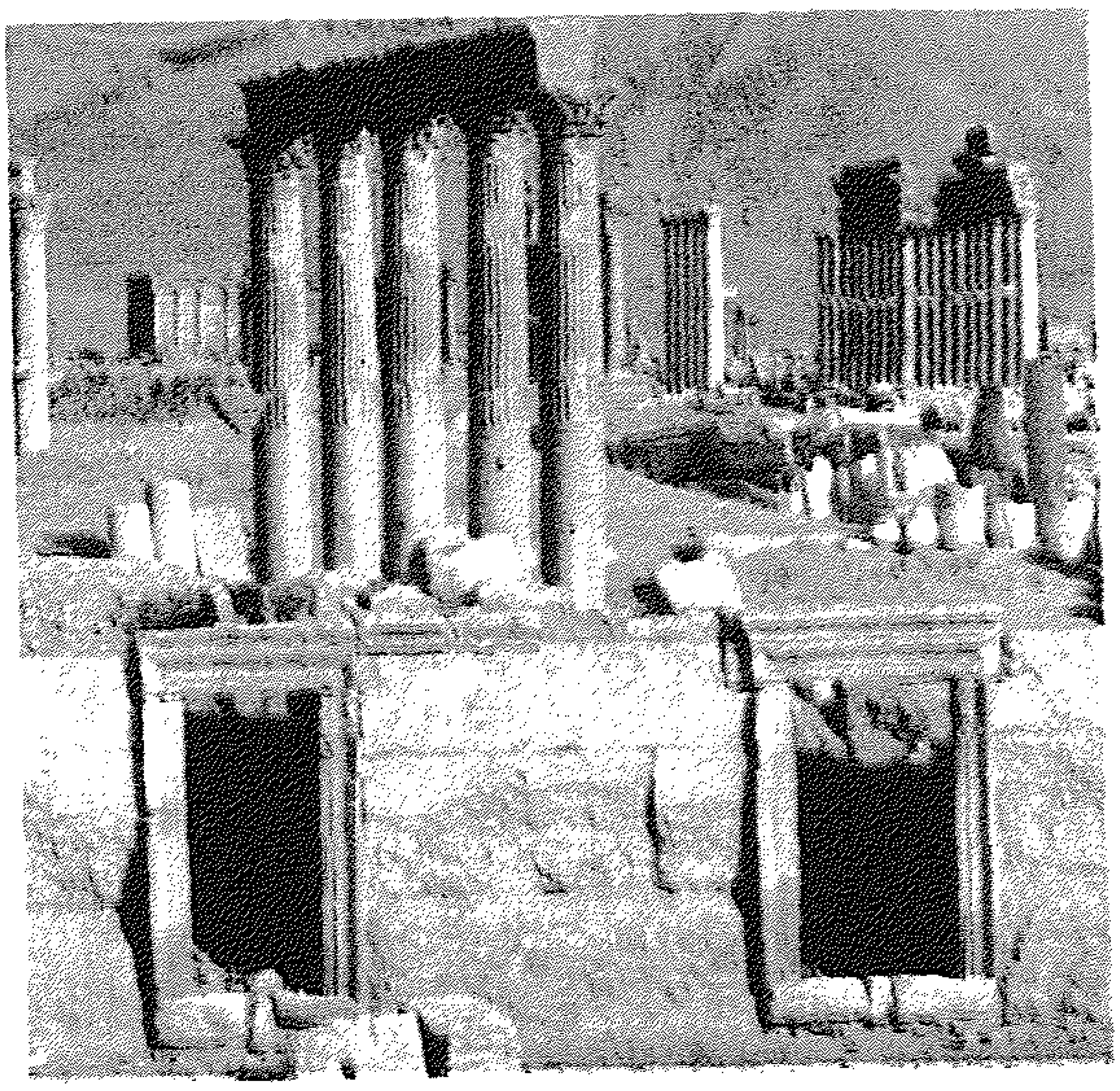

قرب مسرح تدمر، كانت الحوانيت المتراصفة بطول الشارع تنفتح عليه عبر أبواب ضيقة مزخرفة. وفي الخلف، كانت الأعمدة المخددة تنتمي إلى المعبد البلدي المفترض للعبادة الإمبراطورية، الكيزاريون، الذي يقوم بطول الشارع الكبير، ولكن المفصول برواق. كانت هذه العمد الطويلة تحجب أيضاً المشهد غير المنتظم للمنشآت والمخطط.

لم يكن الجمرك التدمري الوحيد الموجود، إذ كانت هنالك جمارك أخرى في نقاط العبور الرئيسية باتجاه الإمبراطورية البارثية (ثم الفارسية). ولكن وجدت أيضاً مكوس أخرى، لعبور الجسور مثلاً، ناهيك عن المكوس البلدية. كانت قيوداً في وجه نمو التبادلات، لم يوازنها جهد روما في بناء طرق في كل مكان قابلة للاستخدام طيلة العام. ذلك أن هذه الطرق المبلطة كانت تخدم الجيش بشكل خاص، أو العربات. إلا أن معظم النقل في سورية كان يتم على ظهور الجمال، والبغال، والحمير، التي لا تناسبها الدروب الصلبة كثيراً.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

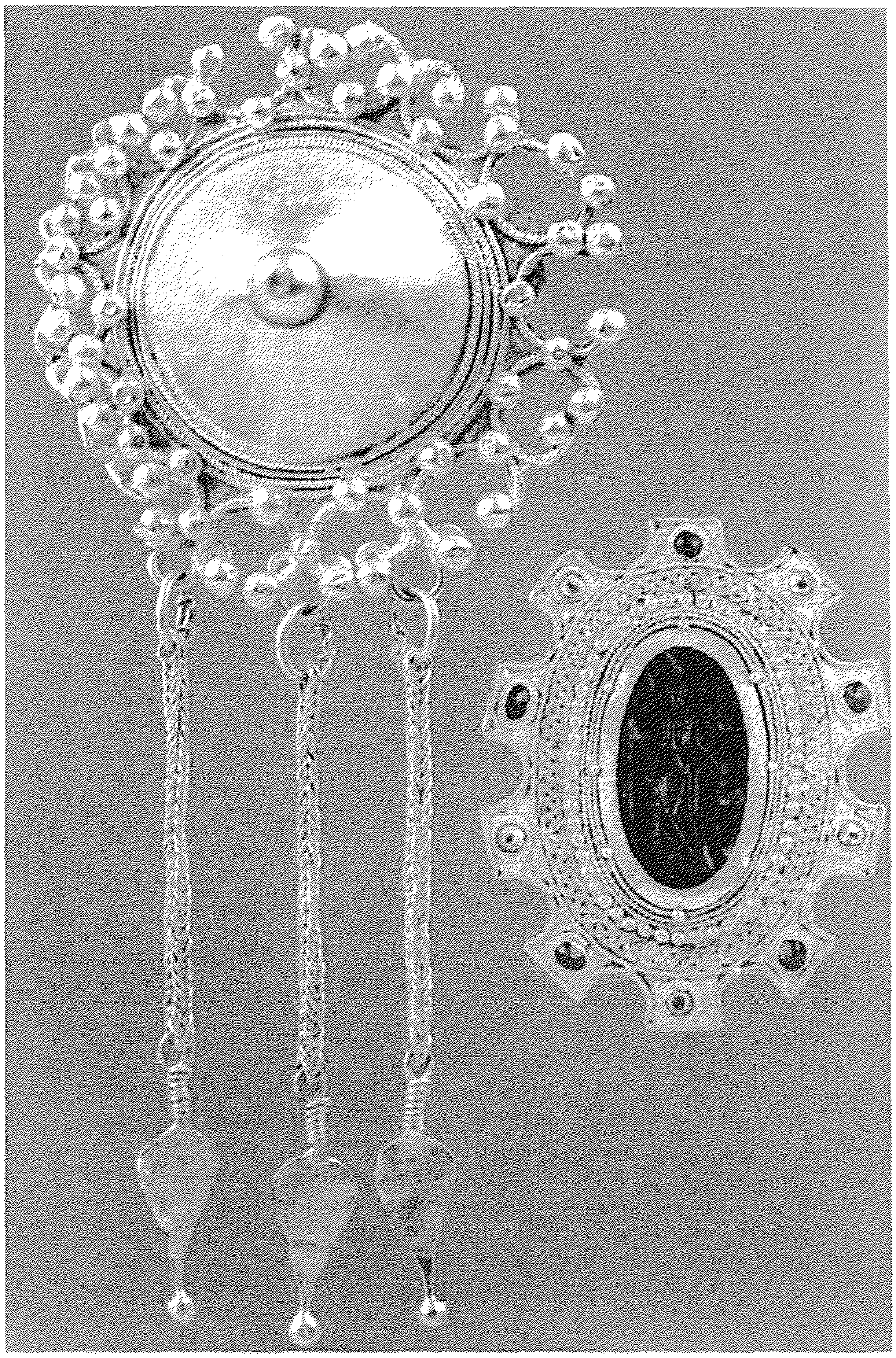

توحي هذه المرأة التدمرية الغنية، المتزينة كما لو أنها ستحضر احتفالاً، بصورة الملكة زنوبيا، مثلما يصفها مؤلف التاريخ الأوغسطي عند انتصار أورليانس في روما: «كانت مزينة بأحجار كريمة كبيرة، حتى أنها كانت تنوء بما ارتدته من جواهر. كان عليها، حسبما قيل، أن تتوقف كثيراً من حين إلى حين، رغم قوتها، شاكية أنها لم تعد قادرة على تحمل ثقل أحجارها الكريمة». الذهب والفضة، المصاغان بأناقة ودقة دائماً، والحلي نفسها ما تزال موجودة وترتديها البدويات اللواتي يحتفظن بها كجزء من ثروة الأسرة.

http://www.al-maktabeh.com

حق سك العملة

شهد العصر الإغريقي – الروماني دخول سورية ميدان اقتصاد النقد. إلا أن الوضع اختلف مع مرور الزمن. مع وصول الإسكندر، كان بعض المدن الفينيقية فقط يصدر النقد، الذي لم يتجاوز استخدامه الشريط الساحلي. وترك الإسكندر مشاغل سك النقد الفينيقية تستمر، وأصبحت منذئذ تعمل لصالحه، وأضاف إليها مشغلاً في دمشق كان الأول في سورية الداخل. بعد ذلك، سك السلوقيون واللاجيون العملة في هذه المدن، غير أن السلوقيين أوجدوا أيضاً مشاغل في أنطاكية، وإديسا (أورفا)، ونيسيبيس (نصيبين)، وفي مدن سورية أخرى في الشمال وفيما بين النهرين.

تمثلت إحدى اهتمامات الإسكندر الأولى حين وصوله إلى سورية في سك العملة باسمه في المشاغل الفينيقية (إلى اليسار، وجه وظهر عملة إسكندرية فضية سكت في أرادوس في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد) وفي دمشق. وهكذا فإن الوسائل اللازمة لدفع ثمن متطلبات الجيوش لم تعد تنقل من أمفيبوليس تراقيا البعيدة. وشجع السلوقيون، في نفس الوقت الذي اختاروا النموذج الأنيق السائد في مجمل العالم الإغريقي (باستثناء المملكة اللاجية)، على تداول العملات السورية خارج مملكتهم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومنذ ٢٥٩ قبل الميلاد، حصلت أرادوس (أرواد) على حق سك العملة باسمها، ممهدة بذلك لسك وطني. وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، امتد الامتياز نفسه إلى صور (١٢٦)، وصيدا (١١٢)، ثم إلى عدة مدن سورية. وجرى في ذات الوقت تداول عملات ملكية ووطنية، وكذلك عملات أصدرتها مدن من آسيا الصغرى، وتراقيا واليونان، كلها وفق النموذج نفسه.

لم تسع روما إلى فرض عملتها الخاصة. وأبقت على العملات الوطنية، واستمرت في البداية في السكوك الملكية السلوقية، مكتفية أحياناً بإضافة علامة مميزة إليها. ولم تظهر أولى العملات التي تحمل صورة أوغسطس إلا في العام ٥ قبل الميلاد، في حين كان مشغل أنطاكية يصدر مجموعات وافرة من العملات البرونزية الموسومة بـــ « SC»، علامة مجلس الشيوخ. ولكن، على نحو مواز للعملات الرومانية التسمية (الدانق الفضي، والسستِرس sesterce، والأس as البرونزي)، كان يجري تداول عملات وطنية متزايدة العدد، الدراخمة الربعية الفضية، والعملات البرونزية. في الواقع، قليلة هي المدن التي سكت الفضة، وكانت غالبية الإصدارات برونزية، وقد كرست للتداول المحلي. ومع مرور الزمن، سكت كل المدن السورية تقريباً العملات، بما في ذلك المدن الصغيرة. إلا أن إصداراتها كانت غير منتظمة إلى حد كبير (كل عشرين أو ثلاثين سنة، إن لم يكن أكثر)، دون أن تكون وافرة كثيراً. وكانت الذروة مع سلالة ساويرس (١٩٣ – ٢٣٥)، حيث وصل عدد المدن التي سكت النقد إلى أعلى حد. وكما في كل مكان من القسم الشرقي للإمبراطورية، توقفت الإصدارات الوطنية نحو منتصف القرن الثالث. ومنذئذ، كانت العملات

http://www.al-maktabeh.com

الإمبراطورية هي الوحيدة المتداولة بمختلف التسميات التي اتخذتها مع مرور الزمن. ولم يتغير الوضع حتى الفتح العربي.

كان سك النقود، وهو رمز سيادة، من اختصاص الملك من حيث المبدأ. مع ذلك، حصلت مدن سورية عديدة على حق سك العملة، خصوصاً البرونزية، والفضية أحياناً: أرادوس (في الوسط)، وصور وصيدا (في الأسفل)، ولاذقية (في الأعلى) وأخرى كثير غيرها. وقد حرصت جميعها على أن تبرز شعاراتها على عملاتها، خصوصاً صورة «تيكا»، سيدة فأل المدن. تتالت هذه الإصدارات في ظل حكم الإمبراطورية الرومانية، حتى منتصف القرن الميلادي الثالث. لكن روما، وتحت إشراف مجلس الشيوخ، سكت العملات البرونزية في أنطاكية، منها العملة التي تحمل الحرفين SC (Senatus Consulto) التي شهدت تداولاً واسعاً في المقاطعة

مكتبة المهتدين الإسلامية

صورة جدارية من صور تمثل فلاحاً يحمل سلة ثقيلة، وهي تبرز المكانة التي كانت تتمتع بها الكرمة والبساتين في الزراعة السورية.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

الفلاحون، الرعاة، الرحل

تتمتع سورية، باستنادها إلى السهب والصحراء، بشروط طبيعية مواتية لتنوع كبير في الموارد. وإذا كانت الثلاثية المتوسطية، الحبوب، والكرمة، وشجرة الزيتون، مزدهرة فيها بشكل طبيعي، فقد كان لزراعات الواحات مكان في تدمر وفي وادي الفرات الأوسط (أشجار النخيل وأشجار الرمان)، بينما قرنت تربية الماشية، الموجودة في كل مكان، بين ممارسات الحضر وممارسات الرحل.

نقـش بارز من تدمر يصور ثوراً ذا حدبة (نحو ٢٠٠ ميلادية) ويشير هو أيضاً إلى مكانة تربية الماشية، سواء في السهب، حيث يسود الجمل والأغنام، أم في المناطق الأكثر رياً، حيث ازدهرت البقريات.

لا يمكننا أن ننسى أن غالبية السكان، وبنسبة ساحقة، كانت تعيش في الريف. ومن حسن حظ علماء الآثار، والمؤرخين، والسياح أن الأرياف السورية قد حفظت الآثار المذهلة لحياة الريف القديمة. وسواء تعلق الأمر

مكتبة المهتدين الإسلامية

بقرى حوران، ومعابد الجبل اللبناني، أم بـ «المدن الميتة» **villes mortes** في سورية الشمالية، فليست هنالك منطقة لا تحمل علامة مرئية عن الحضارة القروية لسورية الإغريقية – الرومانية.

فسيفسائية دير العدس الكبيرة، في سورية الجنوبية، وتصور قاطف العنب وهو يقطف عنقوداً من دالية معلقة عالياً على شجرة. وإلى جواره صياد طيور يمسك طيراً لا بد أنه كان قد اصطاده بحيلة ما. غالباً ما نعثر على موضوع الكرمة على أوابد سورية المسيحية، نظراً لطابعها الرمزي، غير أنها مرتبطة بالانتشار شبه العام لهذه الزراعة في البلد كله.

الهلينية في قلب الأرياف

قد يمكن تصور أن نقابل بين مدن وأرياف على الصعيد السكاني. من المؤكد أن الأرياف كانت شبه ممتنعة على التأثير الإغريقي خلال العصر الهلنستي. هذا على الأقل هو الانطباع الذي يمكننا استخلاصه الآن لعدم وجود اكتشافات كثيرة تخص هذا العصر. وهكذا، تبقى قرية أم العمد قرب صور فينيقية اللغة والثقافة. لم يكن معبد خربة المساكب البلدي، التقليدي جداً، قرب السويداء، مقطوعاً عن العالم المتوسطي: عثر فيه على مصابيح من أفسس (مدينة على بحر إيجة).

http://www.al-maktabeh.com

مع العصر الإمبراطوري، تغير الوضع سريعاً. ظهرت الإغريقية في القرى، خصوصاً في مدن الموتى **nécropoles**. بقي أساس السكان سامياً على نطاق واسع، غير أن التثاقف بدأ يحدث في نفس الوقت الذي راح فيه السكان ذوو الثقافة الإغريقية (واللاتينية أحياناً) يستقرون في القرى. وهكذا، سكن المواطنون الرومان في قرى الكتلة الكلسية في الشمال: هل كانوا من المحاربين القدماء؟ أم مستوطنين باحثين عن أراض؟ أم أعياناً محليين تمت ترقيتهم إلى مرتبة المواطنية؟. مما لا شك فيه أنهم كانوا من هؤلاء وأولئك. وتلاحظ الظاهرة نفسها في سورية الجنوبية، حيث كان المحاربون القدماء أكثر عدداً بقليل. على كل حال، ربما كان من غير المعقول أن نقابل بين مدن وأرياف كما لو كانا عالمين متباينين على صعيد الثقافة والإعمار.

حبوب وكرمة، وزيتون: الثلاثية المتوسطية

تتباين ثروة سورية الزراعية وفقاً للقطاعات، غير أن البلد في مجمله كان ينطوي على إمكانات كثيرة، مع ري أو بدونه. كانت الزراعة البعلية تعطي، في كل مكان تقريباً، نتائج جيدة، بما في ذلك القطاعات التي تبدو اليوم مقفرة، عند أطراف السهب أو على الجبال المعراة الأشجار. في الواقع، الشاطىء كله والجبل المجاور له مرويان جداً. وتتضاءل الهطولات كلما ابتعدنا شرقاً، خصوصاً وأن الجبال الساحلية هي أعلى وتشكل حاجزاً: وهذا ما يفسر أن دمشق، على بعد ٧٠ كم من الشاطىء، هي منذ وقت مضى في منطقة قاحلة، وأن حلب الأبعد بكثير، ليست كذلك. في الواقع، ليست الزراعة السورية زراعة

مكتبة المهتدين الإسلامية

واحات إلا على نحو نادر: دمشق، وتدمر وبعض القرى المجاورة لهما ووادي الفرات الأوسط هي وحدها التي يمكن اعتبارها كذلك.

تصور هذه التماثيل الهلنستية، التي عثر عليها في خرايب (لبنان)، والمصنوعة من الطين المشوي، بملامح آلهة صغيرة، مثل إيروس وهرمس، رعاة يجمعون الثمار في جلبابهم المرفوع أو يحملون على أكتافهم حملاناً. في الواقع، بواكير المحاصيل، كما الحيوانات الصغيرة الأجمل، مكرسة للتقديم للآلهة حامية الطبيعة والضامنة لتجددها الدائم، مثل بعلشمين وأدونيس الذي يرمز موته وبعثه إلى الدورة السنوية التي يحيا فيها النبات، ويموت ويولد من جديد.

تتميز سورية، وفقاً للهطولات والارتفاع (تثلج باستمرار على قمم لبنان وجبال لبنان الشرقية وجبل الدروز)، بزراعة من النمط المتوسطي التقليدي، مستندة إلى زراعة الحبوب، والكرمة وأشجار الزيتون. وقد تطورت الزراعتان الأخيرتان بكثافة منذ العصر الهلنستي تلبية لحاجات الإغريق

http://www.al-maktabeh.com

والسوريين المهيلَنين وشغلت مناطق شاسعة من البلد، خصوصاً في الكتلة الكلسية (بالنسبة للزيتون)، على مقربة من لاودقية، ودمشق، وحوران (الكرمة). لم تتمتع زيوت سورية ولا خمورها بشهرة كبيرة في الخارج، وبالتالي لم تقم عليها تجارة طويلة المسافات، غير أنها كانت تلبي حاجات القرى السورية الكبيرة، وجزئياً حاجات سكان واحات المقاطعة العربية الذين كان يأتون إلى حوران لشراء القمح والخمر في الوقت نفسه.

الاقتصاد الرعوي وموارده

إلا أن هذه «الثلاثية المتوسطية» لم تشكل سوى جزء من النتاجات الزراعية السورية. لقد تبوأت تربية الماشية موقعاً هاماً. وكما هو الحال في جميع شواطىء المتوسط، كانت الماعز والخراف هي الغالبة عند السكان الحضر والبدو. إلا أن سورية تميزت بتطور تربية الماشية الكبيرة في بعض المناطق، وبتخصص البدو في تربية الجياد والجمال وحيدة السنام.

هذا العجل البرونزي مهدى إلى «الإله أوريون»، حسبما تذكر التقدمة المنقوشة على القاعدة، مشيراً في الوقت نفسه إلى مكانة تربية الأبقار في الأرياف السورية وإلى مكانة الصيد في المناطق الهامشية. في الواقع، في البداية، اعتبر البطل الفظ أوريون، الذي لا ينظر إليه في العادة على أنه إله، صياداً كبيراً أولعت به أورورا.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد لفتت المكتشفات الحديثة الانتباه إلى الوجود شبه الدائم للاصطبلات، مع معالف عالية، في الطابق الأرضي لمنازل سورية الجنوبية السكنية. ونستنتج من ذلك بأن تربية بعض الأبقار، وربما بعض الجياد، كان عادة سائدة.

تكثر الفسيفسائيات من المشاهد الشعبية، خصوصاً على أطراف اللوحات الفسيفسائية، التي تضفي عليها فرصة توسيع مهارتها الفنية إلى الرسمِ كما إلى اللون. وفي هذه اللوحة الفسيفسائية من دفنه، قرب أنطاكية، نرى راعياً صغيراً وعلى فمه قرن هو عبارة عن بوق ويحمل سلة ويراقب الأكباش والخراف التي ترعى حوله.

من جانب آخر، أدى البدو دوراً جوهرياً في هذا الاقتصاد الرعوي. وغالباً ما قُرن العرب بالتجارة طويلة المسافات. من المؤكد أن بعضهم تعاطاها، غير أن أكثرهم كانوا مربي ماشية.

http://www.al-maktabeh.com

وتدل آثار الأنباط الأولى في حوران، والتي تعود إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، إلى أنهم كانوا يأتون بقطعانهم إليها للرعي فيها. وكان أولئك الذين أطلق عليهم اسم «الصفائيون» **Safaïtes** لزمن طويل، وأصلهم من شبه الجزيرة العربية الجنوبية، يجوبون الصحراء الحجرية، الحَرّة، شرق جبل الدروز في القرن الأول قبل الميلاد في أقصى حد. ولما كانوا مربي جمال، وبشكل ثانوي مربي ماعز وخراف، فقد تركوا أكثر من عشرين ألف تسجيل أثري على صخور الصحراء، حيث يصفون أسلوب حياتهم، وآمالهم، ومخاوفهم، ويتضرعون إلى آلهتهم، ويفرحون بالعثور على أثر لأجدادهم، الذين يطيلون في تعدادهم.

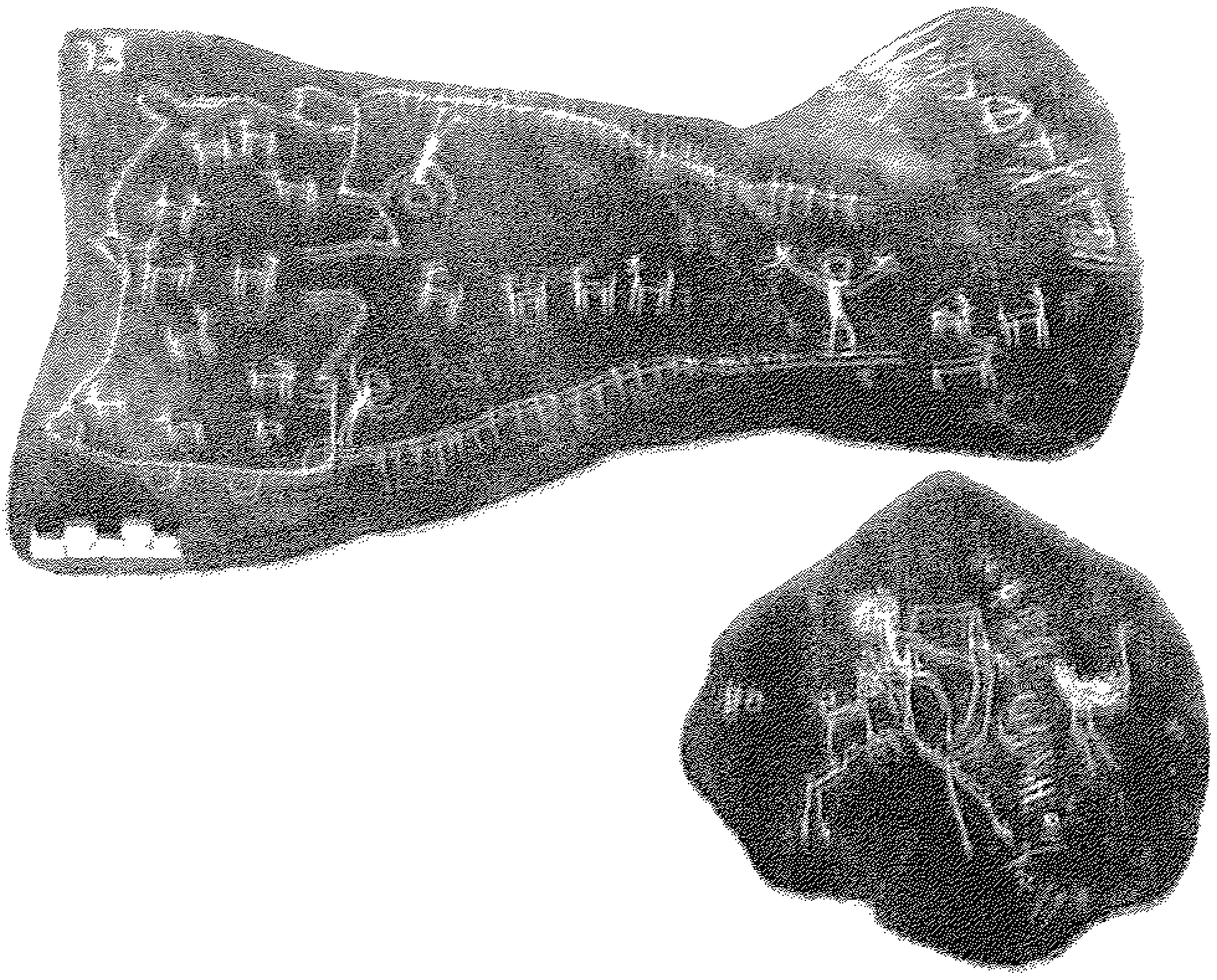

تركت بعض قبائل البدو أثرها في الصحراء، بطول مساراتهم المعتادة، بين منطقة دمشق وشمال العربية السعودية الحالية. وتصور هذه الرسوم والتسجيلات، التي نقشت بأداة رأسها مدبب، ابتهاجات وصعوبات الحياة اليومية. هنا في الأعلى عودة الحيوانات إلى الحظيرة حيث تقضي ليلها، وفي الأسفل صيد النعام. وتقتبس النصوص كتابتها من أبجديات شبه الجزيرة العربية الجنوبية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تأكد وجود العرب مربي الجمال أيضاً في تدمر، وذلك، في الوقت نفسه، من خلال أسماء بعض الأفراد ونصب آلهة عربية الطابع، كإلهة الحرب الكبرى اللات. ولا توجد معلومات وافرة حول القطاعات الأخرى، غير أن سترابون[٣٦] يشير إلى أن وادي الفرات كان في بداية العصر الإمبراطوري الروماني تحت سيطرة العديد من جماعات البدو الرحل الذين كانوا يعيشون على أعمال نهب القوافل وعلى تربية الجمال في ذات الوقت.

وبعد سقوط حكم زنوبيا ووهب اللات[٣٧]، جاءت قبائل أخرى من شبه الجزيرة العربية لتمارس حياة الترحال نفسها في المنطقة، وتعزز بذلك الوجود العربي فيها. أقام الغساسنة[٣٨]، في القرن السادس، أحياءهم أيضاً في حوران وفي الجولان على حد سواء وحتى منطقة الفرات؛ وكان مركزهم الرئيسي في الرصافة[٣٩].

بلد من القرى

أياً كانت أهمية البدو في اقتصاد سورية الزراعي، فإن البلد بقي أولاً بلداً حضرياً وبالتالي بلد قرى. ونعرفها جيداً من خلال وفرة الآثار الباقية عند طرفي البلاد، الكتلة الكلسية في الشمال، وحوران في الجنوب: أكثر من سبعمائة قرية منذ القرن الثاني وحتى بداية القرن السابع الميلاديين!.

ودون الدخول في تسلسل الوقائع التاريخية غير المؤكد هنا بعد، يبدو أن هذه القرى شهدت ازدهارها منذ القرن الثاني الميلادي، وأحياناً منذ القرن

http://www.al-maktabeh.com

الأول، كما في قرى سورية الجنوبية. كانت البيوت الريفية، وأياً كان حجمها، تبنى وفق مخطط هو نفسه، بناء مستطيل يتقدمه فناء، بطابقين: الطابق الأرضي للاستثمار، والآخر للسكن.

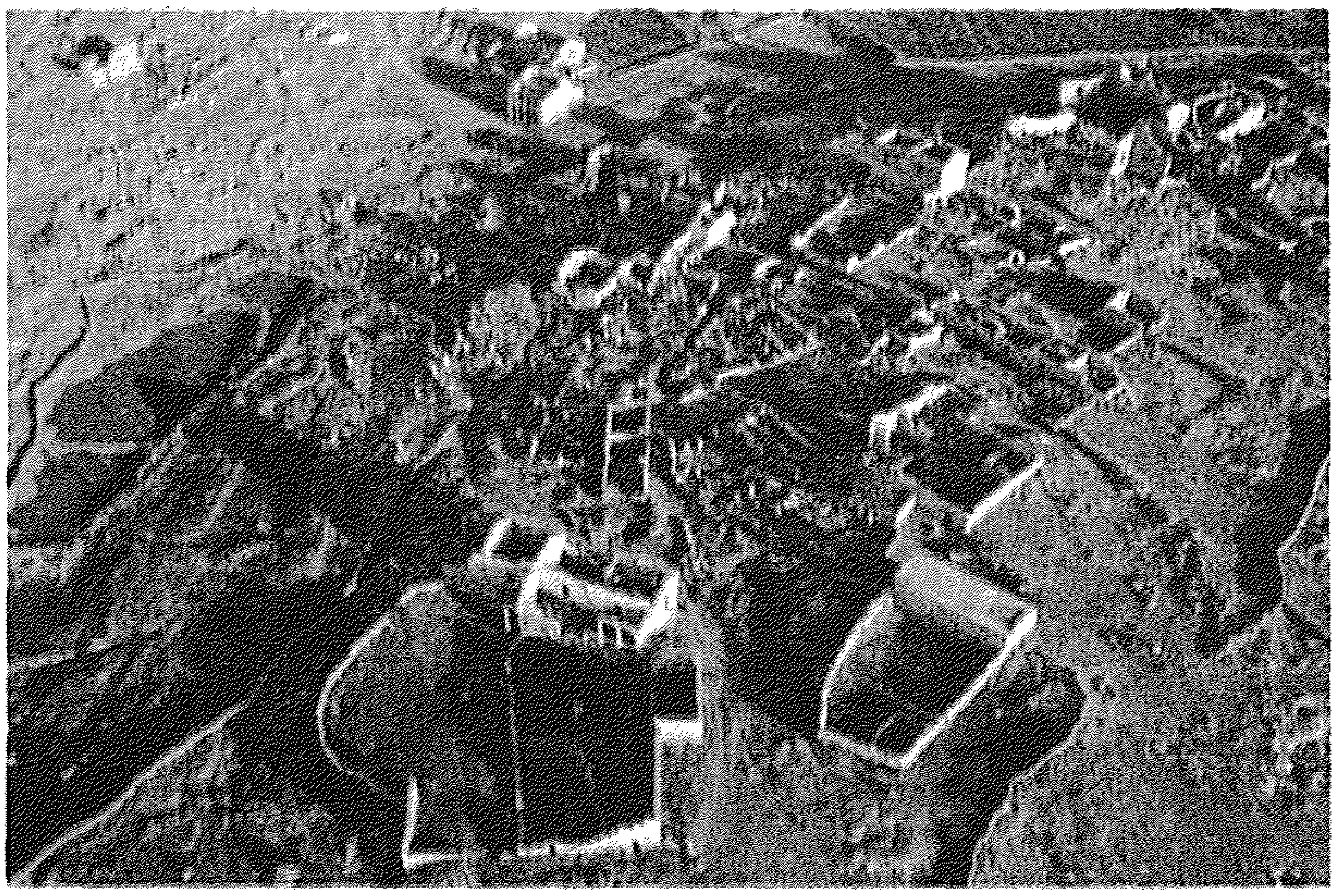

منذ القرن الميلادي الثاني، تغطت الكتلة الكلسية في سورية الشمالية، من منطقة أفامية وحتى أنطاكية، بالقرى (هنا قرية سرجيلا Serdjilla جبل الزاوية) التي تمارس زراعة الحبوب والكرمة، وبالأخص أشجار الزيتون. ويجب أن لا يخدعنا الطابع الأجرد للمنطقة الذي ساد حتى فترة متأخرة: في الواقع، تتمتع هذه الجبال، المروية جيداً، بما يكفي من التربة المتأتية من تفكك الأحجار الكلسية كي تتطور فيها زراعة بعلية بصورة ناجحة.

لا يظهر الثراء في المخطط، بل في تقنية البناء، والزخارف، ووجود رواق واجهي أم لا. لبعض البيوت برج مرتفع ووظيفته هي المراقبة. توفر لنا المعاصر ومعامل الزيوت المشادة في الحقول أو على مقربة منها معلومات حول النشاطات الرئيسية. وغالباً ما يوجد معبد في المكان أيضاً،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وصلت القرى السورية إلى نوع من أوج الازدهار بين القرنين الميلاديين الرابع والسابع، في الشمال كما في الجنوب، وتعطينا قرية سرجيلا Serdjilla ، شمال أفامية، مثالاً جيداً عن قرية بيزنطية من تلك الفترة. ويتجلى الثراء أولاً في حالة البناء المبني من الأحجار المشذبة والمضبوطة بمفاصل قوية، مما أتاح لعدد من الصروح أن تقاوم الزلازل. كما أنه يظهر في حجم المساكن الخاصة، المزارع الكبيرة الثنائية الطابق التي تسبقها باحة واسعة – مما يؤمن عزلة نسبية لكل وحدة سكنية، وفي حجم القبور العديدة جداً، الفخمة غالباً. كانت الصروح العامة موضع اهتمام أيضاً، معابد كانت، وحيثما بقيت، أم كنائس حلت محلها منذ القرن الرابع. وكانت كل قرية تضم عدداً منها، مع صحن واحد بشكل عام، ونزُلاً، وقاعات اجتماعات، وحمامات عمومية... والعديد من الصروح التي تساهم في تعزيز الألفة بين أهل القرية. وتترك لدينا سرجيلا انطباعاً جيداً عن تلك «المدن الميتة» التي تشكل عنصراً جوهرياً من الإرث الآثاري السوري.

http://www.al-maktabeh.com

ولو أنه يشاد أحياناً منفصلاً عنه، على تلة مجاورة، وحينها يكون مشتركاً بين عدة قرى متجاورة. وقد دخلت المسيحية منذ وقت مبكر جداً إلى هذه القرى، التي نكتشف فيها منذ القرن الخامس كنائس وأديرة.

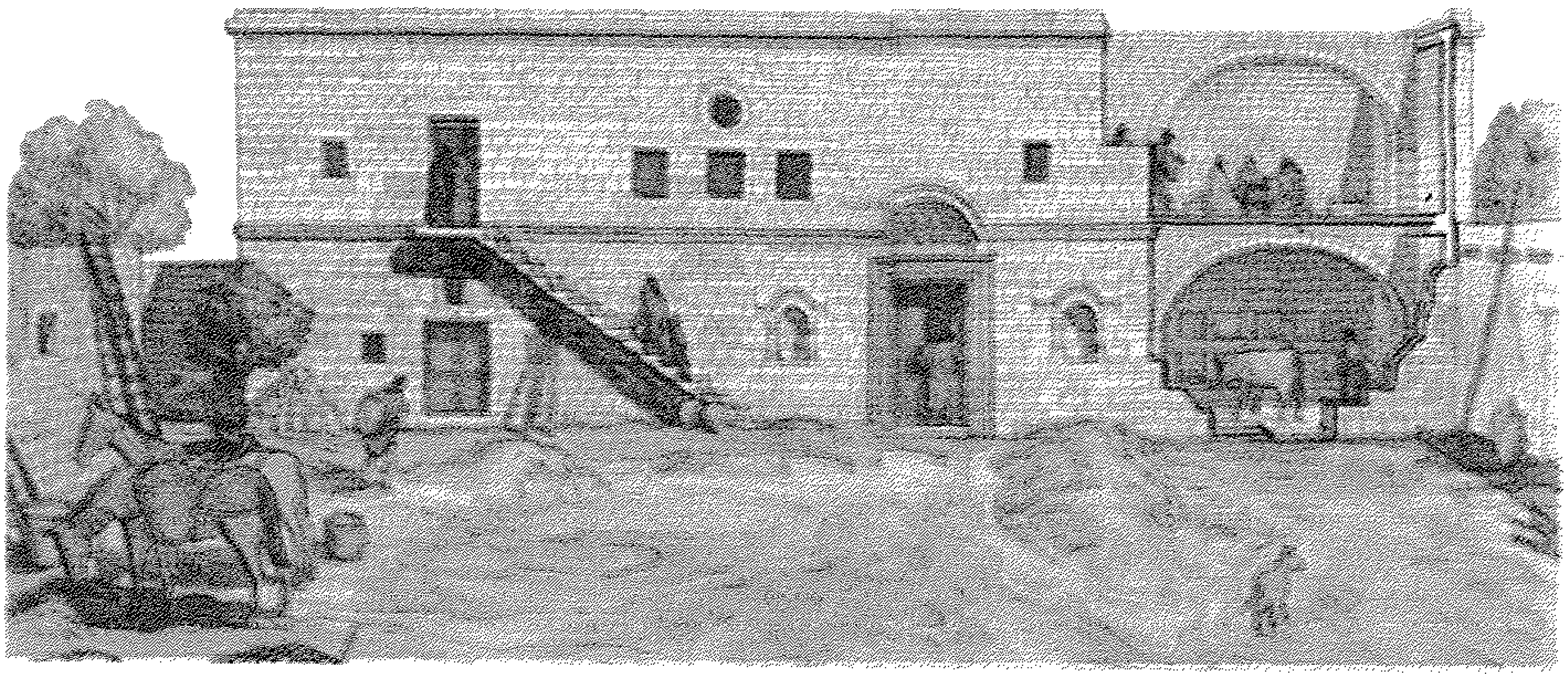

تحتفظ قرى سورية الجنوبية القديمة بمستثمرات زراعية، كمزرعة إنخل (Neeila)، التي أعيد تصميمها هنا، بين دمشق ودرعا. يضم الطابق الأرضي أماكن الاستثمار، خصوصاً الاصطبل للبقريات، حيث نلحظ المعالف، وهناك درج خارجي يوصل إلى المسكن في الطابق الأول. ونظراً لنقص الخشب، فقد تكونت الهياكل والسقفيات من البلاط البازلتي المرتكز على العقود المفلطحة التي تحملها أعمدة مدمجة في الجدران.

وبعد مرحلة أولية من النشاط الكبير في القرن الميلادي الثاني وبداية الثالث، شهدت القرى اتساعها الأعظمي بين ٣٥٠ و ٥٥٠ ميلادي. وكانت هذه الفترة هي العصر الذي قامت فيه قرى عند تخوم السهب، ربما لمواجهة الضغط الديموغرافي في حوران كما في خلقيدونة. كانت تنطوي هذه القرى

مكتبة المهتدين الإسلامية

على بنى مشتركة قوية. وتفيدنا التسجيلات الأثرية في سورية الجنوبية بوجود مؤسسات قروية فيها، مع قضاة وبيت مال مشترك، على غرار المدن المجاورة، التي لم تكن هذه القرى تابعة لها، في معظمها. في سورية الشمالية، على العكس، كانت القرى تعود إلى الأقاليم الوطنية لأنطاكية، وأفامية، وخلقيس (قنسرين) ومدن أخرى أقل شهرة.

ويبدو أن الطاعون، هو الذي أدى مرتين، عام ٢٥٠ ثم قبل ٥٥٠ بوقت قليل، إلى ازدهار القرى وتوسعها. ولاشك أنه كان هناك دور في هذا التوقف أيضاً لأعمال التدمير الناتجة عن الغزوات، غير أن انحطاط الأرياف، أو على الأقل الركود الذي سادها، كان قد بدأ قبل وقت طويل من التغيرات السياسية للقرن السابع.

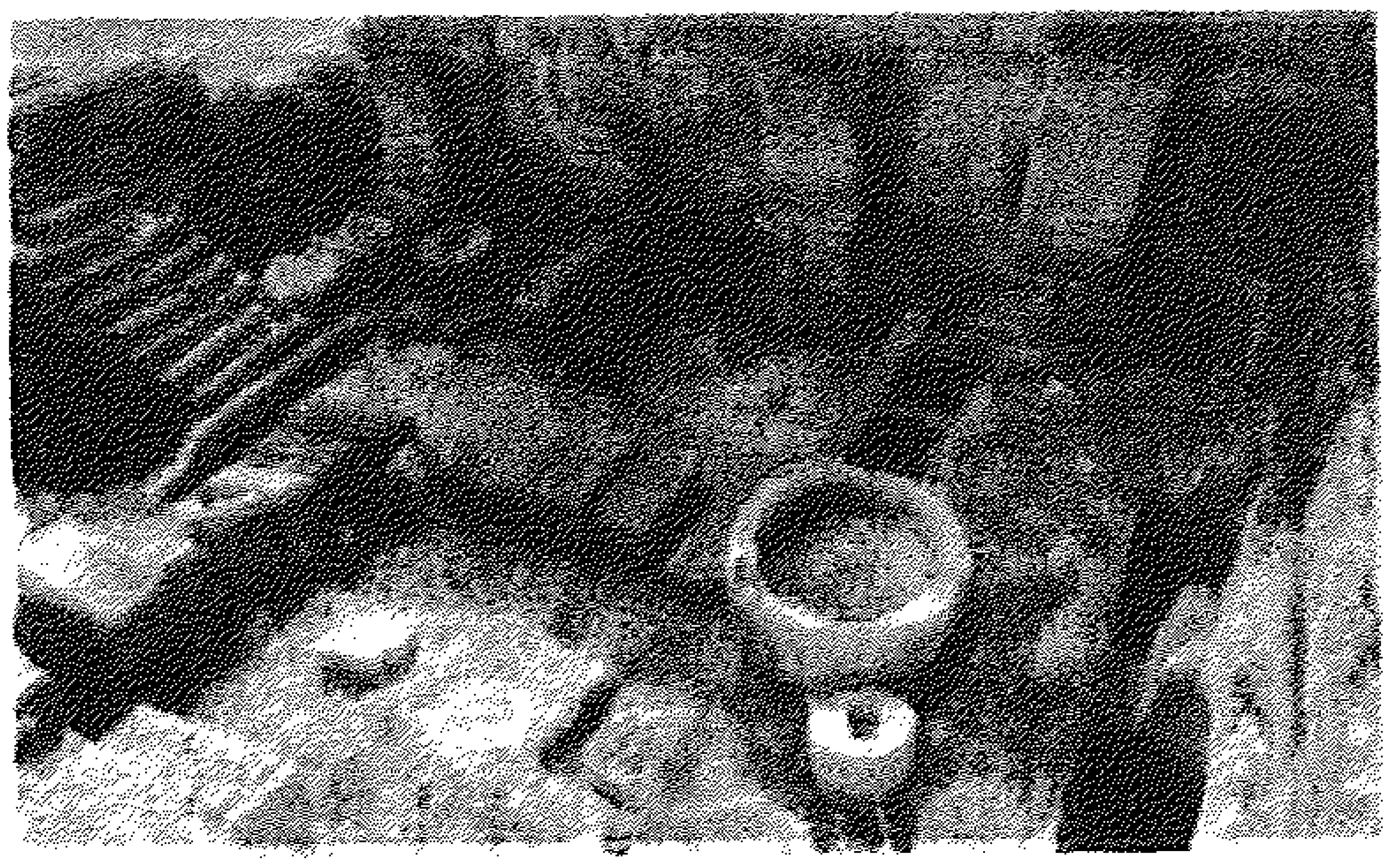

تتمثل التجهيزات الضرورية لكل مسكن في سورية الشمالية وكذلك الجنوبية في معصرة الزيت أو النبيذ (هنا معمل زيت في سرجيلا)، وفي ذلك مؤشر كبير على الزراعات السورية. في الشمال، شغلت زراعة أشجار الزيتون الجبال المقفرة اليوم، كذلك الكرمة. مع ذلك، لم يتمتع النبيذ والزيت السوريين بشهرة في الخارج (باستثناء نبيذ مخلي في منطقة لاذقية). في الجنوب، كانت الكرمة هي الأكثر انتشاراً، وكانت معصرة العنب تقام أحياناً في قلب الكروم، التي كانت تراقب من خلال أبراج موزعة في الريف. هنا أيضاً كان الاستهلاك في معظمه محلياً، مع ذلك كان يتم تصدير قسم منه لسكان الواحات في شمال شبه الجزيرة العربية في بداية القرن السابع.

http://www.al-maktabeh.com

يعتمر هذا الكاهن التدمري، الذي يرتدي جلباباً ومعطفاً على الطريقة الرومانية، قبعة تدل على مهنته؛ ويحدد التسجيل، باللغتين الآرامية والإغريقية، اسمه، مونيموس، وكنيته، غير أن التاريخ مسجل بالآرامية وحدها: ٤٤٩ من العصر السلوقي، أي ١٣٨ ميلادية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الخامس

عوالم الآلهة

الآلهة هي صورة الناس. هناك مجمعات آلهة بقدر تباين البشر، رغم التشابهات الحتمية، ومن ثم، مع الزمن، تحدث توفيقات وامتزاجات. كل الآلهة موجودة في سورية، آلهة الشعوب السامية، منذ أمد بعيد، وآلهة الإغريق والرومان، وغيرها أخرى جاءت من مصر ومن أنطاكية.

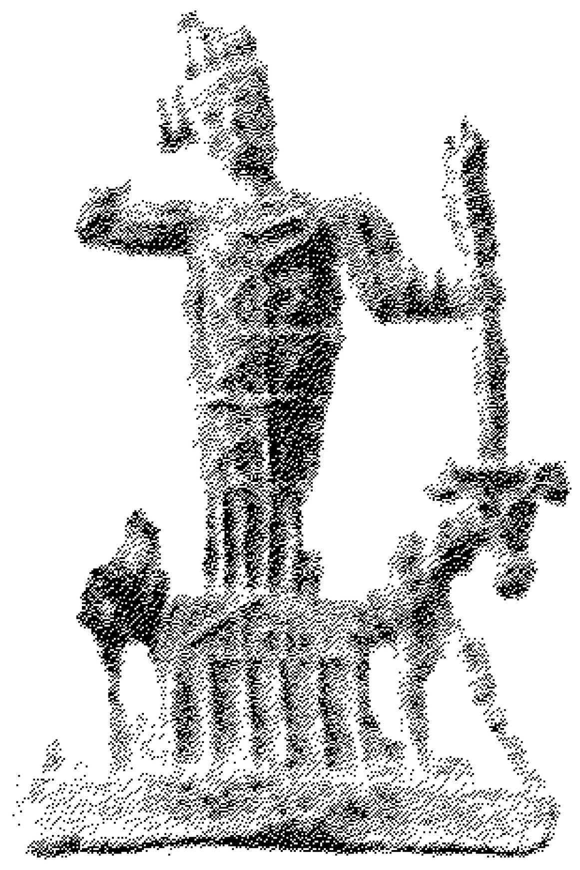

تمزج مجمعات الآلهة السورية بين آلهة مختلفة الأصول. تصور التماثيل المصنوعة من الرصاص، بقياس ٧ – ٨ سم، آلهة بعلبك (هنا جوبيتر – أدد / هدد)، وتنسب إلى العصر الهلنستي، وقد عثر عليها في عين الجودي قرب بعلبك. وكان المؤمنون يقدمونها نذوراً برميها في الينبوع المقدس.

آلهة بالآلاف

لا وحدة **unité** عند الفينيقيين، لأنه كان لكل مدينة مجمع آلهتها الخاصة بها. في صور، الإله هو ملقارت، «سيد المدينة»، المسيطر، على نحو قوي جداً

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومنذ زمن طويل. في صيدا، ضم المعبد الرئيس، خارج الأسوار، إلهاً شافياً، أشمون (إله فينيقي). في بيروت، شكّل إلهٌ بحري، أسماه الإغريق بوسيدون (بوزيدون)[٤٠] **Poséidon**، ثنائياً مع عشتروت[٤١]، إلهة الخصب والنبات. وفي جبيل، كانوا يبجلون «سيدة»، بعلة، رغم أن أدونيس[٤٢] احتل المرتفعات، عند ينابيع نهر ابراهيم. لم تستنفد هذه الآلهة الكبيرة أبداً ثراء مجمع الآلهة الفينيقية، الذي ضم في الوقت نفسه آلهة وإلاهات من الطبيعة، وآلهة شافية ومُعِينة، وأسياد سماء، وعدداً كبيراً من الآلهة المحلية، كـــ «سيد الرقص»، بعل مرقود، وله معبد فوق بيروت، في بيت مري.

في مغارة أفقا اللبنانية، ينبجس ينبوع دائم، رمز الحياة والخصوبة. هنا تثبتت أسطورة أدونيس – تموز، الإله الشاب، الذي يموت ويحيا كل عام، ضحية إلهة غيورة. وقد تمثلت عبادة هذه الإله، المبجل في أثينا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، في آلهة أخرى مماثلة، مثل أوزيريس أو الإله الفريجي (من فريجيا) أتيس.

http://www.al-maktabeh.com

نجد الكثير من الصفات المتشابهة لدى آلهة الآراميين، تلك التي تحرص على نجاة وازدهار مدن وقرى داخل البلاد. وقد سيطرت ثلاثة آلهة: إلهة كبيرة وإلاهان قويان: أترغاتيس(٤٣) **Atargatis**، «الإلهة السورية» **(Dea Syria)** بامتياز، سيدة الحيوانات والطبيعة البرية، التي تضمن العودة المستمرة للنباتات ودورة الفصول. أما بعلشمين، سيد السماء، فيؤمن الوفرة. أخيراً هدد أو أدد (هو زيوس اليوناني وجوبيتر الروماني)، سيد العاصفة والمطر، هو «سيد الرخاء». ويمكن أن يتخذ كل واحد وجهاً خاصاً تبعاً لمكان تبجيله، وصفات الإله المحلية هي أهم دون شك من اسمه النوعي. وهكذا، يبجل الإله هدد على أنه «سيد دمشق» و «سيد بعلبك» في هاتين المدينتين. وفعل الإغريق والرومان الشيء نفسه عندما أطلقوا على الأول دائماً اسم **Zeus Damaskènos** وعلى الثاني اسم **Jupiter Heliopolitanu**.

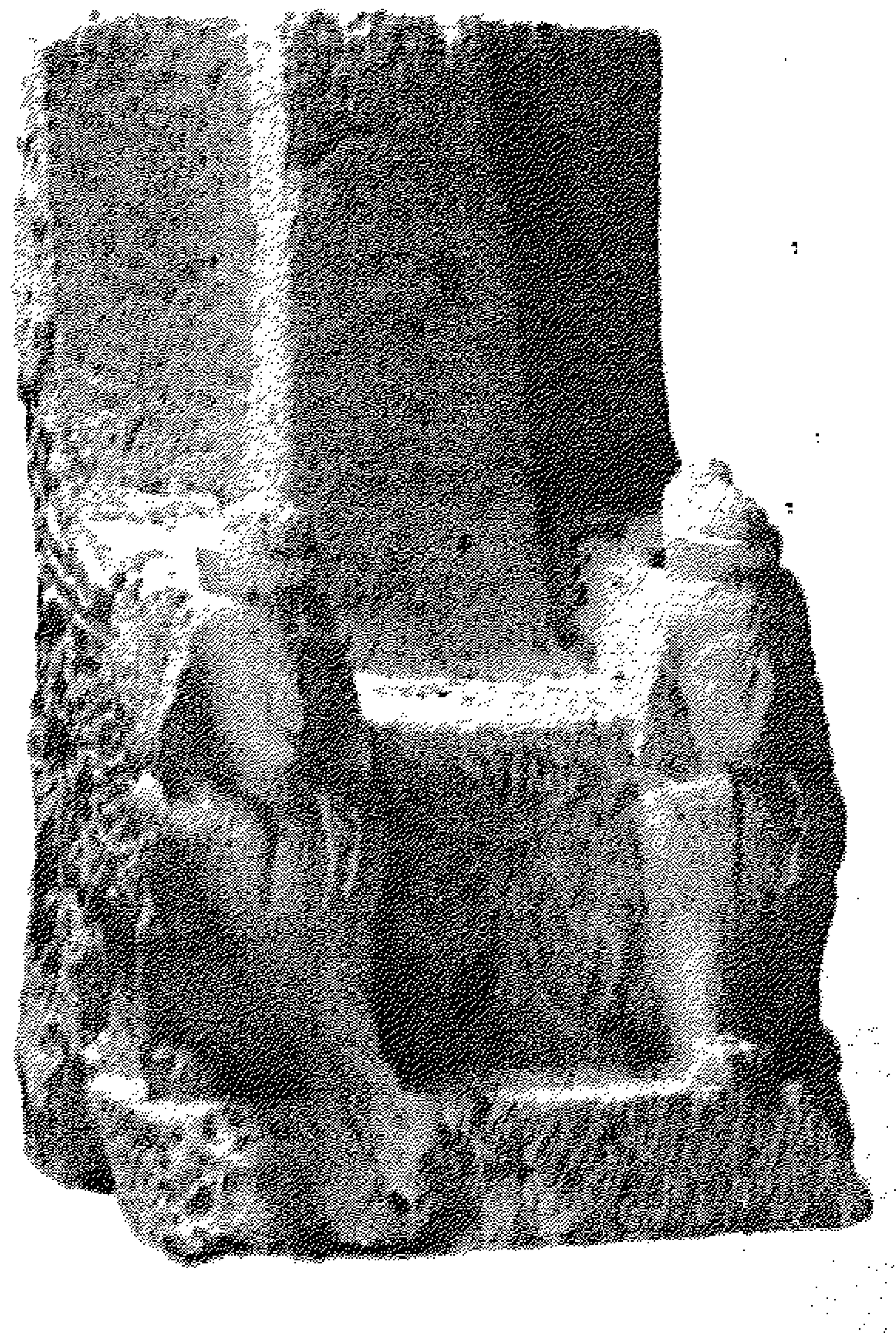

كان هذا العرش، الذي يعود إلى العصر الهلنستي، وقد اكتشف في عين بعل قرب صور، مكرساً على الأرجح لعشتروت. وعلى جانبيه، نرى تمثالي أبو الهول مجنحين بوجه آدمي، في وضعة المشي، وفي الخلف مسلة عالية هي ليست صورة للإلهة بل يرمز إلى وجودها، مكان إقامتها هنا، «بيتها» (وهذا هو المعنى الحرفي لكلمة bétyle / بيت إيل)

مكتبة المهتدين الإسلامية

لم تطغ هذه المجمعات الإلهية على تنوع الآلهة السامية، إذ تضاف إليها آلهة العرب. منها إلهة الحرب الكبيرة اللات (لات عند بدو حرا)، ونجمة الصبح، (الزهرة) العزى[٤٤]، وذوالشرى[٤٥]، إله سلالة الأنباط[٤٦]، فضلاً عن العدد الكبير من آلهة القبائل والقرى. في تدمر، ظهر في النصوص أكثر من ستين من الآلهة. وكان السيد الأكبر لمجمع الآلهة المحلي إلهاً من المنطقة نفسها، ابن الواحة نفسها، بول bôl، غير أن التقارب مع ما بين النهر انتهى بتسميته بل. وكان يحاط بالأتباع، مثل يحريبول **Iahribôl**

هذه اليد النذرية المصنوعة من البرونز، وفيها صورة مركوري (إله التجارة) الخاص بمدينة هليوبوليس (بعلبك)، عثر عليها في نيحا قرب بعلبك. وقد صور مركوري، المحاط بحيوانات غير واضحة المعالم، على أنه إله المدينة الكبير.

http://www.al-maktabeh.com

وأغليبول وملكبل، غير أنه عبدت آلهة أخرى، آلهة ما بين النهرين، مثل نابو[٤٧]، والآلهة الآرامية مثل بعلشمين، والآلهة العربية مثل اللات. وإذا كان التدمريون وحدهم قد بجلوا آلهة تدمر، فإن آلهة أخرى قد جاءت من أماكن مختلفة إلى دورا – أوروبوس ، مثل أفلاد **Aphlad** و عزاناثكونا **Azzanathkona**. ولم يكون التنوع أقل أهمية في سورية الجنوبية، حيث نجد في الوقت نفسه هذه الآلهة نفسها، وأخرى غيرها، محلية تماما، مثل تياندريوس في قنوات، أو تلك الآلهة المجهولة الاسم التي يشار إليها بالشكل «إله أنتل»**dieu de Untel**، التي تخص قرية أو مجموعة صغيرة من القرى.

نرى في هذا النقش البارز صورة للإله أفلاد Aphlad ، «المسمى إله قرية عناة الفرات»، حسب ما هو مكتوب، مرتدياً لباس الجندي الروماني، وقد وقف على زوج من عنقاء مغرب. وإلى يمينه، يقف أحد أتباعه، أدديابوس، بن زبديابولوس، حيث يريق الخمر على مذبح صغير قرب تمثال الإله.

جاء الإغريق مع آلهتهم أيضاً، آلهة مدنهم الأصلية، وآلهة السلالة المقدونية أو سلالات الملوك الجدد، الذين أقاموا في المدن الجديدة. ولكن من الصحيح أننا نميز بصعوبة هذه الآلهة المستوردة، في العصر الهلنستي على

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأقل. مع ذلك، ظهرت هذه الآلهة في أنطاكية، حيث كانت تقام حفلات باذخة في معبد أبولون في دفنه[٤٨]. لكن الصعوبة الأكبر تبقى غالباً في معرفة إن كان يختبىء خلف الاسم الإغريقي إله إغريقي أم إله محلي.

تعايشت الآلهة المحلية مع آلهة أكثر شمولية، مثل ميترا (أو ميثرا)، المبجل بشكل خاص عند العسكريين. وقد عثر في معبد ميترا الصيدوني، غير المعروف المكان اليوم، على مجموعة رائعة من المنحوتات، قدمها عام ٣٨٩ ميلادية فلافيوس جيرونتيوس، الذي تمثل قطعته الرئيسية قيام الإله بالتضحية بثور.

بالنسبة للرومان، كان وارد الآلهة أصغر، لأنه لم يكن في مستوطنتي بيروت وبعلبك سوى آلهة رومانية، ديانا (إلهة الصيد الرومانية، أرطميس عند الإغريق «المترجم») وميركوري (إله التجارة عند الرومان، هو هرمس الإغريق «المترجم»)، وماتر ماتورا (أورورا الطيبة، التي لم تكف عن البكاء على مصرع ولدها ممنون حتى اعتبرت دموعها مصدر الندى «المترجم»)، ويونون (إلهة الزواج)، إلخ... ولكن، كما هو الحال بالنسبة للآلهة

http://www.al-maktabeh.com

الإغريقية، لا بد من الحذر، إذ يمكن أن يختبىء خلف الاسم اللاتيني إله محلي من المنطقة نفسها: ليس جوبيتر هليوبوليتانوس – هليوبوليس هو الاسم الإغريقي لبعلبك – سوى هِأدد نفسه.

صُورت الإلهة المحاربة اللات في تدمر بأشكال بشرية. وتبدو في هذا النقش البارز، الذي وجد في خربة الساني شمال غرب تدمر، من القرن الثاني – الثالث ميلادي، محاطة بأسدين كرمز للقوة، ومسلحة برمح، ومحمية بخوذة ودرع. ويبدو إلى جوارها أحد المؤمنين مرتدياً على الطريقة الرومانية ومؤدياً لها طقوس الشكر، حيث يحرق البخور على المذبح الناري المقدس القائم بجانب الإلهة. وعلى القاعدة في الأسفل، هناك تسجيل يقول: «إلى اللات ورحيم، أدى رابل بن عويدا، بن يادي، شعائر الشكر، واحتفاءً بذكرى سلما، بن كسيانوس».

آلهة الخلاص

ظلت فئتان من الآلهة تثري مجمع الآلهة السوري. أولاً، الآلهة العامة، آلهة النجاة، أياً كان أصلها، التي انتهى بها المطاف في الانتشار في كل مكان. وقد قدمت سورية نفسها أحد هذه الآلهة، أترغاتيس، **Dea Syria**، التي بُجلت في

مكتبة المهتدين الإسلامية

منطقة المتوسط كلها. ولطالما زعموا أن وجود أترغاتيس وأدونيس قد أعاق بشكل ما انتشار عبادات أخرى من الصنف ذاته. إلا أن الاكتشافات الحديثة فندت هذا الرأي. فقد عثر على إيزيس (إلهة الزواج عند المصريين)، التي وجدت في لاودقية منذ العصر الهلنستي، مراراً في سورية والأردن. كما أن الفارسي ميترا[٤٩]، إله الجند بامتياز، قد وجد في سورية مصوراً بأشكال فخمة، وفي دورا – أوروبوس (حيث وجد مرسوماً)، وفي صيدا (على شكل منحوتات)، وكان يمكن أن تعتبر هذه حالات استثنائية لو لم يتم العثور في السنوات الأخيرة على أربع صور أخرى له (اثنتان في دولوك التركية) وواحدة في منطقة أفامية، مع رسوم جدارية رائعة، والرابعة في شعارة في حوران. ومن الصعب الزعم بأن سورية قد اكتفت بآلهتها الخاصة فيما يتعلق بعبادات الخلاص.

عبادة الملوك

ينبغي في المقام الثاني أن نشير إلى عبادة الملوك. كان هذا التقليد الإغريقي، الذي أوجده الإسكندر منذ العام ٣٣٤ ق.م، قد سار عليه كل الملوك اللاجيين والسلوقيين، في البداية بالنسبة للملوك الأموات، ثم بالنسبة للملك الحاكم وزوجته. في سورية، نادرة هي شواهد ذلك، غير أن عددها القليل كاف لتأكيد وجودها. وكان يجري اختيار المؤمنين المخلصين من بين أهل البلاط والجنود، غير أن عامة الشعب تركت وشأنها. وفي العصر الروماني، استمر هذا التقليد مع الأباطرة. وقد نظمت عبادة إمبراطورية في أنطاكية منذ حكم أوغسطس، وكان دكساندروس **Dexandros**، وهو سليل مستوطنين مقدونيين من أفامية، أول كاهن إقليمي كبير. وكانت تقام احتفالات في أنطاكية، بل وفي صور أيضاً، ومن ثم في دمشق وسميساط[٥٠]. من جانب آخر، كان بعض المدن ينظم عبادة بلدية للإمبراطور، مقترنة أحياناً مع عبادة آلهة المدينة مع عرض مسابقات (دمشق، ولاودقيا، وصور).

http://www.al-maktabeh.com

في دورا – أوروبوس، كما في تدمر وكل العالم القديم، يشكل حرق الطيوب والعطور واحداً من أكثر الأعمال القربانية تقديراً عند الآلهة. في هذا الرسم الجداري، من القرن الميلادي الثاني، من المعبد المسمى «معبد الآلهة التدمرية»، نرى كاهناً يرتدي قلنسوة عالية تدل على وظيفته، يؤدي الحركات الطقسية باسم المؤمن الواقف خلفه وكل أسرته. ومنذ عصر الإسكندر، تم توجيه كميات ضخمة من البخور إلى العالم الإغريقي. ونظراً لموقع سورية على البوابة الرئيسية التي تفضي إليها طرق شبه الجزيرة العربية الجنوبية، فقد سهل عليها التزود بالطيوب والعطور بكميات وافرة. بعد انطلاقها من اليمن (بلاد العرب السعيد ة)، كانت القوافل تصل إلى المرافىء المتوسطية بعد سبعين يوماً (خصوصاً غزة) والمدن السورية الرئيسية. وقد أدى الأنباط، الذين تحكموا بكامل شمال شبه الجزيرة العربية، دوراً جوهرياً في هذا العبور، ليس على سبيل التجارة بقدر ما هو على سبيل الخفارة. وقد فشلت روما في الاستيلاء على بلد البخور (حملة أيليوس غالوس عام ٢٥ قبل الميلاد)، وبقي هذا منتجاً كمالياً مخصصاً للقرابين التي تقدم للآلهة وللإمبراطور.

مكتبة المهتدين الإسلامية

توفيقية وتمازج

لا تبين هذه النظرة الشمولية ظواهر التوفيقية والتمازج التي قامت منذ العصر الهلنستي. كان الإغريق قد أقروا منذ وقت طويل بأن الآلهة «البربرية» تشبه آلهتهم، وقبلوا برضى أنهم هم أنفسهم قد أخذوا آلهة عن شعوب أخرى. ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد، شبه المؤرخ هيرودوتس الإله الصوري ملقارت بالإله الإغريقي هيراكليس. وتسارعت السيرورة لتصبح منتظمة في العصر الهلنستي. من جانبهم، وجد السكان المحليون المهلَّنون فائدة في تغيرات الأسماء هذه: استمروا في تبجيل آلهة أسلافهم على شاكلة الآلهة الإغريقية. وهكذا، اتخذت آلهة سورية أسماء إغريقية بأعداد كبيرة: مثلت عشتروت بأفروديت[٥١]، وبعلشمين وهدد (أدد) بزيوس[٥٢]، وأشمون بأسكليبيوس[٥٣]، واللات العربية بأثينا[٥٤]. ونجهل أحياناً حتى اسم الإله المحلي الأولي: أي إله يختبىء خلف ليكورغس وثياندريوس في حوران؟. ولكن، لم تتعرض الآلهة كلها لهذا التماثل بالاسم، بل بعضها فقط في بعض الظروف. أطلق على أترغاتيس أحياناً اسم لوكوثيا **Leucothéa**، ولكن غالباً ما احتفظت باسمها؛ كما أن ذو الشرى لم يسم زيوس إلا نادراً، وكان أدونيس أكثر ألفة بالنسبة للإغريق من أن يغيروا اسمه. في تدمر، في أسوأ الأحوال، احتفظت الآلهة بالاسمين، مثل آرسو – آرس **Arsou - Arès** ، نيرغال – هيراكليس **Nergal - Héraclès**، غير أن أخرى لم «تتهلّن»، مثل بل وشركائه.

http://www.al-maktabeh.com

الإلهة أثينا – اللات التدمرية، المنحوتة من رخام آسيا الصغرى

مكتبة المهتدين الإسلامية

أثر هذا التماثل أحياناً على التصورات أو على الأسطورة. فعندما بُجّلت أتارغاتيس كـ لوكوثيا في قرى جبل حرمون، قرنت بها أسطورة **Mélicert**، الطفل الذي أغرقه غضب زيوس. وبالنسبة للكثير من الآلهة، خصوصاً الآلهة العربية، لم يكن هناك تقليد إيقونوغرافي. كانت الصور غير واردة عند العرب، وكان يكفي وجود حجر منصوب كي يرمز به إلى وجود الإله. مع ذلك، تلاشى منع الصور في الأوساط العربية المهلنة: كان في تدمر الكثير جداً من صور الآلهة. ولكن، كيف يصورون آلهة لم يتصورها أحد قط؟. كان ذلك بالبحث عن نموذج لدى الإله الإغريقي الذي كانوا يمثلون الإله العربي به.

يقرن الثالوث الأسمى التدمري إلهاً محلياً، بول bôl (الثاني إلى اليسار)، الذي أصبح بل، وتابعاه، أغليبول وملكبل (في الوسط)، وعلى رأسه هلال. في هذا النقش البارز، الذي يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد – بداية القرن الميلادي الأول، ترتدي الآلهة الثلاثة جلباباً طويلاً ومعطفاً ملبوساً على الطريقة الرومانية. لكن الأغرب هو اقتران هذه الآلهة بصورة لهيراكليس عارياً، ونميزه من هراوته ومن جلد أسد نيميا. وقد مُثّل في تدمر بإله ما بين النهرين نرغال، ويبدو هنا بالشكل الأكثر توافقاً مع النموذج الإغريقي، رغم عدم دقة النحت.

http://www.al-maktabeh.com

وهكذا، في حرم اللات، في تدمر، لم يكن تمثال العبادة سوى نسخة عن تمثال لأثينا من العصر الكلاسيكي. في الحقيقة، هي حالة حدية، إذ لم يكن في هذه الحالة المحددة أي تقليد محلي. في أماكن أخرى، بالنسبة لآلهة الفينيقيين والآراميين، كانت الصور موجودة منذ وقت سابق. وقد أثريت بملامح جديدة، كالصاعقة بالنسبة للآلهة المشبهة بزيوس، أو جلد الأسد بالنسبة لهيراكليس (هرقل) الصوري.

مع مرور الزمن، لم يفرق المؤمنون بين الآلهة تبعاً لأصلها. وكان سيبدو كل جهد علماء اليوم بحثاً عن أصول هذا الإله أو ذاك بلا فائدة بالنسبة للمؤمنين السوريين، الذين اعتادوا على هذه التوفيقيات. لم تترك هذه المؤثرات تغيراً عميقاً في طبيعة الآلهة، ولا في الطقوس، ولا في العبادة. لم تكن تلك سوى جهود تحديثية سطحية تضفي على الآلهة ذوق العصر وتجعلها مفهومة للجميع. وبهذا الثمن أمكن آلهة سورية التقليدية أن تغري القادمين الجدد، الإغريق والرومان. وقد انتشر بعضها في كل أرجاء الإمبراطورية. وكانت تلك هي الحال ليس فقط بالنسبة لأتارغاتيس، بل أيضاً بالنسبة لجوبيتر هليوبوليس والبعل في دولول **de Dolichès**، جوبيتر دوليشنوس **Jupiter Dolichenus**، الذي بجلته الأوساط الحربية بشكل خاص، والموجود على كل حدود الإمبراطورية.

مقرات الآلهة

حملت الأحرام علامة هذا التنوع وتلك التوفيقيات. وكانت هناك، في سورية الإغريقية – الرومانية، ثلاثة تقاليد عمرانية، تمازجت حيناً، وتجاورت حيناً آخر. أولاً، التقليد الآرامي للحرم، المشيد في وسط أو عند أطراف ساحة واسعة تشكل الـــ «تيمينوس» **téménos**، أو الحيز المقدس للإله. أما المعبد نفسه، فيمكن أن يكون صغير الأبعاد قياساً بالمساحة الإجمالية. ثم التقليد

مكتبة المهتدين الإسلامية

الآرامي، بل العربي أيضاً، المكان المرتفع، حيث يبنى المعبد على قمة تل أو جبل، وغالباً ما يكون عبارة عن أرض مسيجة، ولكن دون أية إنشاءات مقامة

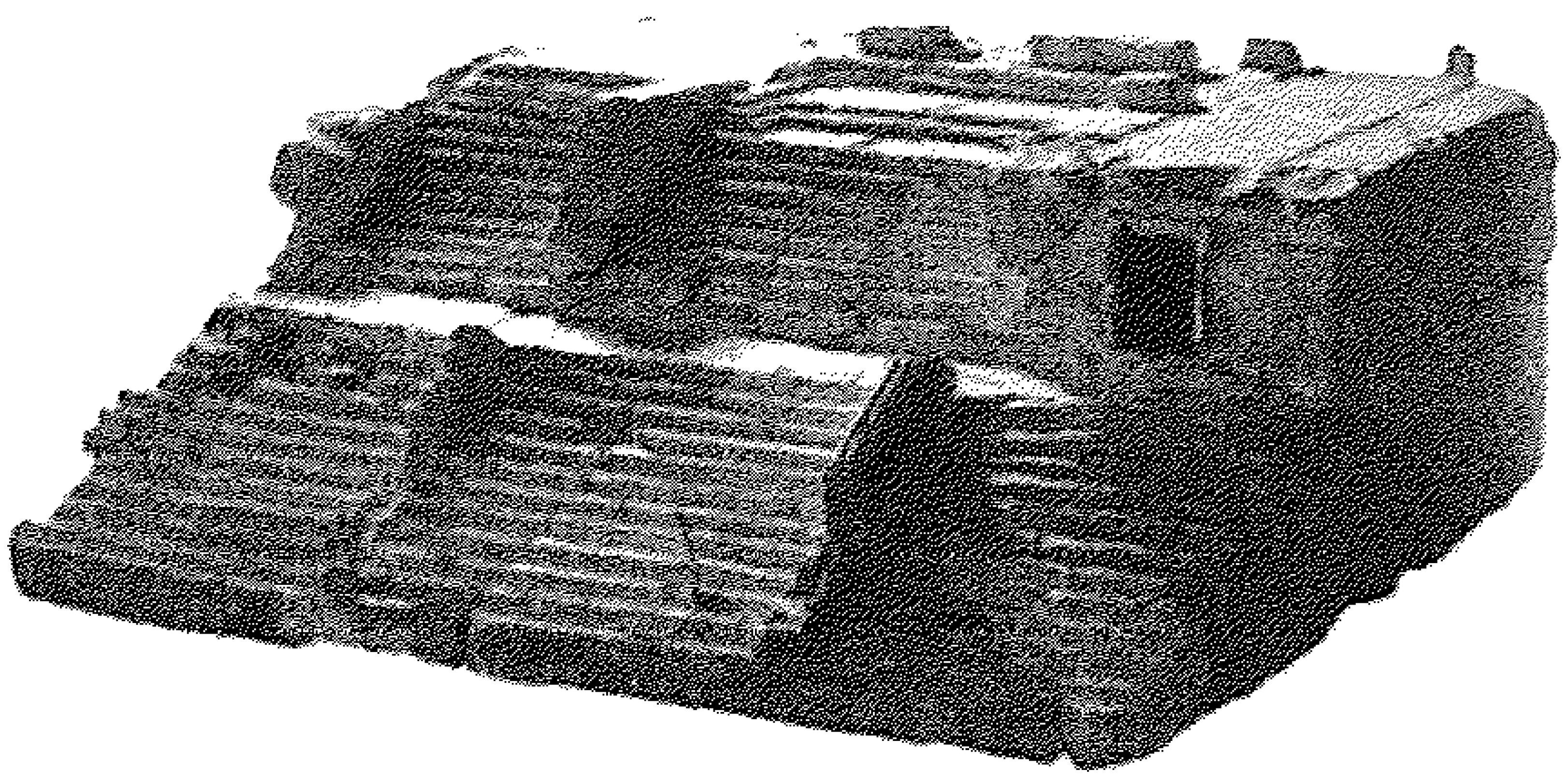

نموذج مصغر من الجير لداخل معبد نيحا، في البقاع، مع بوابة الحجرة السرية، إلى اليمين

من مواد صلبة. أخيراً، التقليد الإغريقي والروماني للمعبد، بعناصر إغريقية ورومانية مع مصلى يضم تمثال الإله، وأعمدة واجهية (معبد معمّد الواجهة) أو تحيط بالمصلى (معبد معمد). وإذا كنا لا نعرف أي حرم يعود إلى العصر الهلنستي، فهنالك بالمقابل الكثير من الأمثلة التي حفظت بشكل كامل من العصر الإمبراطوري الروماني. إلا أن بعض الأحرام اقتبس من هذه التقاليد الثلاثة أو من اثنين منها، ونعني بها المعابد السورية الكبرى، كمعبد أدد – جوبيتر في بعلبك، وبل في تدمر، وأدد – زيوس في دمشق، أو أيضاً الأحرام الريفية الكثيرة جداً في الجبل اللبناني، وفي الكتلة الكلسية شمالاً وفي حوران جنوباً. ويكفينا، فالتعداد قد يكون مملاً، أن نذكر بعض الأمثلة التي تشير إلى تنوع الحلول التي اختاروها في هذا الإطار.

http://www.al-maktabeh.com

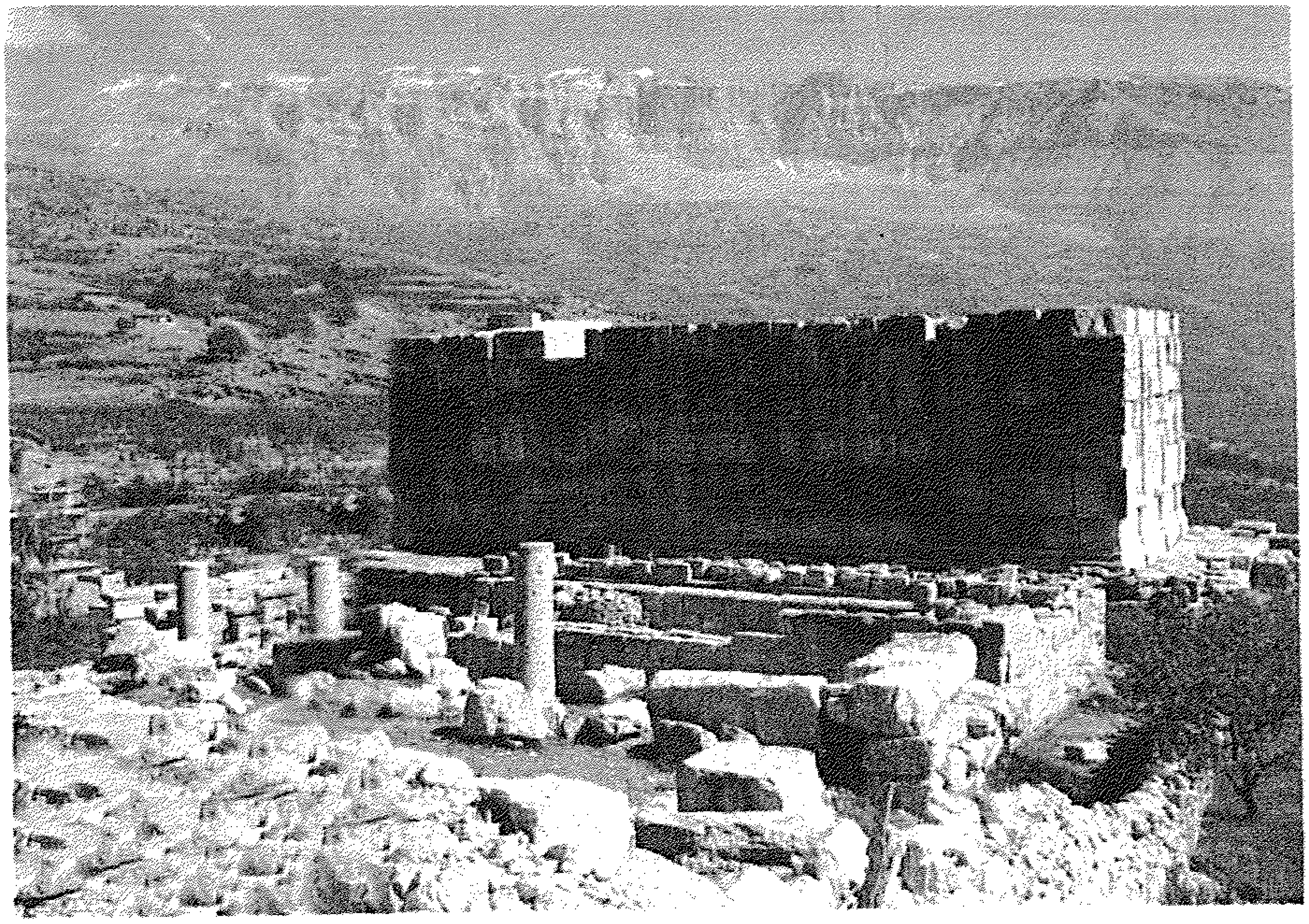

على ارتفاع يزيد عن ١٠٠٠ م، احرام السفيرة الثلاثة، ولا بد انها اشتملت على عبادة ثالوثية توضح لنا التسجيلات الأثرية عنصرين منها: جوبيتر هليوبوليس وأترغاتيس. وهناك حرم آخر على بعد كيلومتر تقريباً من هذا المكان، وخامس أيضاً ينتصب على القمة الأقرب، على ارتفاع ١٣٤٥ م.

المعابد الريفية

تعطينا معابد جبل لبنان العديد من الأمثلة حول هذه المعابد الريفية الصغيرة، التي بنتها الجماعات القروية على شرف آلهتها الحامية. وينتصب الكثير منها على مواقع مرتفعة، كما في السفيرة. ولكن، لم تتبن جميعها هذا النموذج الذي يجثم على مكان مرتفع، غير أنها تنطوي جميعها على الكثير من السمات المشتركة. أولاً، هناك سور واسع للمعبد، غالباً ما يتميز بصف عادي

مكتبة المهتدين الإسلامية

من الحجارة المرفوعة، وينفتح عبر باب ضخم من جهة واحدة. في الوسط، يقام المعبد بحصر المعنى، وله شكل المعبد الروماني الصغير الذي يرتقي على منصة، مع عمودين أو أربعة عواميد واجهية. في مقدمة المعبد، هناك مذبح

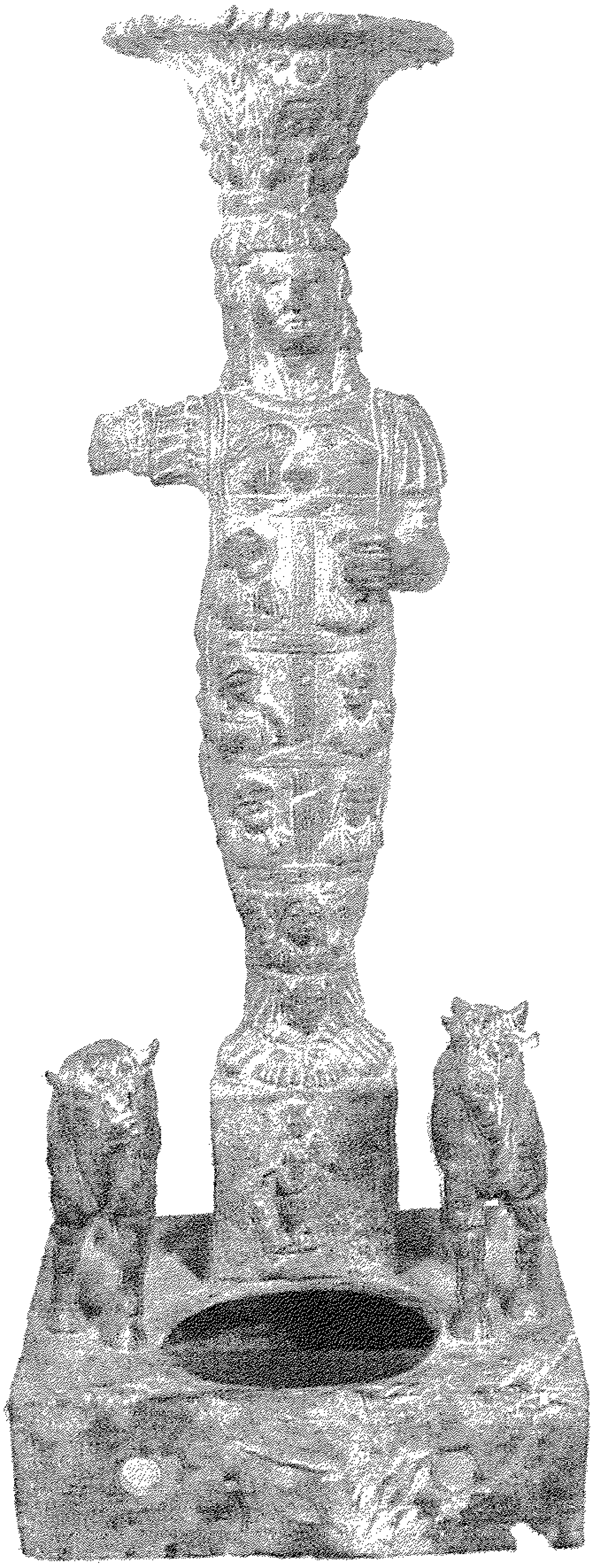

«برونز سورسوك»، تمثال صغير بارتفاع أقل من ٤٠ سم، ويمثل الشاهد الأدق عن إله بعلبك الكبير، أدد – جوبيتر هليوبوليس، سيد الخصوبة. ونراه هنا محاطاً بثورين يرمزان إلى قدرته في السيطرة على قوى الطبيعة، وقد اعتمر قبعة البولو وارتدى ثوبه الصلب الطويل المزدان بتماثيل نصفية. وكان هاتف وحيه الإلهي موضع تثمين كبير، وقد استشاره ترايانوس بشكل خاص عام ١١٣.

http://www.al-maktabeh.com

ضخم للأضحيات والقرابين؛ ويتم الدخول إليه بواسطة درج أو عبر سلم خشبي. وعند الدخول إلى المعبد، تغدو السمات الإغريقية - الرومانية قليلة جداً. يضم طرف المصلى، ذي الصحن الوحيد غالباً جداً، هناك منصة يمكن الوصول إليها من خلال درج عريض؛ وتحت هذه المنصة، توجد الحجرة السرية **adyton**، «قدس الأقداس»، التي تحفظ فيها الأشياء المقدسة، التي يجب أن لا تقع تحت أنظار المؤمنين. وفي مدخل المعبد، المشيد بثخانة جدار، هناك درج يفضي إلى السطح حيث يجري بعض الاحتفالات.

هذه التجهيزات موجودة في كل مكان تقريباً، مع بعض التغيرات. وهكذا، في معبد مدبا شخوس زيوس **Madbachos Zeus (Zeus Autel)**، في جبل الشيخ بركات في سورية الشمالية، والمشيد على قمة عالية، أو في المشنف في سورية الجنوبية. وفي بعض الأحيان، احتفظت هذه المعابد، المزينة بزخارف إغريقية - رومانية، ببعض البنى القديمة. وهكذا، تشير نقود من جبيل إلى معبد لعشتروت بباحة فسيحة تنتصب فيها ركيزة الإلهة. في بصرى، تظهر نقود من بداية القرن الميلادي الثالث المنصة الخشبية، التي يمكن الوصول إليها بوساطة سلم، وتتصدرها النصب الثلاثة، **دوشاره** واللات والعزى. هل كان هناك معبد شيد على الطريقة الرومانية ليضم المنصة؟. لا نعرف، غير أنهم اختاروا إظهار الأشياء العبادية، وليس المبنى. في تدمر، في معبد بعلشمين، الذي تم إدراجه ضمن مجموعة من الباحات، كانت هنالك أيضاً مظلة عرش قديمة كانت توضع تحتها صورة الإله.

المعابد المدينية الكبرى:

بعلبك وتدمر

كان معبد بعلبك الكبير قائماً منذ العصر الهلنستي، ولكن لا يتوفر منه في الوقت الحاضر أي أثر. وقد ضم ضمن مجموعة البناء نفسها معبداً لجوبيتر ومعبداً لإله آخر غير معروف (ليس باخس، رغم التسمية التقليدية).

مكتبة المهتدين الإسلامية

وتشير تصويرات جوبيتر هليوبوليس بوضوح إلى أنه لم يكن سيد الكابيتول، بل إلهاً محلياً، هو أدد بالتأكيد. ويبدو محصوراً في ثوب ضيق جداً، ورأسه

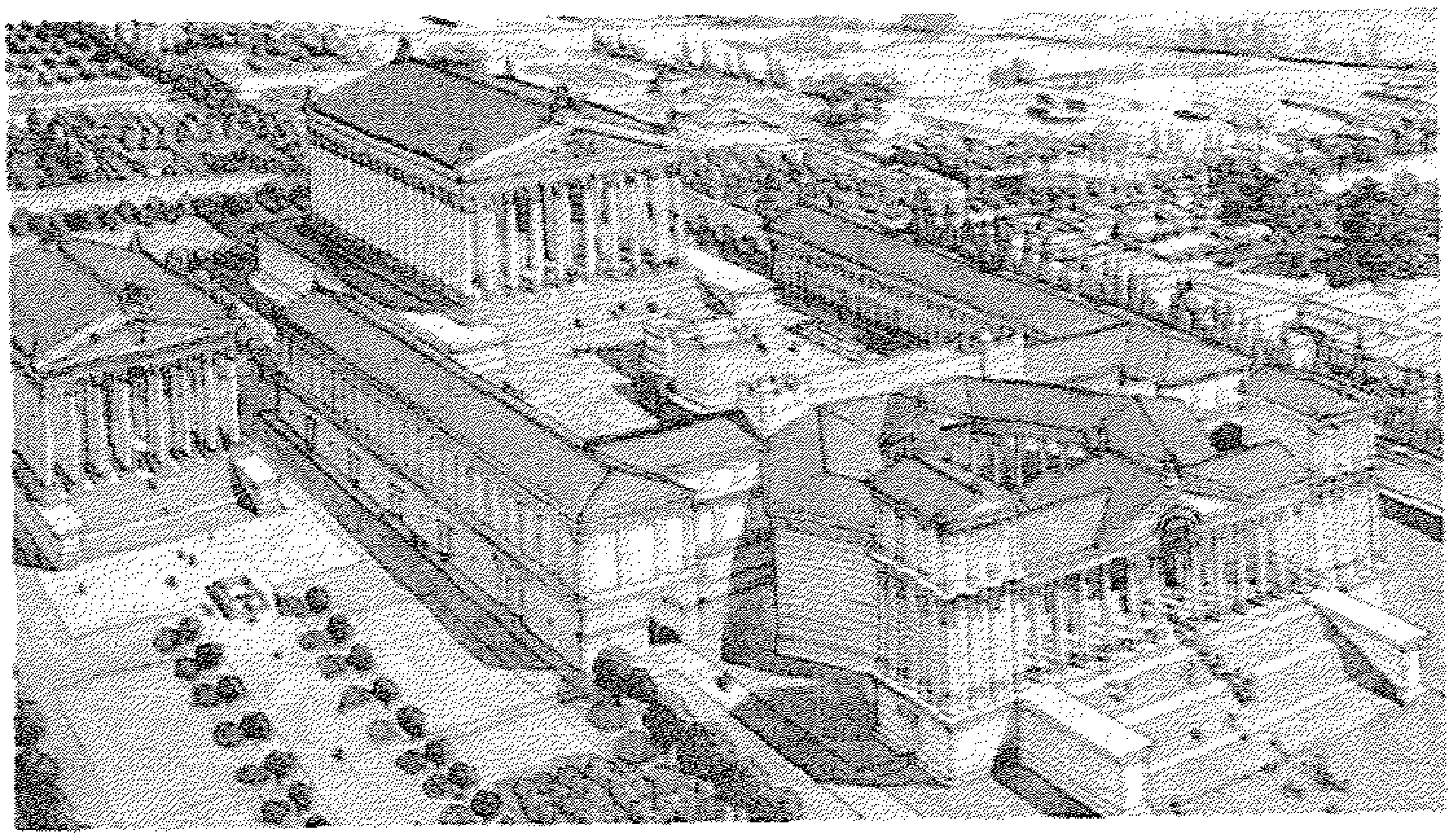

مزج معبد جوبيتر في بعلبك (صورة تركيبية له) بين التقاليد المعمارية السامية والإغريقية – الرومانية وفق تنسيق نجده في العديد من الأحرام الأخرى في الشرق الأوسط. ونجد معبد بعلة بيبلوس، المصورة على هذه القطعة النقدية (في الأسفل)، تقرن معبداً إغريقياً – رومانياً بباحة يقوم فيها النصب (بيت الإله)

مغطى بقبعة منفرجة واسعة. أما المعبد نفسه، الذي بني بين عهدي أوغسطس وفيليب العربي(٥٥)، فيتألف من عدة مبان ضخمة قاومت الزلازل. تنتمي بعلبك دون جدال إلى الفن الإغريقي – الروماني من حيث بنية المعبد المعمّد، واختيار الزخارف، والبوديوم والمداخل. إلا أن فيه بنية محلية، بمذابحه البرجية، وأحواض مائه وترتيبه الداخلي: يضم مصلى المعبد المسمى معبد باخوس(٥٦) والحجرة السرية السورية التقليدية.

http://www.al-maktabeh.com

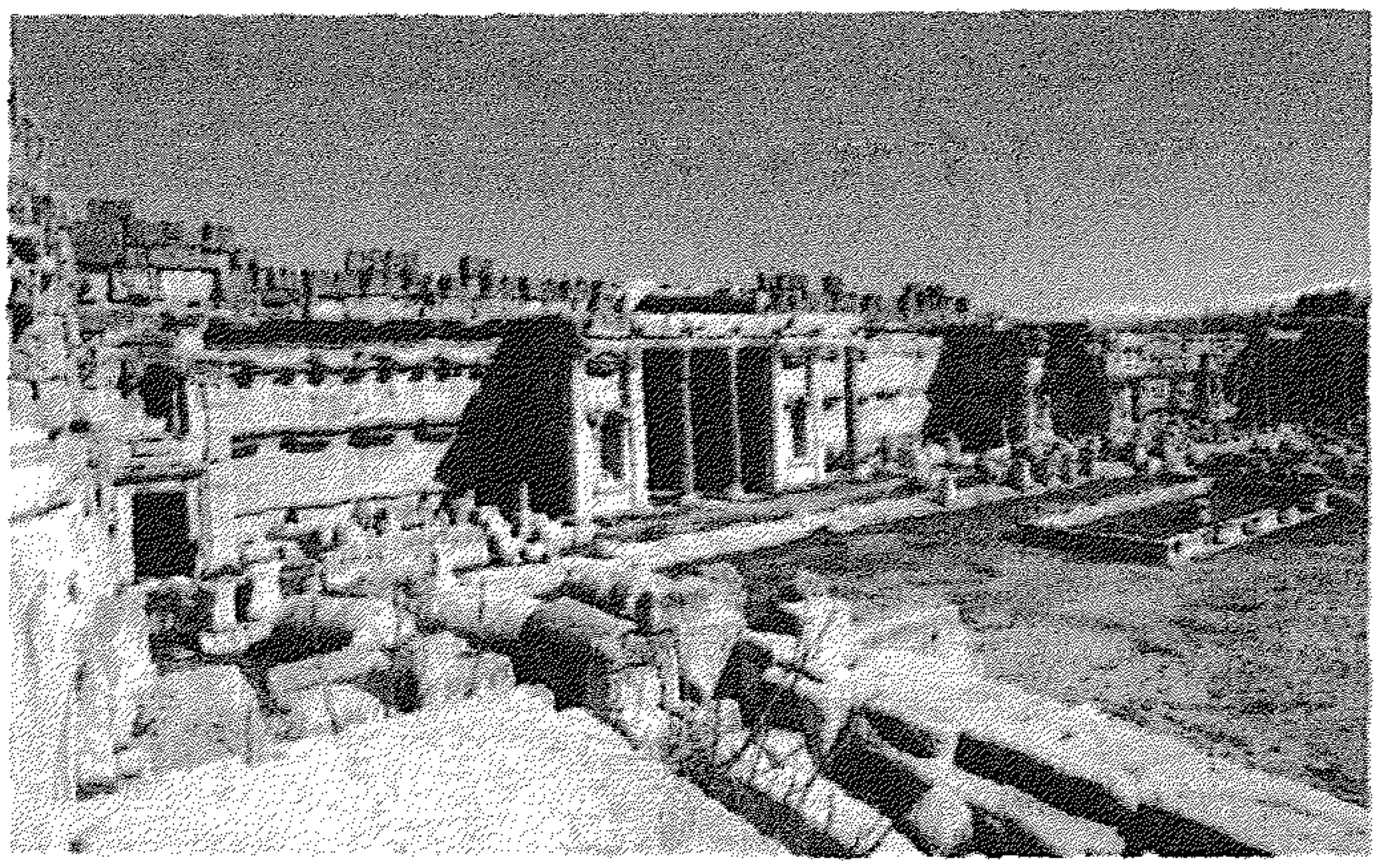

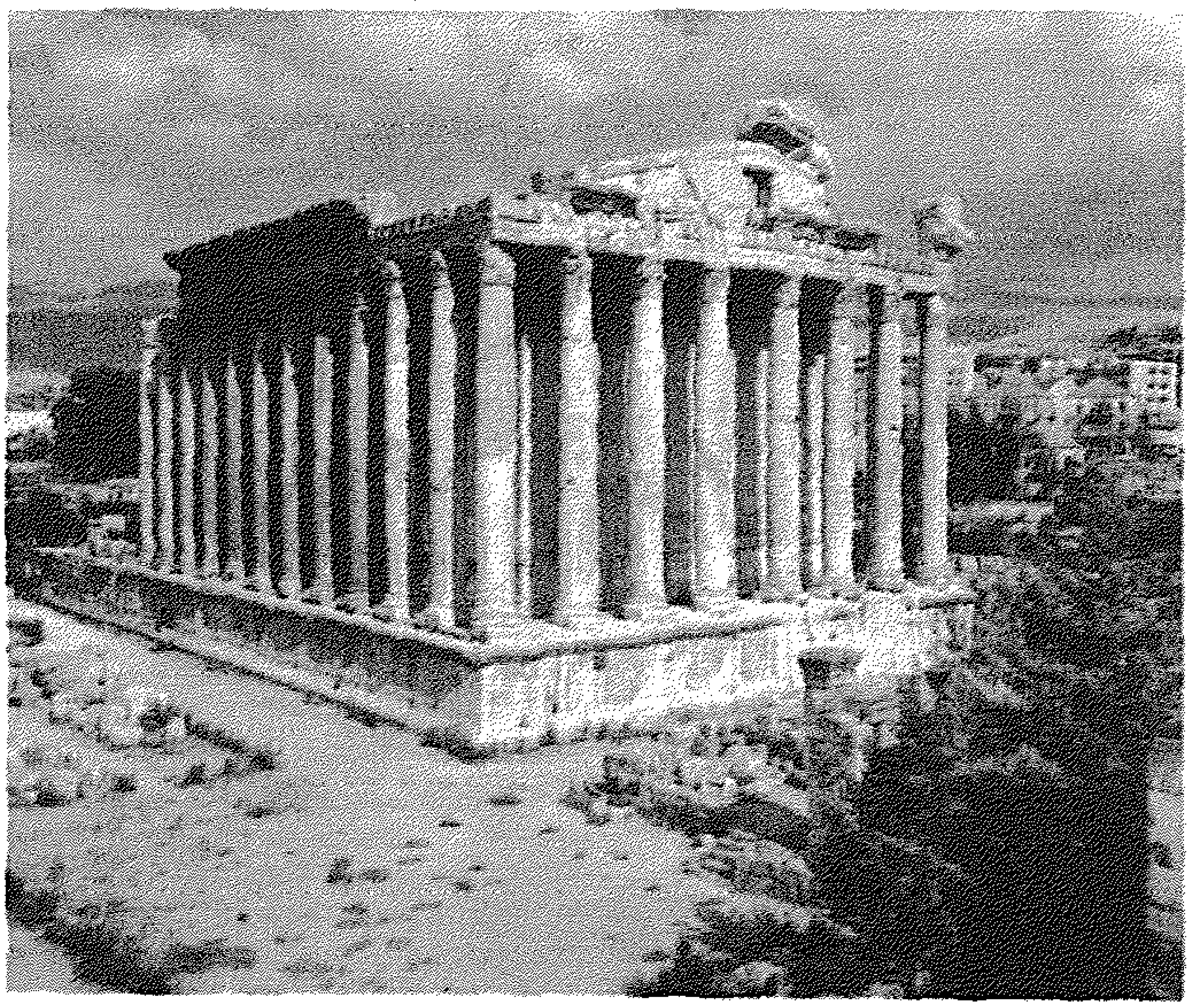

في مجمع معابد بعلبك – هليوبوليس الآبدي، تبدو حتى اليوم آثار دالة على عملقة هذا الحرم الاستثنائي القديم. وقد ضمت باحة معبد جوبيتر الكبيرة (الصورة في الأعلى)، المحاطة بالأروقة وأماكن الاستراحة، حوضي ماء تطهير كبيرين (بقي أحدهما ظاهراً للعيان هنا) ومذبحين برجيين يمكن الوصول إليهما بواسطة درج داخلي. في الجنوب، وإلى الأسفل، ينتصب المعبد المسمى معبد باخوس (الصورة في الأسفل)، وهنا صورة لواجهته الخلفية، وقد بني على ما يظهر وفق النموذج الكلاسيكي للمعابد الرومانية المعمدة على بوديوم. في الواقع، يؤكد التنسيق الداخلي للمعبد، مع الحجرة السرية تحت المصلى، أن المعبد هو معبد إله محلي أياً كان الاسم الروماني الذي أعطي له فيما بعد وأياً كانت الزخارف الإغريقية – الرومانية الموجودة فيه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في تدمر، معبد بل شيد في ٦ نيسان من السنة الميلادية الثانية والثلاثين. وكان قد بدىء ببنائه قبل ذلك بسنوات، ربما خلال ضم المدينة إلى الإمبراطورية في العام ١٩. إلا أنه لم يكن قد اكتمل عام ٣٢، فأروقة الباحة لم تشيد قبل عهد هادريانس[٥٧]. وتجلى مجمل البناء كرباعي أضلاع بطول ٢٠٠م من الجانب، منفتحاً على الغرب بمداخل. كان المعبد، السابق للمدينة الرومانية، متجهاً نحو المدينة الهلنستية، الواقعة إلى الجنوب قليلاً.

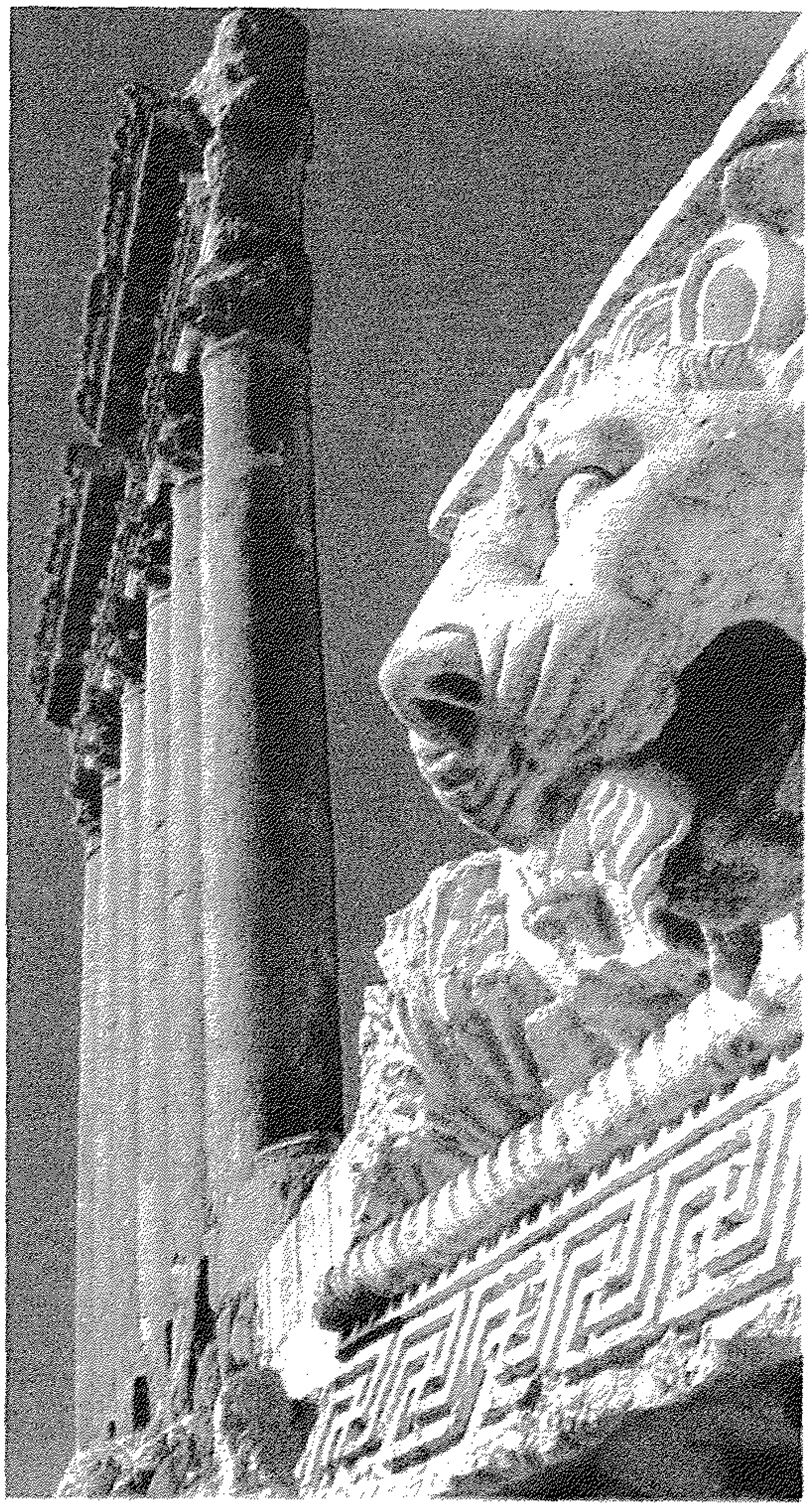

بقي من معبد جوبيتر ستة من تسعة عشر عموداً بارتفاع ٢٠ متراً والتي كانت تراصف جانبه الجنوبي. وفي أعلاها، بارتفاع ٥ أمتار أخرى، استقر ساكف تميز بزخارف غزيرة ذات أشكال هندسية وموضوعات نباتية تتخللها رؤوس أسود.

http://www.al-maktabeh.com

في الباحة، لم تعد تبقى سوى بقايا مسوّاة، حيث كانت تقام الولائم المقدسة. وكان المعبد ينتصب في الوسط تقريباً، بادياً بوجه مميز فريد. وكان المصلى المستطيل الطويل محاطاً بأعمدة على الطريقة الرومانية، غير أن صفاً من الشُرّافات، على النمط «البارثي»، كان يحاذي السقف المسطح. إنه مزيج من المؤثرات التي تعبر بشكل كاف عن المشهد التركيبي للصرح. ولا بد أن الباب كان موجوداً في الأصل على الجانب الجنوبي الصغير، غير أنه نقل إلى الجانب الغربي، حيث لزم إحداث منحدر للدخول. في الداخل، على طرفي المصلى، كانت هناك مشكاتان مرتفعتان تضمان صور ورموز الآلهة.

على هذه الرافدة التدمرية، صورت ثلاث نساء محجبات وهن يسرن خلف جمل ينقل نصباً لإله وأشياء أخرى مقدسة حجبت عن أنظار المؤمنين تحت مظلة (قبة) مغطاة بالقماش. وربما كان الأمر يتعلق بالطواف السنوي المعتاد أو بطقس له علاقة بتشييد معبد.

وعلى سقف المشكاة الشمالية، نحتت صورة لدائرة البروج. وفي الزوايا الجنوبية، كان هناك درجان يفضيان إلى السطح.

في تدمر، وأكثر من بعلبك، بدا الالتزام بالتقاليد المحلية جلياً، ولا نعرف بعد لماذا تم نقل الباب؛ وهذه المعبد هو الوحيد الذي ظهر فيه عنصر متماثل بمشكاتين عباديتين متقابلتين. ولكن من الواضح أن الزخرفة نفسها لا تمت بالكثير إلى الفن الإغريقي – الروماني، باستثناء الأعمدة والتيجان الكورنثية. لم تنتم صالة الوليمة، ولا التنظيم العبادي، إلى التقليد الإغريقي –

مكتبة المهتدين الإسلامية

الروماني، وإذا كان أمكن تصوير الآلهة على شكل جنود رومانيين، أو عراة، فيجب ألا يخدعنا ذلك: إنها من آلهة أجداد الواحة.

في تدمر، حرم بل، هنا الواجهة الغربية، ينتصب في الطرف الشرقي من المدينة، قرب بستان النخيل الذي كان يؤمن قوت حياة السكان اليومية. وبعد أن حل محل حرم أقدم، وُجّه نحو المدينة الهلنستية، مشكلاً بذلك مع محور المدينة الرومانية زاوية بخمس وأربعين درجة. أما المعبد بدقيق العبارة، فيوجد في وسط باحة فسيحة تحيط بها أروقة. ويمزج بين ملامح إغريقية – رومانية كالقاعدة ذات الأدراج والأعمدة والعناصر المحلية أو الوافدة من ما بين النهرين، كالفتحة في جانب المبنى الطويل أو السطح المستوي المحاط بالشُرّافات المثلثية الشكل.

http://www.al-maktabeh.com

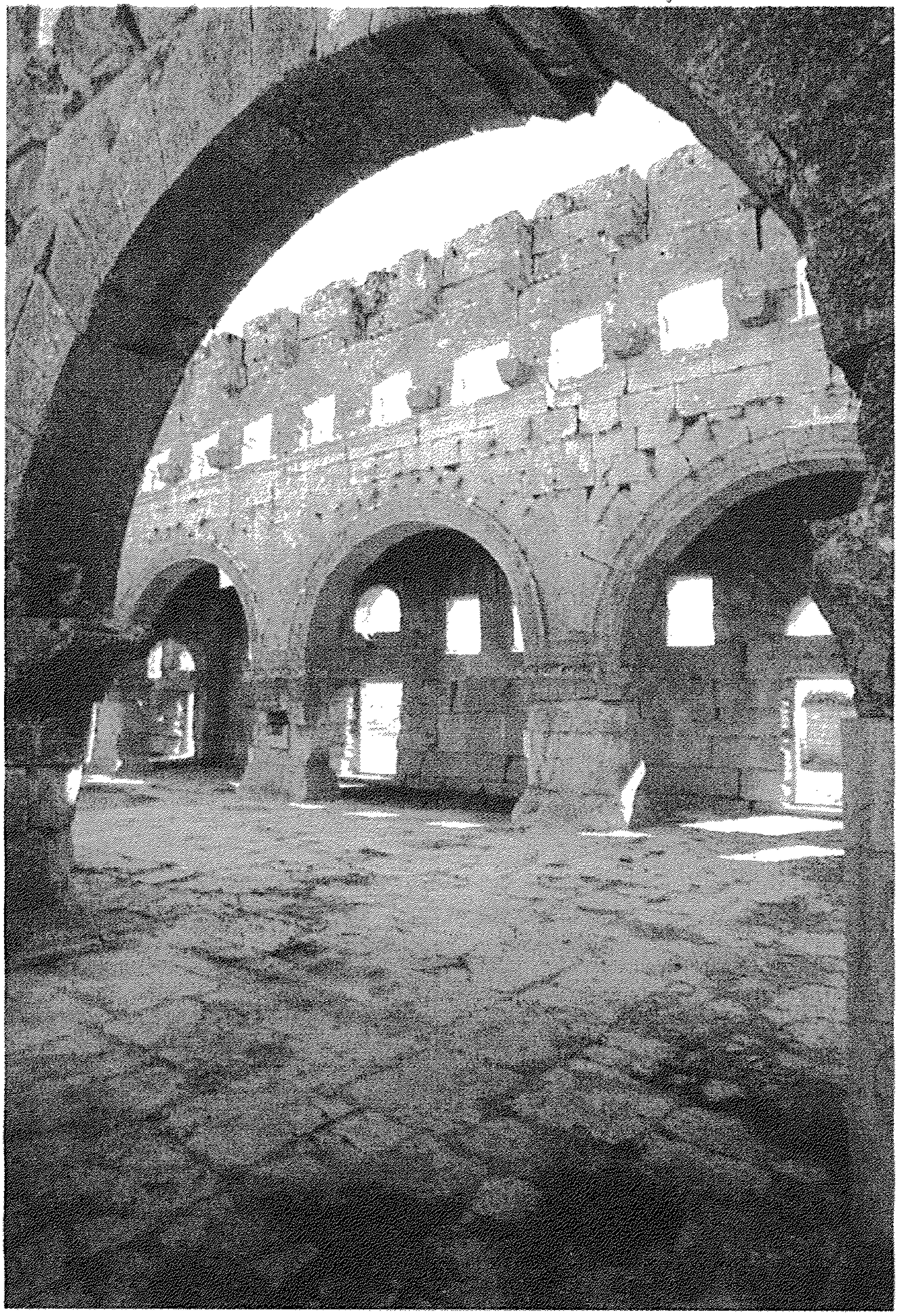

ما يزال عدد من الكنائس القروية، هنا كنيسة قلب لوزي، قائما في حالة جيدة. كان الخوروس منفصلاً عن الصحن بحاجز حجري، مزين أحياناً بعناصر زخرفية كما في رسم القنافذ Rasm el-Qanafez (منطقة حمص).

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل السادس

سورية المسيحية

احتفظت سورية، القريبة من أماكن ظهور الديانات التوحيدية الكبرى، بعلاقات وثيقة مع اليهودية(٥٨). تفسر إقامة اليهود في العديد من مدنها الكبرى، مثل أنطاكية، سبب نمو البعثة المسيحية فيها منذ وقت مبكر جداً. وبنتيجة عدائية اليهود، التفت بولس وأتباعه نحو الوثنيين الذين اعتنق الكثيرون منهم المسيحية. وقبل نهاية القرن الأول، كانت هناك جماعات تقوم في أنطاكية وفي المدن السورية الرئيسية دون شك.

عنصر زخرفي في رسم القنافذ، حيث صور الفنان بسذاجة عبادة الملوك المجوس السائرين باهتداء النجم حتى العذراء وعلى ركبتيها الطفل يسوع

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجماعات اليهودية

آوت سورية، منذ وقت مبكر جداً، جماعة توحيدية، اليهود. وقد زعم هؤلاء أنهم جاؤوا إلى أنطاكية منذ بدايات المدينة، وهو ما ليس مستحيلاً، ولا مؤكداً. بالمقابل، وجد يهود بشكل مؤكد في حوران قبل منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. أعادهم يهوذا المكابي إلى الوطن، ولكن ما لبثوا أن غادروا دون شك. في بداية العصر الإمبراطوري، وجدت جماعات يهودية في أنطاكية، ودمشق، وأفاميا، ولاودقية، وصور وصيدا. ومن غير المشكوك فيه أن يكونوا قد وجدوا في كل المدن التي تتمتع بأهمية ما. تضاف إلى ذلك بعض الجماعات الريفية في سورية الجنوبية، في حوران والجولان، بينهم مستوطنون عسكريون عمل الهيروديون على إسكانهم هنا عندما أوكل إليهم الرومان أمور المنطقة ليكافحوا فيها أعمال قطع الطرق.

تشكل رسوم كنيس دورا أوروبوس مجموعة استثنائية من حيث حجمها: تتقاسم حيز المعبد أربعة أفاريز زخرفية، في حين يزين السقف أربعمائة وخمسون مربعاً من الآجر المرسوم. ونميز في الأجزاء التي بقيت محفوظة أكثر مشاهد العهد القديم شهرة. وتهيمن قامة موسى على العبور من البحر الأحمر.

http://www.al-maktabeh.com

وكان على هذه الجماعات أن تعاني من تمرد الأعوام ٦٦-٧٠ (ضد الرومان)، إذ ظهر سكان المدن معادين بشكل طبيعي. مع ذلك، استمرت حيث هي، ومن المحتمل أنها ازدادت عدداً. في الواقع، أفاد تشتت يهود منطقة اليهودية عام ٧٠، ثم مرة أخرى عام ١٣٥ بعد ثورة بار كوخبا[٥٩]، أفاد الجماعات اليهودية القريبة، في سورية وفي ما بين النهرين على حد سواء. كانت جماعة دورا أوروبوس موجودة منذ وقت مبكر، إذ كان الكثير من اليهود قد وجدوا ملجأً لهم خارج الإمبراطورية، وتلك كانت الحال في دورا أوروبوس حتى عام ١٦٥.

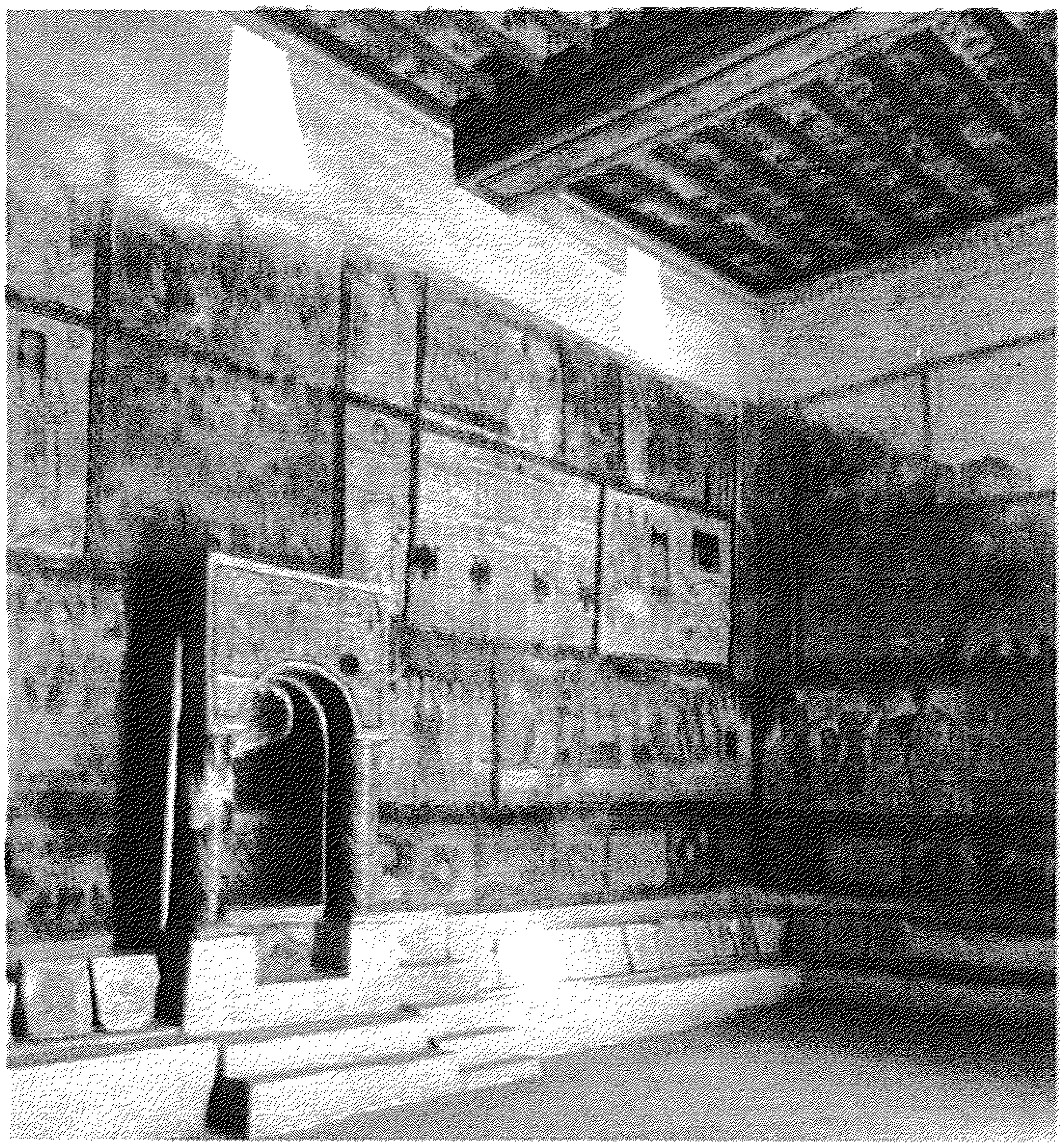

الأحـداث التوراتـية مرسـومة علـى الأفاريـز الزخرفية (رؤيا يعقوب، داود، واستيلاء الفلسـطينيين علـى تـابوت العهد، إبراهيم، وحزقيال، وخيمة تابوت العهد، وحكمة سليمان...)، وقد تم تحديدها من خلال التسجيلات. في الوسط، مشكاة التوراه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

من المؤكد أنه لا يوجد شيء كثير نستطيع قوله حول هؤلاء اليهود، الذين كانوا يترددون بسهولة إلى القدس قبل تدمير المعبد عام ٧٠، ثم إلى مراكز الحياة اليهودية في الجليل لاحقاً، لولا الوقوع على اكتشاف مذهل استرعى الانتباه حولهم. في الواقع، خلال التنقيبات القديمة في دورا أوروبوس، وُجه جهد خاص إلى المنازل الواقعة بطول الأسوار. كانت هذه المنازل قد سويت وملئت بالأنقاض لتشكيل منحدر يعزز السور الداخلي. ولكن، وجد بين هذه المساكن منزل خاص تم إعداده ككنيس: القاعة الرئيسية مرسومة بالكامل، بما في ذلك السقف. وخلافاً لكل القواعد الحاخامية، تمثل هذه الرسوم مشاهد من التوراة وتصور شخصيات وحيوانات. ويبدو أن حظر تصوير الكائنات الحية لم يكن عادة دارجة بين جماعة دورا أوروبوس اليهودية. ويعطينا ذلك مثالاً بارزاً عن الرسوم الجدارية في منتصف القرن الثالث، في مدينة شهد فيها هذا الفن ازدهاراً، وفي معبد الجاديين، ومعابد ميترا، وفي بيت المسيحيين.

بعد استيلاء الفرس على المدينة، تشتت الجماعة، كبقية سكان دورا أوروبوس، عام ٢٥٦. ولكن بقي منهم بعض التجمعات في كل مكان: في أنطاكية، في نهاية القرن الرابع، تفجر البطريرك يوحنا فم الذهب بالغضب على المسيحيين الذين كانوا يترددون إلى المعابد اليهودية خلال الأعياد اليهودية الرئيسية، بعد أن كان يستميلهم ألق الاحتفالات؛ وكان الخطيب اليوناني ليبانيوس[٦٠] (٣١٤ – ٣٩٣) يمتلك أراضي في أنطاكية ويزرعها فلاحون يهود. ولكن، خارج هذه التنويهات المبعثرة، لا أحد يعرف جيداً يهود سورية، حيث لا توجد لهم آثار تشير إليهم وإلى وجودهم فيها.

http://www.al-maktabeh.com

بدايات المسيحية (دمشق، أنطاكية)

إن وجود جماعة يهودية في دمشق هو الذي ربط بشكل مباشر هذه المدينة بالبدايات المسيحية، ذلك أن اليهودي شاول (بولس) كان قد اهتدى إلى الدين الجديد حين توجهه إلى هذه المدينة. ولما أضحى اسمه بولس، التجأ إلى مؤيديه في دمشق، وتحتفظ كنيسة حنانيا بذكرى هذه الواقعة؛ وتحيي كنيسة أخرى أقيمت في برج السور القروسطي بهروب بولس خفيةً، بعد أن نزل في سلة بطول الجدار المحيط بالمدينة. وفي أنطاكية، أدرك بولس أهمية هداية الوثنيين أيضاً، وهنا لأول مرة كما تقول «أعمال الرسل»، أطلق على المؤمنين بيسوع اسم «المسيحيين».

بولس (مصوراً على لوح غلافي من العاج أنجزت في سورية في القرن السادس أو السابع) مرتبط ارتباطاً مباشراً بتاريخ المسيحية السورية. بعد أن اهتدى على طريق دمشق، تخلى بعد تفكير عن هدي اليهود وفضل التوجه أولاً إلى أنطاكية لإقناع الوثنيين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وبغض النظر عن سير القديسين التي تعزو تأسيس كنائس سورية إلى رسل أو تلاميذ من الأزمنة الرسولية، فإن من المحتمل أن تكون جماعات مسيحية قد وجدت في بعض المدن منذ منتصف القرن الأول. وفي نهاية القرن الثاني، أو بداية الثالث، لوحظ نشوء تراتبية أسقفية في المدن، وربما في وقت أبكر في المدن الكبرى، مثل أنطاكية، حيث أنه كان الأسقف أغناطيوس الأنطاكي قد أرسل إلى روما لإعدامه فيها عام ١١٥. وفي بصرى، أول أسقف مؤكد تاريخياً هو بيريليوس، في بداية القرن الثالث، وقد التقى بأوريجنس (شارح كتب مقدسة). وربما كان أوريجينس نفسه قد استدعي إلى أنطاكية للتحادث فيها عن الدين الجديد مع الإمبراطورة جوليا دومنا[٦١]. وتفيد حكاية راسخة أن الإمبراطور فيليب العربي كان مسيحياً.

فيليب العربي، المولود جنوب سورية، الذي اعتبروه مسيحياً، وهو اعتبار خاطىء، بالتأكيد، ولو أن المسيحيين لم يتعرضوا في ظل حكمه لأية ملاحقة خاصة.

http://www.al-maktabeh.com

وقد ظهر أول بيت مسيحي قبل عام ٢٥٠، في دورا أوروبوس، ليس بعيداً عن الكنيس، وبقي محفوظاً ضمن ظروفه نفسها. ويشير هذا البيت إلى أن جماعات منظمة قد وجدت في كل مكان تقريباً، إلا أن أماكن اجتماعاتها كانت ما تزال منازل خاصة، رتبت وفقاً للحاجات، مع بيت العماد مثلاً.

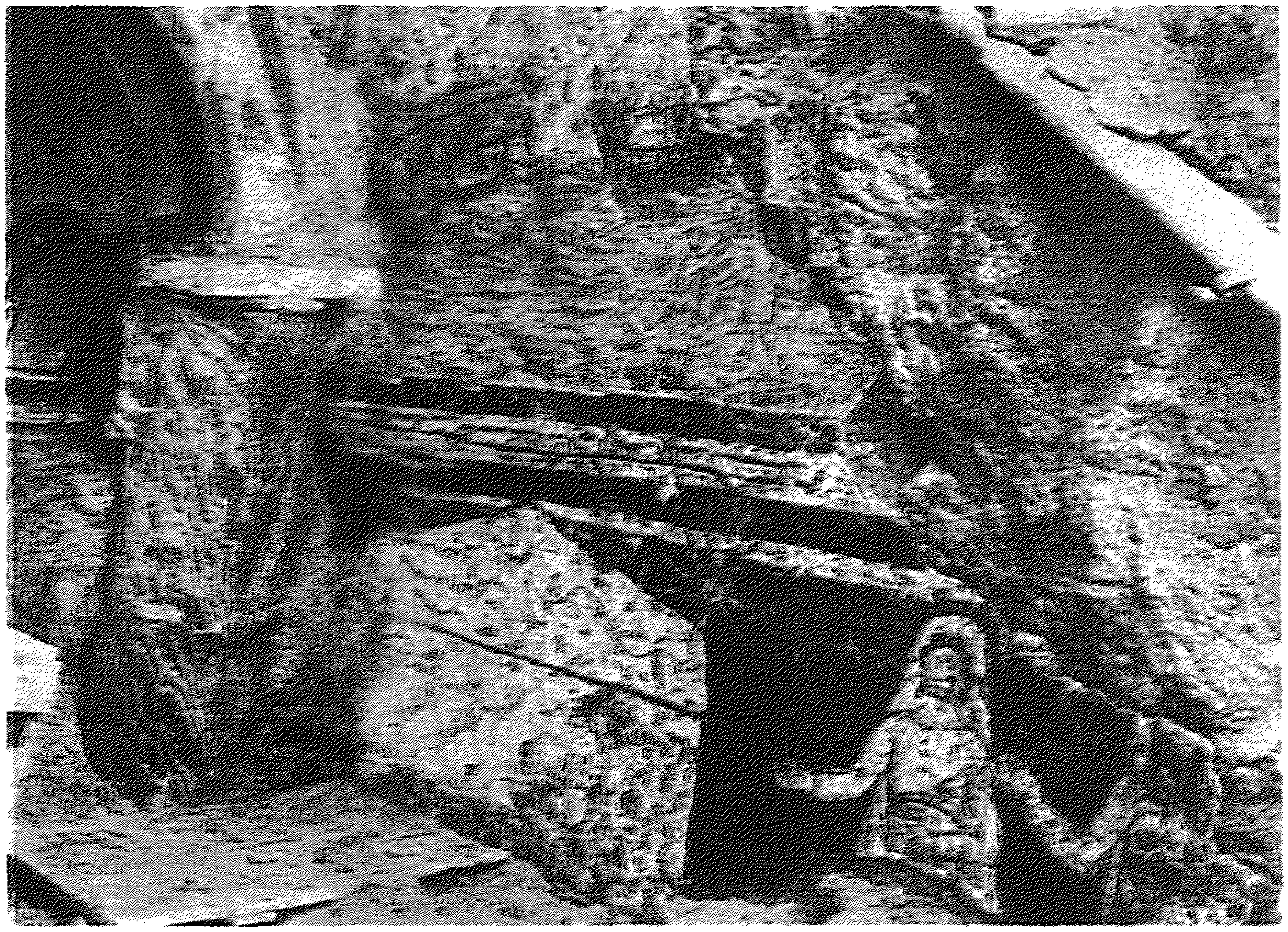

يدل بيت المسيحيين في دورا أوروبوس على وجود جماعة مسيحية مزدهرة ولو أنها قليلة العدد، كانت قادرة على شراء بيت خاص لتحويله إلى مكان اجتماعات مع قاعة للصلاة والعماد؛ بل إن الزخرفة المرسومة تشير إلى وجود يسر معيشي بقدر ما وإلى ذوق زخرفي تقاسمه المسيحيون مع اليهود والوثنيين في المدينة التي كان ينطوي العديد من معابدها على رسوم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عانى مسيحيو سورية، مثلما حدث لهم إبان الاضطهادات العامة الأولى، اضطهاد فترة ٢٥١-٢٦٠، ثم الاضطهاد الكبير لفترة ٣٠٣-٣١٢. إلا أن تطورات التنصير لم تتعثر كثيراً، لأن القمع شهد فترات من التوقف. ومع سلام الكنيسة، استمر الاعتناق، ولكن يجب أن لا نتصور أن سورية كلها أصبحت مسيحية بسرعة. في العام ٣٦٣، قدر أسقف بصرى أن عدد الوثنيين والمسيحيين كان ما يزال متعادلاً في مدينته. وصحيح القول إن المنطقة ثارت إلى حد كبير على المسيحية: في حوران، ظهرت عدة حالات عودة لفتح معابد وثنية، عقب مرسوم يوليانس[٦٢] (الذي اتخذ في أنطاكية عام ٣٦٢)، الذي أجاز عودة الفتح هذه.

في الأصل، كان طالبو العماد يتلقون المعمودية بالتغطيس، في حوض محفور في أرضية بيت العماد. ومع مرور الزمن، تم التخلي عن هذه المراسم واكتفوا بالتعميد بالسكب، حيث راحوا يغرفون ماء العماد من حوض حجري أو آجري كهذا الحوض في الصورة، الذي كتبت عليه عبارات بالسريانية.

وضع مقتل يوليانس حداً لمحاولة الإحياء المسيحي هذه. وبعد تحريم القرابين عام ٣٩٢، تسارع تدمير المعابد رغم المقاومات التي أبداها الوثنيون: قتلوا الأسقف مارسيل الأفامي عام ٣٨٨، إبان تدمير معبد زيوس. مع ذلك، ظلت الوثنية تقاوم. وشجب يوحنا فم الذهب نجاح الأعياد الوثنية في أنطاكية في نهاية القرن الرابع، وأدان البطريرك ساويروس استمرار العديد من أماكن العبادة الوثنية في الأرياف في بداية القرن السادس؛ وفي العام ٥٨٠، لزم تسيير الجند لإغلاق معبد بعلبك.

http://www.al-maktabeh.com

المعابد المسيحية الأولى

إن لم يكن قد بقي سوى كنائس نادرة جداً من القرن الرابع، مثل كنيسة ففرتين **Fafertin** (٣٧٢)، فإن النصوص تطلعنا على الكثير منها، في صور وأنطاكيا بشكل خاص. لقد تحول عدد كبير من الأحرام الوثنية، على غرار معبد زيوس داماسكينس، الذي أصبح كنيسة القديس يوحنا المعمدان[٦٣]، أو أنها عريت من موادها، غير أن بناء الكنائس المسيحية لم يكتسب أهمية كبيرة إلا في القرن الخامس.

في سورية الجنوبية، تأكد وجود الكنائس منذ القرن الخامس، غير أن الكنائس التي بقيت هي من القرن السادس. في بصرى، كانت الكاتدرائية التي أهديت إلى القديسين سرجيوس وباخس وليونتيوس قد كرست عام ٥١٢؛ وقد بنيت وفق مخطط تربيعي مع مثمن أضلاع داخلي، وكان لا بد من تزويدها بقبة؛ وقد بقيت منها آثار هامة. هنالك كنيسة أخرى، أكبر حجماً، بالمخطط نفسه، كانت قد بنيت في حي المدينة نفسه. كان هذا النموذج من البناء ذي المخطط المركزي، على ما يبدو، رائجاً في المدن الأسقفية، إذ نعرف منها صروحاً أخرى، في أفاميا وفي مدينة زورافا (إزرع / درعا)، حيث ما تزال كنيسة القديس جرجس قائمة حتى الآن. مع تسميتها عام لعام ٥١٥ في المكان؛ وما زالت حتى الآن مكاناً للعبادة للروم الأرثوذكس.

في أفاميا، أعيدت تهيئة الكنيسة الكبيرة ذات المخطط المركزي، والتي بنيت قبل نهاية القرن الخامس وحولت إلى كاتدرائية وفق مخطط بازيليكي نحو العام ٥٣٠، وزينت بزخرفة من الفسيفسائيات في عهد الأسقف بولس (كان يمارس مهامه عام ٥٣٦). وفي الرصافة – سرجيوبوليس، أحاطت عدة مبان بكنيسة القديس سرجيوس التي قامت في وسط المدينة. ذلك دون ذكر الكنائس

مكتبة المهتدين الإسلامية

القروية التي لا تحصى، ككنيسة قلب لوزة، التي بقيت بحالة جيدة، والتي تضم أشكالاً زخرفية نجدها في أقدم الكنائس الرومانية خلال القرون اللاحقة.

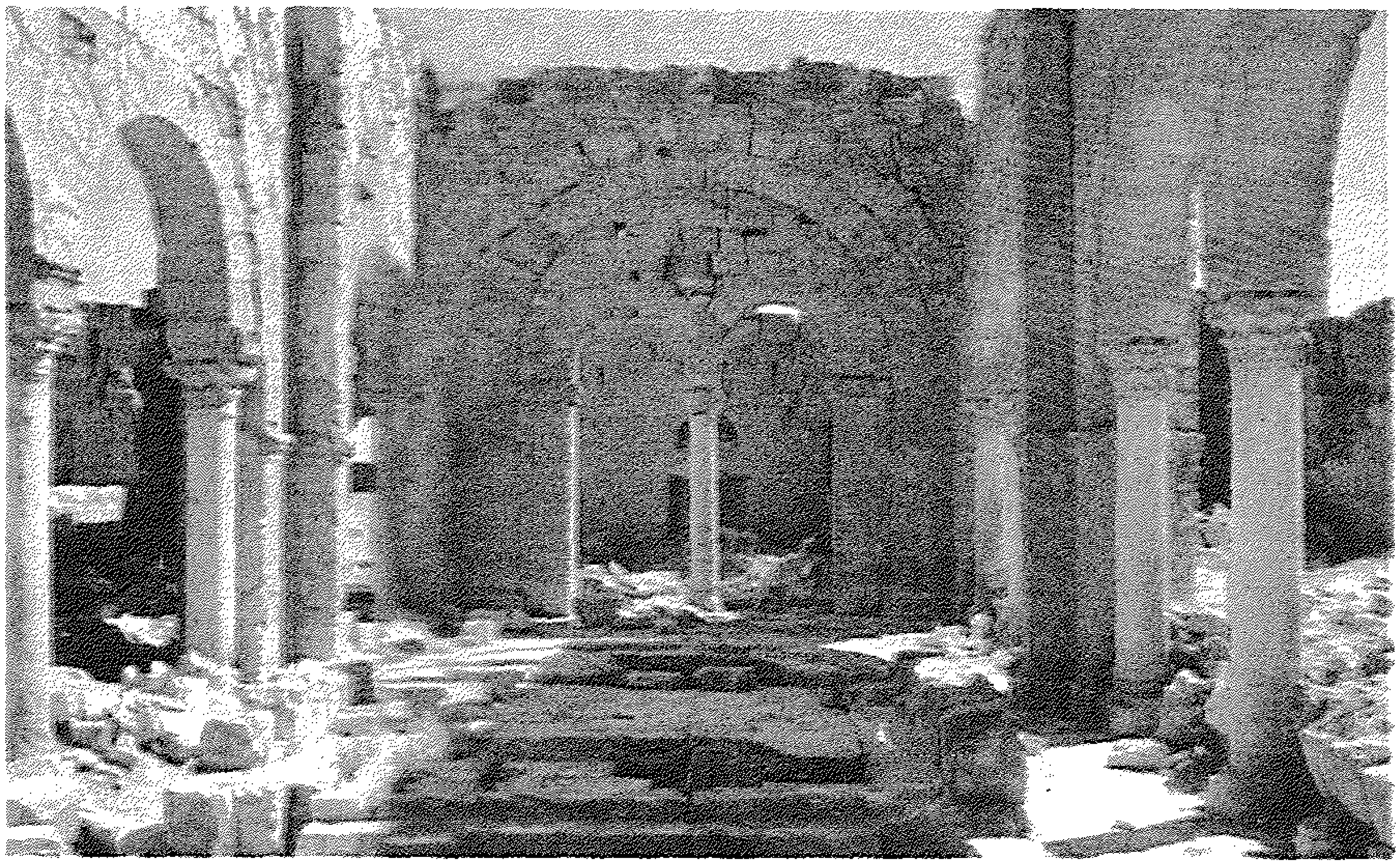

في الرصافة، تظهر الكنيسة التي كرست للقديس سرجيوس على أنها بازيليك بثلاثة صحون على أعمدة (المخطط في الأسفل). وبهذا التنظيم تتميز كنائس سورية عديدة، مع رواق شخصيات حيث نرى هنا قاعدته. وكان في هذه المنصة ذات النمط المحرابي، المفتوحة على الخوروس، رصيف ليس فقط ليجلس فيه رجال الإكليروس بل أيضاً بعض المؤمنين. في الوسط، كان منبر كنسي يستخدم كإناء عرض للكتب المقدسة أو للأيقونات المقدمة لتكريم المؤمنين.

إلا أن المجموعات الأكثر روعة تقع في الأديرة الكبيرة في سورية الشمالية، في القديس سمعان أولاً. ذلك أن سورية قد أعطت شكلاً أصلياً من الرهبانية، حيث يتنافس النساك في التضحية. وشاهد ذلك الأبرز هم المستعمدون أو العموديون (الذين كانوا يقيمون صوامعهم على الأعمدة)، ولكن كان آخرون يعيشون متوحدين في الأبراج أو يبقون شبه عراة وفي حالة سكون على قمم الجبال، صيفاً وشتاءً. وقد اجتذب مثل هؤلاء القديسين الأتباع رغماً عنهم، وأوجدوا لأنفسهم بذلك مراكز حج جديدة.

http://www.al-maktabeh.com

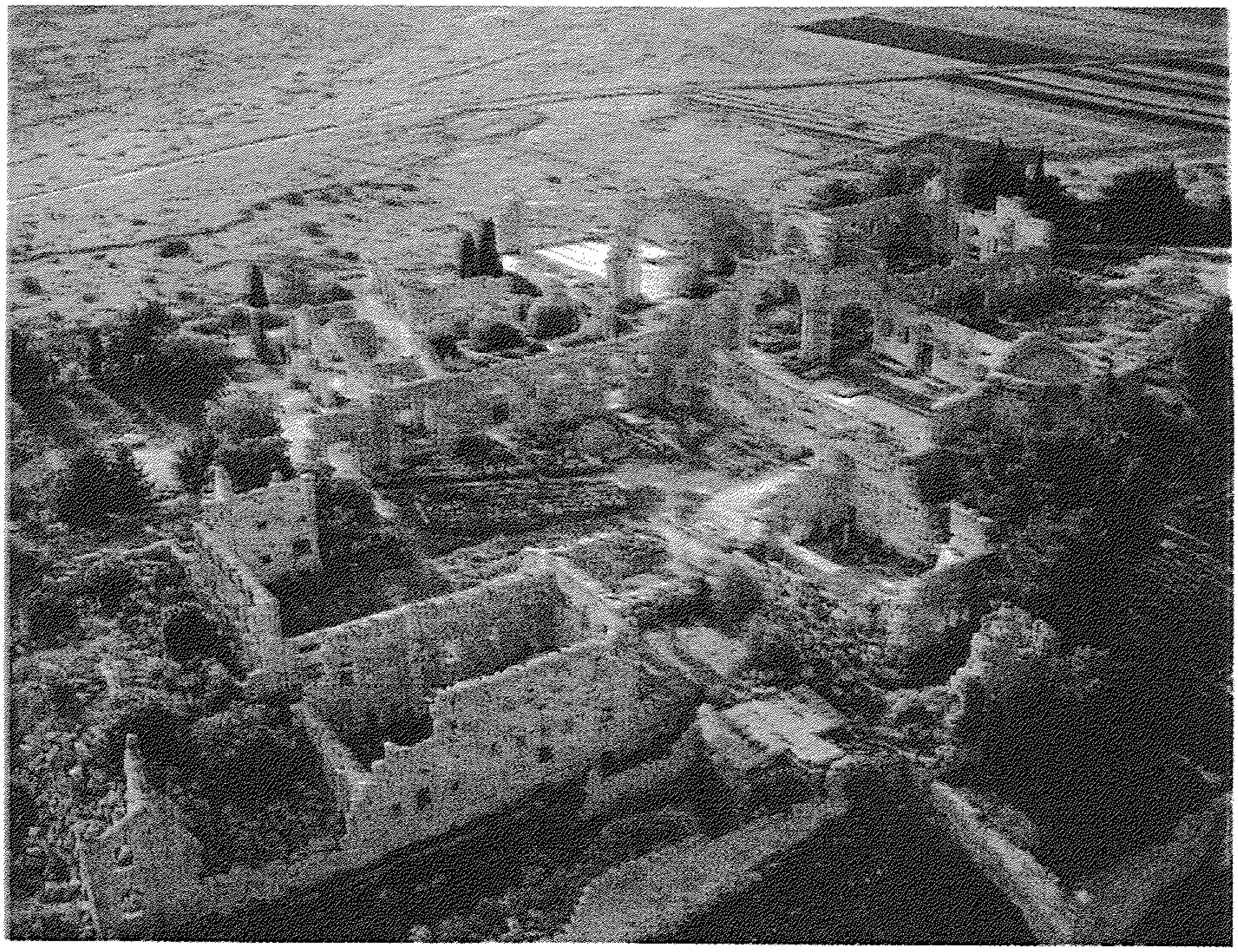

كان القديس سمعان العمودي، وعلى نحو لا يجارى، أشهر النساك السوريين. ولد نحو العام ٣٨٩ - ٣٩٠ في منطقة أنطاكية، وانضم شاباً (نحو ٤١٠ - ٤١٢) إلى جماعة رهبان تيلانيسوس، دير سمعان الحالية عند قلعة سمعان، في محاولة له للانعزال العميق، عاش وحيداً على التلة القريبة، ثم قرر، هرباً من الفضوليين والحجاج، الالتجاء إلى أعلى عمود مرتفع (١٢ إلى ١٨ م) تعلوه مصطبة صغيرة (قطر ١،٥ - ٢ م). وهنا توفي في ٢٤ تموز ٤٥٩، حيث لقي تبجيل حشود من الناس. أحرق رفاته فيما بعد في أنطاكية، ونقل إلى القسطنطينية، حيث أقيم له ديماس شهيد تكريماً له. إلا أن الحجاج ظلوا يتدفقون على المعبد الذي بني حول العمود نحو نهاية القرن الخامس. وربما كانت السلطات الإمبراطورية تشجعهم على ذلك، حيث راق لها أن تنظر بعين الرضا إلى التقى إزاء الراهب القديس فيسهو المؤمنون عن الخصومات اللاهوتية الحامية التي ظهرت حول طبيعة السيد المسيح، وهو ما كان يؤدي إلى اضطرابات وثورات.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بقيت أطلال دير القديس سمعان الفسيح رائعة رغم حالة الخراب التي أصابته. تنطلق أربعة صحون من وسطه. يزدان الصحن الجنوبي بمدخل كبير ثلاثي الكنّة والمجاز (الصورة في الأعلى). ولكل من الصحنين الغربي والشمالي صدر مستو. في الزاوية الواقعة بين الصحنين الجنوبي والشرقي كان يمتد مجمّع أبنية رهباني واسع مع صومعة ومصلى. ويشكل مجموع ذلك مشهداً جميلاً، وتنم زخارف الدير عن أصالة المزخرفين الذين وضعوا أوراق نبتة الأقنثة على تيجان الأعمدة الكورنثية. وإذا كان مجمل البناء البازيليكي قد بني دون شك بين ٤٧٤ و ٤٩١ ، فإنه لم يتم البدء ببناء الدير إلا بعد هذا التاريخ، في نفس الوقت مع بيت العماد (الصورة في الأسفل)، الذي يقع على بعد ١٥٠ متراً جنوب المبنى. ولمواجهة تدفق الحجاج، بني أخيراً نزُلان في أسفل التلة، في دير سمعان.

http://www.al-maktabeh.com

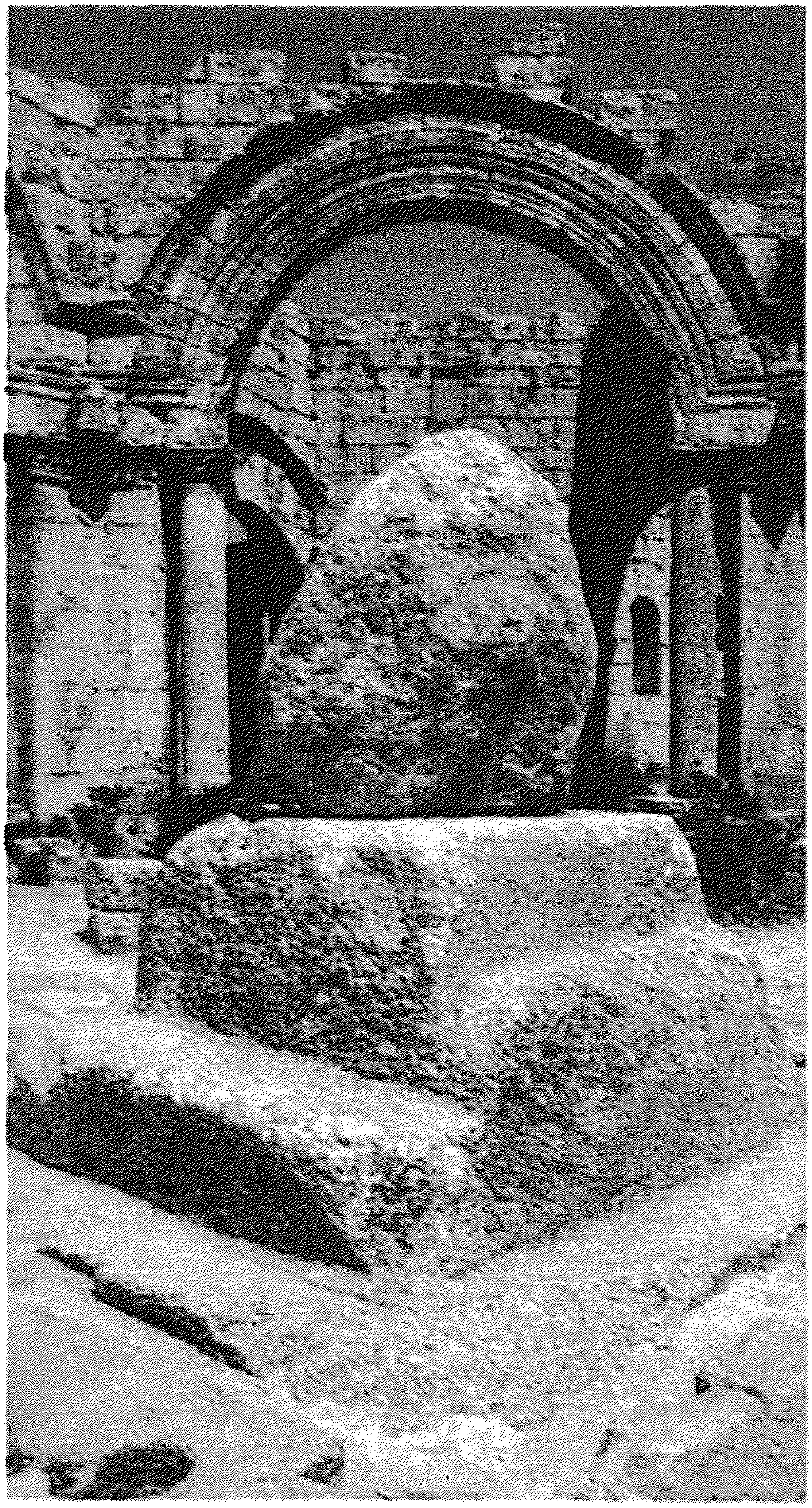

هناك أربعة صحون تنطلق من وسط دير القديس سمعان،
أبرز ما فيها العمود، ونرى هنا قاعدته

مكتبة المهتدين الإسلامية

أنطاكية وأورفا، مكانان بارزان للفكر المسيحي

ساهمت سورية بحمية في النقاشات اللاهوتية قبل سلام الكنيسة كما بعدها. وقد وجدت مدرسة حقيقية في أنطاكية مع إغناطيوس، ولوقيانس، ويوحنا فم الذهب الـذي أصبح بطركاً للقسطنطينية، غير أنه لا يمكن أن نتجاهل نظيرتها إديسا(٦٤)،

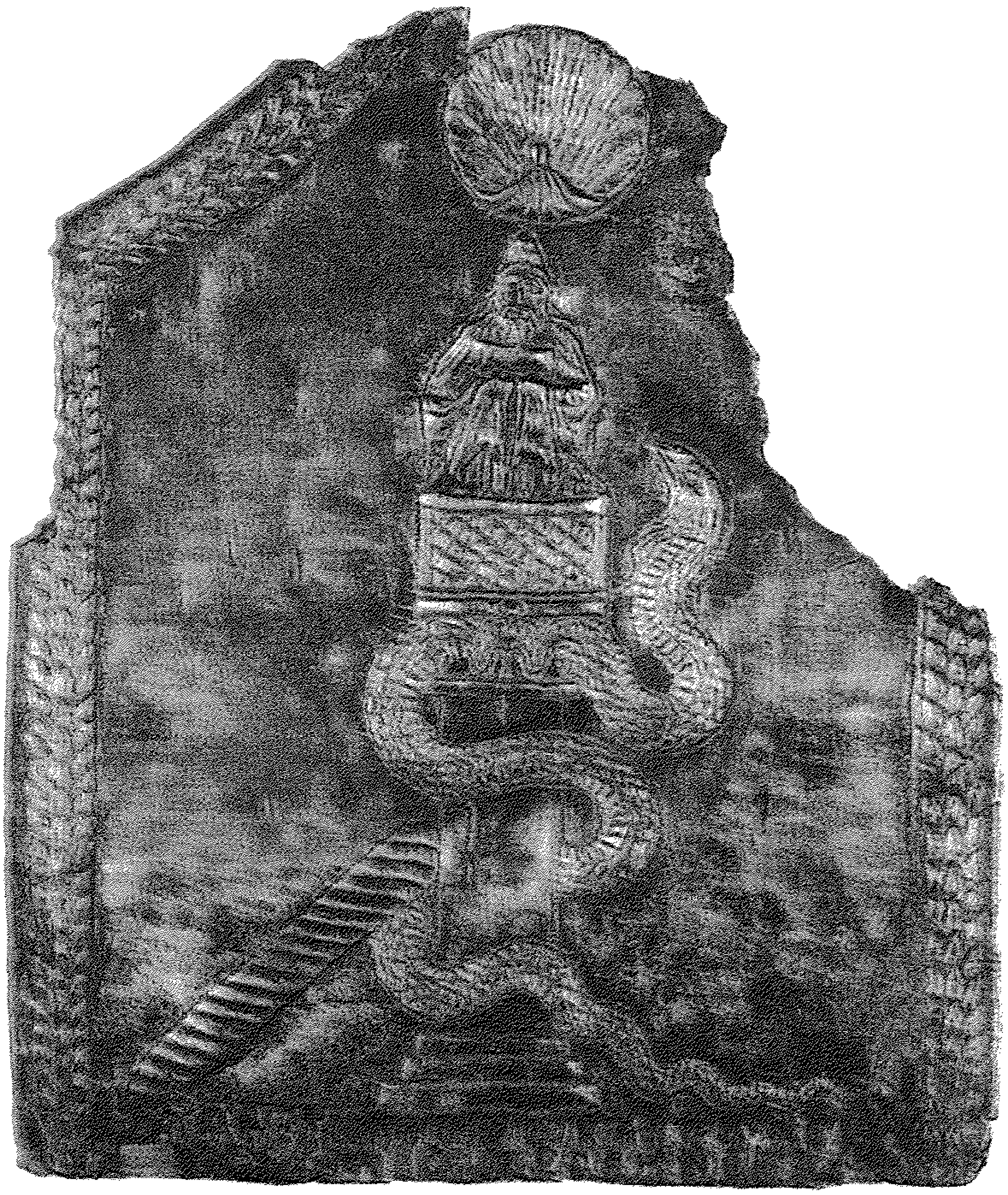

تصور هذه الصفيحة الفضية المذهبة، التي تزين مذخر أحد القديسين، القديس سمعان العمودي مقاوماً إغواءات إبليس المرسوم على شكل ثعبان عملاق. وقد قلد نساك عديدون القديس سمعان، وقد كثر العموديون (المستعمدون) فترة من الزمن في كل سورية.

http://www.al-maktabeh.com

مع رجال مثل أفرام السرياني(٦٥)، ورابولا ويعقوب السروجي(٦٦). تجلت الصراعات العقائدية في خلافات كانت غاية في الحدة. فيما بعد، وقد عصفت به النقاشات حول الآريوسية(٦٧) والنسطورية(٦٨) في القرن الرابع، انقسم العالم المسيحي السوري بين الكلدان (أو الملْكيين)، الذين يقولون بأقنيمين للسيد المسيح، وخصومهم الذين يؤمنون بعقيدة طبيعته الواحدة. تميز القرنان الخامس والسادس بنقاشات لا حصر لها، وبالعنف بشكل خاص. مثلاً: في العام ٥١٧، وقع موكب من ألف راهب ملْكي كانوا متجهين إلى القديس سمعان في كمين نصبه لهم أنصار عقيدة الطبيعة الواحدة؛ وقتل هؤلاء ثلاثمائة وخمسين من موكب الرهبان. أخيراً، تخلى الإمبراطور عن أنصار عقيدة الطبيعة الواحدة، وبدوا في حالة دفاع بعد عام ٥١٨. وفُهمت هزيمة الجيوش الإمبراطورية في اليرموك عام ٦٣٦ على أنها يمكن أن تبدو للبعض عقاباً من الرب.

لا شك أنه يجب أن لا تحجب أعمال بعض الرهبان العنيفة والخصومات اللاهوتية الدور الحاسم الذي أدته سورية في الانتقال من العصر القديم المتعدد الآلهة إلى المسيحية. لم يكن كل شيء عنفاً وهياجاً. تشير كنائس سورية الكثيرة في الشمال والجنوب، والفسيفسائيات، ومذاخر القديسين وكنوز الصياغة إلى أي مدى أجادت سورية الحفاظ على ثروات الثقافة التقليدية ونقلها إلى النخب المسيحية. وستبقى أساطير وحكايات الأزمنة القديمة، لزمن طويل، ينابيع وحي وإلهام خصبة.

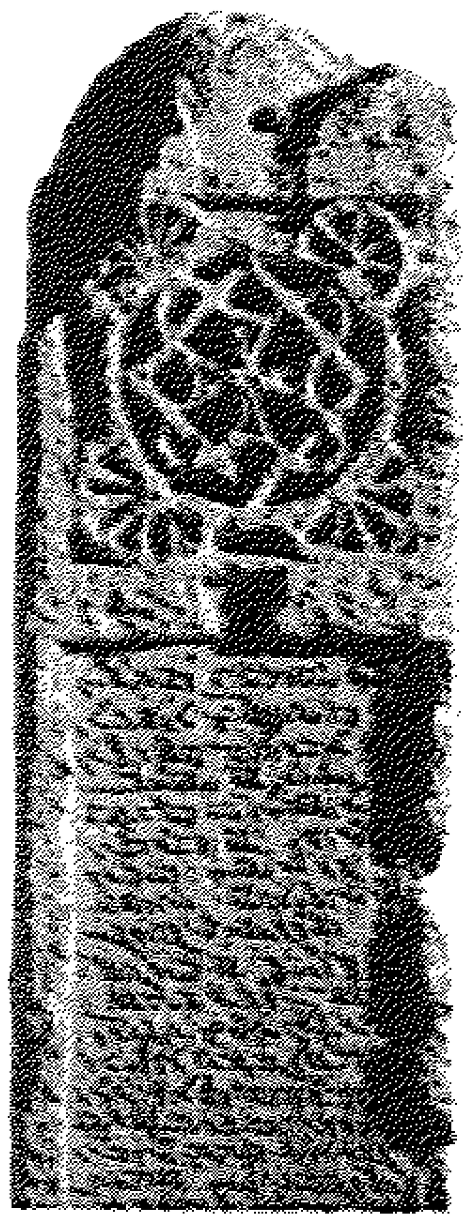

على مسلة من أعالي الجزيرة في نهاية القرن السادس أو بداية السابع، نقرأ اللعنة التي كان يقرأها الرهبان المؤمنون بالطبيعة الواحدة المعتدلون ضد أندادهم المتطرفين- بقيادة يوليانوس الهاليكارنوسي الذي جحد أدنى طبيعة بشرية لليسوع، إلا ظاهرياً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مع الامتناع عن تصوير أي شكل بشري، حسب تعاليم الإسلام، نهل فسيفسائيو الجامع الأموي في دمشق ، نحو ٧١٥، من أفضل تقاليد المراسم السورية.

http://www.al-maktabeh.com

شهادات ووثائق

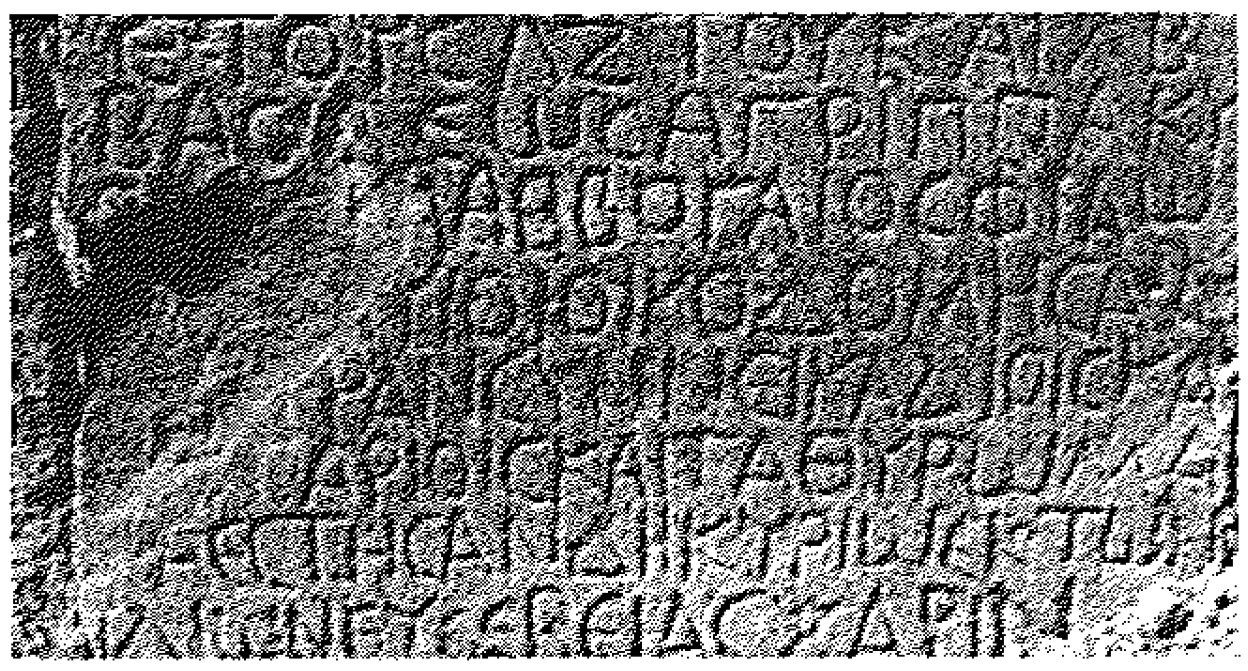

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

مستكشفو سورية

في القرن التاسع عشر

عقب زمن المستكشفين الأوائل، مثل الإنكليزي وود Wood أو الفرنسي فولني Volney، الذين عرفوا كيف يجعلون سورية في متناول النخب المثقفة، شكل القرن التاسع عشر العصر الرئيسي لاستكشاف سورية. وقد وفد إليها عدد من العلماء والمستكشفين، مع زاد من ذكريات توراتية وقديمة، للبحث فيها عن إثبات أو دحض لـ كتابات مقدسة. مع ذلك، وشيئاً فشيئاً، تكونت أبحاث متحررة من الاهتمامات اللاهوتية بلغت أوجها الأول مع البعثات الكبرى، الألمانية، والفرنسية، والأمريكية خلال الأعوام ١٨٩٠ - ١٩١٠.

رحالان في سورية: بوركهارت (١٨١٠) ورينان (١٨٦٠ - ١٨٦١)

بعد أن تزودت بما كنت أعتبره ضرورياً [...]، اخترت ثياب أهل حوران، مع كوفية وفروة كبيرة على كتفيّ. وضعت في كيس السرج قميصاً للبدل ورطلاً من حبوب البن ورطلين من التبغ وما يكفي لإطعام نهار من الشعير لحصاني. ثم، التحقت ببعض فلاحي إزرع، وقد استأجرت من أحدهم حماراً، رغم أني لا أحتاج إليه إلا في تحميله كيس السرج. ولكن كنت أعرف أن ذلك هو أفضل طريقة لأسلم أمري إلى حماية رفاق رحلتي: أصبح صاحب الحمار بالضرورة الرفيق وحامي ذاك الذي استأجر منه [...].

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان في حزامي ٨٠ قرشاً، وفي جيبي أكثر من ذلك بقليل، إضافة إلى ساعة يد، وبيكار، ومفكرة يوميات، وقلم، وسكين، وعلبة عاطوس.

يوهان لودفيغ بوركهارت
Johann Ludwig Burckhardt
Travels in Syria and the Holy Land
لندن، ١٨٢٢

نحو نهاية شهر أيار ١٨٦٠، تكرم س. م. لمبيرور بعرض مهمة استكشاف أقوم بها في فينيقيا القديمة. كنت أرى منذ زمن طويل أن مهمة من هذا النوع ضرورية جداً. [...] وبمصادفة غريبة، تقريباً في نفس النهار الذي تلقيت مهمة س.م. لمبيرور، انفجرت في لبنان المجازر التي كان لا بد أن تؤدي قريباً لإرسال فرقة من الجيش الفرنسي إلى سورية. كان وجود جيشنا فرصة مناسبة جداً لهدفي؛ التنقيبات التي نويت القيام بها ستكون بذلك سهلة للغاية: تقرر أن يقوم الجنود بهذه التنقيبات وأن تحل بعثتي، بالنسبة لجيش سورية، محل تلك اللجان العلمية التي ربطتها فرنسا دائماً، عبر اهتمامها النبيل بالأشياء الذهنية، بحملاتها العسكرية في البلدان البعيدة.

Ernest Renan إرنست رينان
Mission de Phénicie
باريس ١٨٦٤

---

http://www.al-maktabeh.com

في الأسباب الحقيقية لعمليات
تدمير الأوابد القديمة حسب
وليم هنري ودينغتون

إن أكثر ما ساهم في التدمير هو قيام إمارات مسيحية في سورية بعد الحروب الصليبية. عندما يستخدم المسلمون المواد القديمة في بناء مساجدهم أو في حصونهم، يأخذونها تقريباً كما يجدونها: أحيانا يقصونها أو يكسرونها وفق حاجاتهم في البناء، غير أنهم لا يعيدون تشذيبها بشكل تخطيطي؛ لهذا، نجد في كل الصروح الإسلامية، المبنية من المواد القديمة، تسجيلات أثرية أو قطعاً معمارية مدمجة في الجدران. على العكس، لم يتمكن المعماريون المسيحيون الذين عملوا لأمراء صليبيين من أن يكتفوا بمواد متباينة الأبعاد، وكلفوا بتزيينات ونواتيء زخرفية لا تناسب البتة الهندسة الغوطية **ogivale**؛ *لذلك، لزم الاعتناء بإعادة تشذيب أو نحت كل الأحجار الآتية من منشآت قديمة، وكان حتى الاهتمام نفسه الذي أولوه لمنشآتهم سبباً في التدمير التام للكثير من الأوابد القديمة.*

و. هـ. ودينغتون W.H. Waddington،

Inscriptions grecques et latines de la Syrie, Paris, 1870

أطلال بصرى

زار غويوم ري G. Rey حوران في شتاء ١٨٥٧ - ١٨٥٨ برفقة الدكتور دلبيه، الاختصاصي في الاقتصاد الاجتماعي. في ٦ كانون الأول ١٨٥٧، دخل إلى بصرى.

مكتبة المهتدين الإسلامية

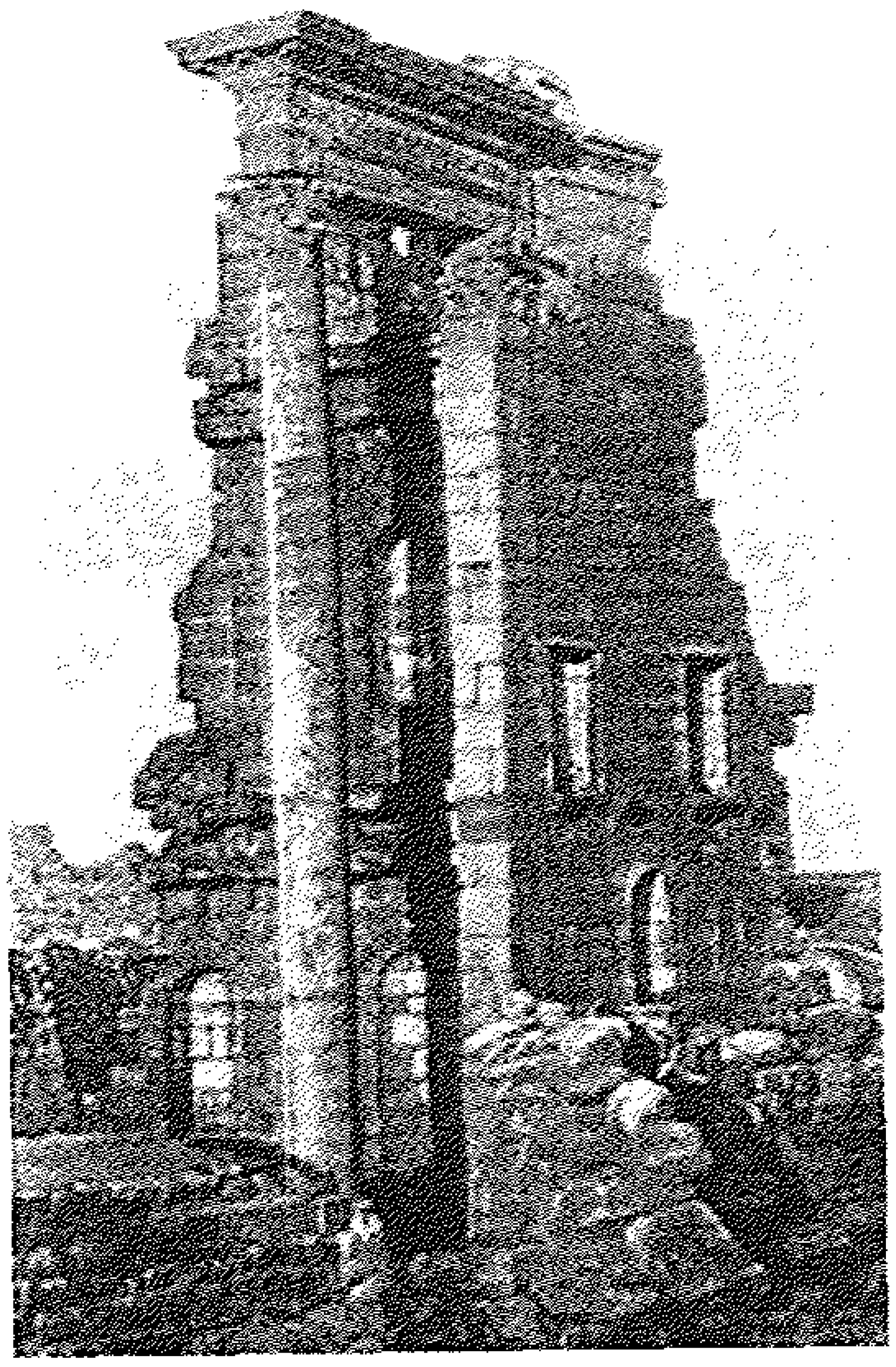

توحي كل هذه الأطلال بعظمة آفلة، ولا أعرف أية مهابة هذه، التي لا نصادفها في أي موقع آخر. هنا، لم نعد نلاحظ القبعات المقرونة للنساء الدرزيات ولا عمامات أزواجهن البيضاء؛ كل الرجال يرتدون الكوفيات، أما النساء، اللواتي يرتدين الزي البدوي، فمكشوفات الوجه هنا؛ ولم يبد أي نفور على بعض السكان الذين التقيناهم. [...].

لم نر في أي مكان بعد، حتى في اللجاه، أطلالاً أكثر انقلاباً من هنا. وبدا لنا امتدادها، من أعلى الجدران التي تسلقناها، بلا نهاية، وهي غير مأهولة تقريباً؛ وقد أوت إليها الحيوانات البرية كما لو أنه لم يعد للناس وجود فيها.

حيينا ابن آوى بطلقة مسدس بعد تربية عدد من الحجلان في بيت البويهيري.

http://www.al-maktabeh.com

توجهنا بعد ذلك نحو الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، التي دخلنا منها لزيارة مسجد المبرك، المسمى كذلك لأنه شيد بناء على أمر الخليفة عمر في المكان الذي برك فيه الجمل الذي حمل القرآن الكريم.

غويوم ري E. Guillaume Rey

Voyage dans le Hauran et aux bords de la mer Morte exécuté pendant les années 1857 Et 1858. Paris, Arthus Bertrand s.d

---

لوي - فرنسوا كاساس يكتشف تدمر

بعد ثلاثين سنة من استكشافات جيمس داوكينز و روبرت وود، في ٢٢ أو ٢٣ أيار ١٧٨٥، وصل لوي - فرنسوا كاساس إلى تدمر، التي أخذ منها رسوماً عديدة. وقد دخل إليها من طريق حمص، عبر وادي الأموات.

تنفصل الجبال فجأة، ونكتشف أطلال هذه المدينة الشهيرة الرائعة بالكامل. لا شيء أكثر مهابة من هذه النظرة الأولى: تأسرنا، دهشة وإعجاباً،

مكتبة المهتدين الإسلامية

الكمية التي لا تحصى للعواميد، والأروقة، وأطلال المعابد، وأقواس النصر، والصروح الفسيحة عبر امتدادها، ومعبد الشمس مرتفعاً في الوسط، ومطلاً على الصحراء التي تشبه بحراً واسعاً.

Louis - François Cassas لوي – فرنسوا كاساس
Lettre et manuscrit inedit,
Getty Center, Malibu, Californie

نجد فيها ستين أو ثمانين قبراً بقيت سليمة كفاية [...]. دهشت بذهول ديني ظل يزداد كلما اقتربت. مع ذلك، تقدمني الحرس الذين رافقوني حتى طرف الوادي وهم يغنون ويطلقون بعض العيارات النارية من بنادقهم [...]. مع ظهور أول مشهد من أطلال تدمر، أنزلوني عن جملي لأتأمل على راحتي أروع لمحة يمكن أن تمنحها الطبيعة [...].

كان للتدمريين رواق فسيح وفخم كي يتنزهوا محميين من الشمس [...]. أعتقد أنه كان مغطى بالنسيج كالمسارح والمدرجات. وكان من الطبيعي أن نتصور مثل هذه الأروقة في بلد يسوده الجفاف ويفتقر إلى تلك الأشجار الكبيرة والجميلة.

النص أوردته آني جيليه Annie Gilet في
Louis - François Cassas,
dessinateur - voyageur,
Philipp Von Zabern, Mayence, 1994

مخاطر الرحلة

أقام المحترم ج.ل. بورتر، المبشر الإنكليزي، في دمشق خمس سنوات خلال خمسينيات القرن التاسع عشر. ومن الغريب، إن لم يكن من المغامرة

http://www.al-maktabeh.com

أنه يثق بالطبع ثقة لا ضعف فيها تقريباً بالكتاب المقدس. وقد بدأ رحلة إلى تدمر عبر الطريق المباشر من دمشق، ولم يكن ذلك دون مخاطر! في صباح اليوم الخامس من الرحلة، كانت تدمر أمام ناظرينا.

تسلقنا حاجزاً صخرياً وتوقف الشيخ: «انظر»، هتف وهو يسدد بإصبعه نحو فتحة ضيقة في خط التلال المنخفض الذي يجتاز السهل أمامنا. رأينا قصراً يعلو قمة مخروطية؛ ورأينا أبراجاً ترتفع على المنحدرات وفي قاع الممر. «هذه تدمر، يالله».

ولكن بعد لحظة، رأينا فارسين عربيين وحشيي الطباع يقودان جواديهما اللاهثين وهما يطلقان النار من مسدس. لم يقولا أية كلمة، ولم تصدر عنهما أية إشارة. وبعد أن رمق أحدهما مجموعتنا بنظرة سريعة، أدار حصانه وابتعد بسرعة في السهل. بقي الآخر بلا حراك، كأنه صنم، متكئاً إلى رمحه الطويل. ظل قائد مجموعتنا صامتاً. وبدا مشلولاً تقريباً. شرد جمله بحثاً عن أعشاب جافة. كان هناك شيء ما ليس على ما يرام، دون أن نعرف ما هو تحديداً. لم نبق في حيرة وقتاً طويلاً. ظهرت سحابة غبار في السهل تقترب منا. ولما انجلت، رأينا مجموعة من أربعين أو خمسين فارساً تهجم نحونا بسرعة. وبعد لحظات، أحاطت برؤوسنا بعنف رماح لامعة كثيرة. كانت المقاومة أسوأ من العبث. وأخذنا أسرى!.

J.L. Porter, ج. ل. بورتر
The Giant Cities of Bashan and
Syria`s Holy Places,
T. Nelson and Sons, Londres, 1886,
(ترجمة موريس سارتر)

مكتبة المهتدين الإسلامية

رغم طلب فدية باهظة، سوي الأمر بسرعة، وتمكن بورتر من زيارة تدمر دون صعوبات أخرى. كان مبهوراً كسابقيه، وتساءل حول أصل المدينة. أعطى الكتاب المقدس وروح الجشع لإنكليزي من القرن التاسع عشر الإجابة:

سليمان «بنى تدمر الصحراء» (1 Rois IX, 18;2 Chro., VIII,4).

غالباً ما طرح هذا السؤال: لماذا بنى سليمان مدينة في قلب الصحراء، بعيداً جداً عن مملكته؟. الإجابة سهلة بالنسبة لكل من يعرف تاريخ هذه الفترة وجغرافية البلدان التوراتية. كان سليمان عاهلاً يهتم بالتجارة. تمثل أحد أهدافه الكبرى في أن يجعل من فلسطين مركز مشروع تجاري. وكان تأمين طريق آمن وسهل للقوافل الآتية بكنوز الهند، وفارس وبلاد ما بين النهرين هدفاً من الدرجة الأولى في الأهمية. وتدمر تقع في منتصف الطريق بين الفرات وتخوم سورية. وكانت تضم الينبوع الوحيد في قلب هذه الصحراء القاحلة. وكان إيجاد مكان للراحة ضرورياً. والماء ضروري قطعاً. بالنتيجة، بنيت تدمر كمحطة للقوافل.

J. L. Porter, ibidem

http://www.al-maktabeh.com

المدن السورية

مقابل المدن القديمة، التي بنيت منذ الألف الثانية قبل الميلاد، أكثر الملوك الهلنستيون من بناء المنشآت الجديدة، ألمعها نجاحاً هي أنطاكية دون شك، التي أصبحت تحت السيادة الرومانية إحدى أكبر ثلاث أو أربع مدن في الإمبراطورية. إلا أن المدن القديمة، مثل صور، وصيدا، ودمشق شهدت أيضاً تحولات وتنامياً إلى حد كبير.

بناء أنطاكية حسب سترابون

يعطينا سترابون، وهو جغرافي إغريقي أصله من الأناضول (القرن الأول قبل الميلاد)، وصفاً متقناً عن سورية تمتزج فيه التحديدات الدقيقة والحكايات التاريخية - الأسطورية.

هكذا إذن هي أنطاكية حاضرة سورية؛ هنا كان قد شيد مكان الإقامة الملكية لسادة البلد. لم تكن أقل قوة وحجماً بكثير من سلوقية دجلة وإسكندرية مصر. هنا أيضاً أسكن نيكاتور[٦٩] أخلافَ تريبتولِيمس[٧٠] [...]. لهذا يبجله الأنطاكيون كبطل ويقيمون احتفالاً على شرفه على جبل كاسيوس، قرب سلوقية. يقال إن الأرجيين كانوا قد أرسلوه بحثاً عن إيو (عشيقة زيوس، التي حولها إلى بقرة جميلة بعد أن كشفت زوجته هيرا علاقتهما المريبة «المترجم») التي اختفت أولاً في صور وأنه تاه في صقلية؛ هنا، تخلى عنه بعض رفاقه، من أجل بناء تارس (طرسوس)، غير أن الآخرين واكبوه بطول الضفة، وتخلوا عن البحث يأساً وظلوا معه في بلد العاصي. هاجر غورديس، ابن تريبتوليمس، مع شعوب أخرى كانت قد رافقت أباه، إلى غورديايا، بينما تعايش أخلاف الآخرين مع الأنطاكيين.

Strabon, Géographie

الكتاب ١٧- ترجمة موريس سارتر

مكتبة المهتدين الإسلامية

بناء أنطاكية حسب حولية عربية مجهولة المؤلف:

هذا النص المجهول المصدر وربما المترجم عن السريانية لا ينطوي إلا على إشارة إلى التسمية العربية للمدينة.

في ذلك الزمن، كان يوجد في مدينة روما ملك اسمه أنطيوخوس، عاهل معتبر جداً وواسع النفوذ، وقد جمع من الثروات قدراً يعجز عن حصره؛ كان يعبد الأصنام. لذلك، قرر أن يبني لنفسه مدينة يكون اسمها مشتقاً من اسمه بحيث أنه إذا ما لفظ اسم المدينة مع لفظ اسمه في الوقت نفسه تخلد ذكره بين الملوك.

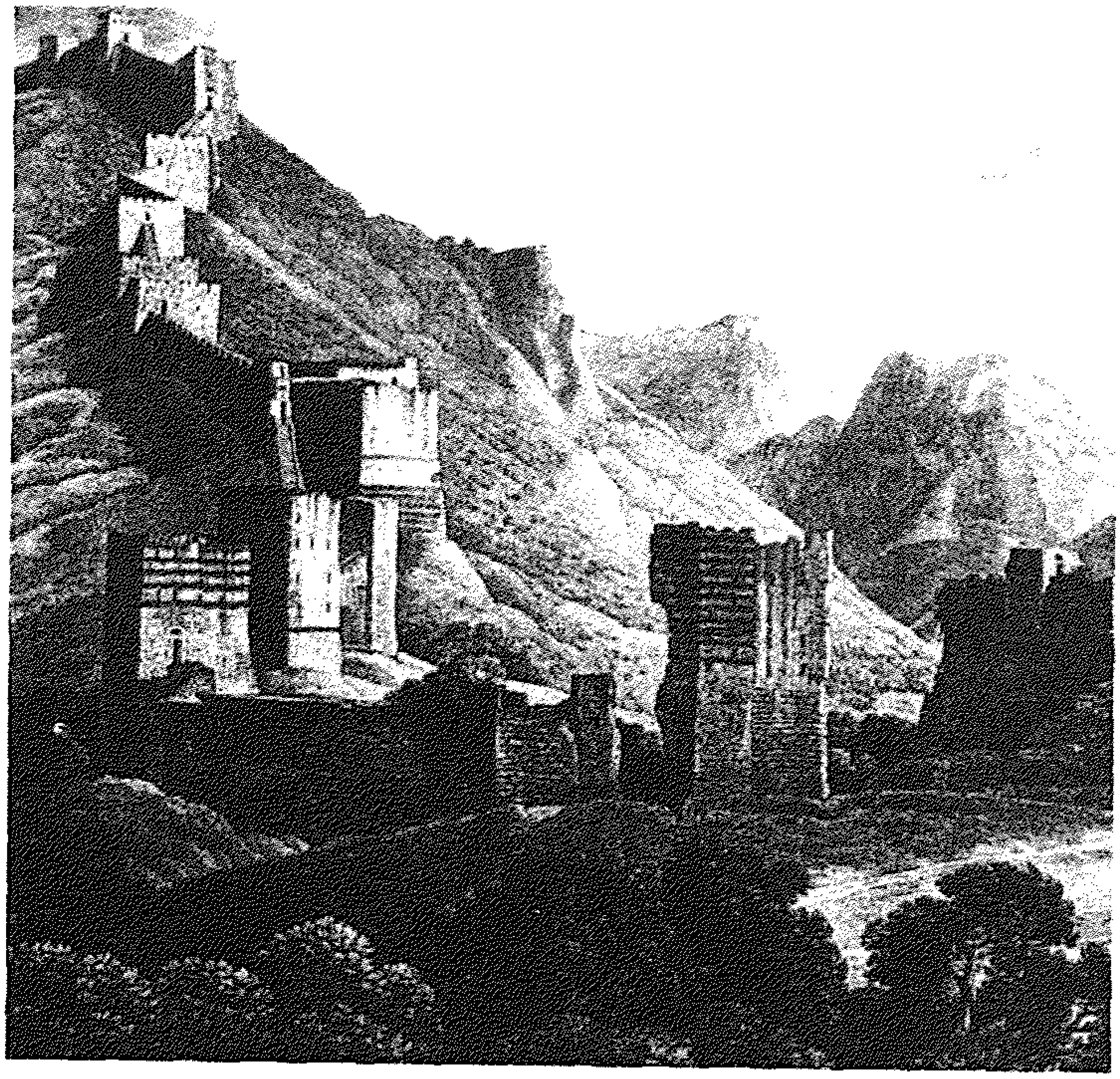

http://www.al-maktabeh.com

أمر إذن وزراءه وحكماءه بالبحث له عن منطقة ممتعة، وجميلة، وطيبة الماء والهواء، وتجاور البحر والجبل. وأرسل من أجل ذلك أشخاصاً خبيرين وجديرين بالمهمة التي تكفل بها الملك. ذهب هؤلاء، وجالوا في كل البلدان وكل الأماكن، حتى وجدوا منطقة هذه المدينة؛ كانوا جميعاً متفقين حولها، وروى كل واحد أحوالها: رأى أحدهم الثلج فيها، وأنه تأتيها الرطوبة من الغرب. ووصفوا كيف كانت الأرض، وينابيع الماء الطيب والعذب، وأن الأرض مروية من الداخل، والبحر بجوارها، والبحيرة في شرقها، والجبل الذي سيبنى عليه جزء من السور، وبأي ارتفاع حسب محيطه، والقلعة للتحصن إذا ما وقع عارض شديد؛ وستكون ضفة النهر، النهر المعروف باسم المقلوب، خارج الأسوار، وعليه تقوم كتلة المدينة؛ وستأتي المراكب بالأرزاق والسلع من الضواحي إلى المدينة؛ وبالطريقة نفسها كل ما يأتي من طريق البحر.

Codex Arabicus Vaticanus 286,

ترجمة موريس سارتر حسب:

I. Guidi, Rendiconti della reale academia dei Lncei, classe de scienze morale, storiche e fiologiche, Rome, t. 6, 1897.

أنطاكية في القرن الرابع قبل الميلاد:

لم يكف ليبانيوس، خطيب أنطاكية الوثني، وأحد ألمع ممثلي النثر الإغريقي في النصف الثاني من القرن الرابع، عن مدح مدينة كانت آنذاك أكثر حيوية من روما.

مكتبة المهتدين الإسلامية

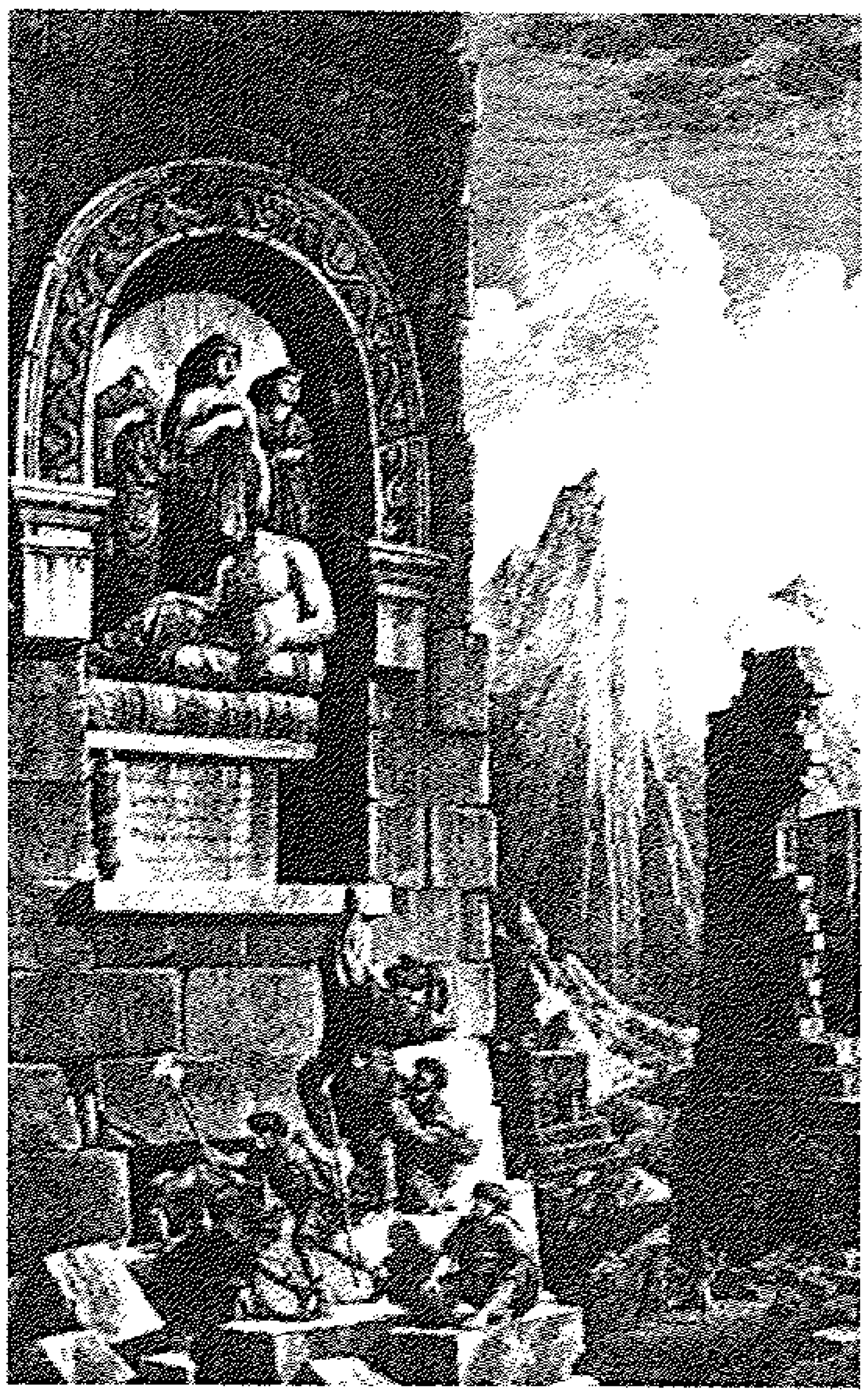

أية مدينة يحق لنا أن نقارنها بمدينتنا؟. إنها أكثر سعادة من أقدم المدن، وتتفوق على أخرى عظمة، وتتجاوز غيرها نبلاً، وسواها أيضاً خصباً في كل منتجات أرضها. وإن كان لمدينة أخرى أسوار أطول، فإنها تبزها وفرة في الماء، وعذوبة في الشتاء، وكياسة في السكان، وممارسة الحكمة؛ وتتفوق في جمالها على المدن الأخرى الأكبر بما هو أجمل ما فيها، الثقافة الإغريقية وفن الكلام. باختصار، نجد بعضها بالمقارنة صغيراً، وبلا ظرف ولطافة في اتساعها: هنا، بالمقابل، أراقت الإلهة أم إيروس الأناقة على المدى. هل غادرتَ هذه المدينة لتذهبَ إلى مكان آخر ولم تبزغ فيك ذكراها؟؛ هل أتيت إليها من مكان آخر ولم تنس كل ما عداها؟. ينبغي أيضاً أن تسامح من تركوا أهلهم ورحلوا إليها بتأثير شراب حب أنطاكية: فقد رأوا مدينة لم يروا مثلها ويعرفون أنهم لن يجدوا شبيهاً لها في أي مكان.

ليبانيوس Libanios، «في مدح أنطاكية»،

ترجمة أ.- ج. فستوجيير،
In Antioche païnne et chrétienne.
Paris, De Boccard, 1959

http://www.al-maktabeh.com

مدينة أنطاكية نحو ١٧٨٠

هُجرت أنطاكية، المسيحية جداً، والبيزنطية كثيراً، بعد أن فتحها المسلمون الذين فضلوا عليها دمشق وحلب. وفي نهاية القرن الثامن عشر، وصف فولني حالة انحطاطها الحزينة.

Antioche، *وقد سماها العرب أنطاكية [...]، التي كانت شهيرة بترف سكانها، لم تعد سوى بلدة مهدمة، بيوتها مبنية من الطين والقش وشوارعها ضيقة وموحلة يبدو عليها البؤس والفوضى. توضعت هذه المنازل على الضفة الجنوبية للعاصي، عند طرف جسر قديم متهدم: يطل عليها من الجنوب جبل يتسلقه سياج كان سور الصليبيين. الفسحة بين المدينة الحالية وهذا الجبل يمكن أن تكون بمقدار مائتي قامة؛ وتشغلها الحدائق والأنقاض التي لا أهمية لها البتة.*

قسطنطين فرنسوا فولني C.F Volney، «الرحلة إلى مصر وسورية»

الأعوام ١٧٨٣، ١٧٨٤، و ١٧٨٥

In Oeuvres complètes, t.III, Paris, 1824

مكتبة المهتدين الإسلامية

مشهد عام لسلوقية بيريا نحو ٢١٩ قبل الميلاد

عانت سلوقية بيريا(٧١)، التي أنشأها سلوقس الأول، على شاطىء البحر، من قربها من أنطاكية. وقد قام المؤرخ اليوناني بوليبيوس(٧٢) بوصف ألقها في القرن الثاني قبل الميلاد.

كان وضع سلوقية وطبيعة الأماكن المحيطة بها كالتالي. تقع على شاطىء البحر بين كيليكية وفينيقيا، يطل عليها جبل عال جداً اسمه كوريفايون **Koryphaion**، الذي يغطس جانبه الغربي بطرف البحر الفاصل بين قبرص وفينيقية، غير أنه يطل، بدءاً بمنحدراته الشرقية، على أراضي الأنطاكيين والسلوقيين. تقع سلوقية على منحدر الجانب الجنوبي من الجبل، يفصلها مجرى سيل عميق يصعب عبوره، هابطةً ومتكورةً في منحنيات حتى البحر، ومحاطة في معظم جوانبها بجروف وصخور وعرة. في الأسفل، عند الأماكن المنبسطة، بطول البحر، هناك الحي التجاري والضاحية، المحميان بأسوار قوية جداً. كل المدينة مقامة بالطريقة نفسها ومحمية بسور مكلف جداً ومزدان بشكل رائع بالمعابد والصروح الجميلة. في الجانب المطل على البحر، هناك درج باتجاه البحر منحوت في الصخر مع منحدرات وحبال بطول الطريق.

بوليبيوس Polybe

Histoires,v. 59، ترجمة موريس سارتر

---

http://www.al-maktabeh.com

ميناء صيدا في القرن الثاني أو الثالث ميلادي

لا بد لكل حبكة رواية حب جميلة أن تنوه إلى المرافىء الفينيقية، نقاط انطلاق الرحلات الخيالية هذه. لم يفت ذلك آخيل تاتيوس، الذي أعطى في مقدمة روايته وصفاً دقيقاً لمرفأ صيدا.

تقع صيدا (صيدون) على شاطىء البحر؛ هذا البحر هو بحر الآشوريين **Assyriens***؛ المدينة هي حاضرة الفينيقيين وشعبها هو أب شعب الطيبيين. لها مرفأ مزدوج، مفتوح عل سعته، في خليج صغير، ويقابل البحر بحاجز طبيعي صغير؛ في الطرف، حيث يتقوس الخليج بشكل جانبي، باتجاه اليمين، حفروا مجرى ثانياً لفتح منفذ للماء، حتى صار لهذا المرفأ مرفأ آخر، يمكن أن تمر المراكب التجارية في داخله شتاءً بهدوء، في حين تبقى خلال الطقس الجميل في المرفأ الأمامي.*

Achille Tatius آخيل تاتيوس
de Leucippè et Clitophon,
ترجمة بيير غريمال
in Romans grecs et latins,
Gallimard, " La Pléiade ", 1958

مكتبة المهتدين الإسلامية

بيروت في منتصف القرن الميلادي الرابع

بقيت لزمن طويل مدينة من المرتبة الثانية، خلف صور وصيدا بمسافة بعيدة، غير أن بيروتوس (بيروت) شهدت الرخاء عندما قرر أوغسطس نحو ١٥ قبل الميلاد أن يجعل منها مستعمرة رومانية، روما سورية صغيرة.

[بعد صور]، هناك بيروت. إنها مدينة ممتعة تماماً فيها مدارس للحقوق حتى لتبدو [أنها هي التي تؤمن استقرار] كل الإدارة الرومانية. في الواقع، من هنا يتخرج الرجال المثقفون الذين يذهبون لعقد الجلسات في كل أنحاء العالم لدى الحكومات ويحرصون بمعرفتهم للقوانين على مصالح المقاطعات؛ وإليهم ترسل مراسيم تطبيق القوانين.

Expositio totius mundi et gentium,
XXV, paris, Le Cerf, 1966

ترجمة جان روجيه

---

http://www.al-maktabeh.com

الحياة على الطريقة الإغريقية

رغم أن سورية كانت بعيدة عن أن تتمدن بشكل كامل، حيث وجدت فيها إمارات محلية بقدر ما وجد من جماعات سكانية قروية متحررة من كل ارتباط بالمدن، فإن السلوكات المميزة للحياة على النمط الإغريقي قد انتشرت في كل مكان من أراضيها: ازدهار النصب والأوابد، والتردد إلى الحمامات العمومية والمنشآت الرياضية، والمباريات الرياضية والموسيقية، والسخاء بشكل خاص، الذي يتيح تمويل نفقات الجماعات السكانية.

تنوع الجماعات: ممالك، وولايات رباعية السلطة، ومدن، وقرى

أدرك عالم الطبيعة بلينس الأكبر[٧٣] (توفي عام ٧٩ ميلادية) جيداً تنوع أوضاع الجماعات السكانية التي تألفت منها سورية، وركز بشكل خاص على الولايات ذات السلطة الرباعية (حكومة بإدارة أربعة أباطرة) **tétrarchies**، هذه الإمارات المحلية التي استمرت حتى بداية القرن الميلادي الثاني.

*لنتجول الآن في الداخل. تضم سورية الجوفاء أفاميا التي تفصلها مياه المرسياس عن ولاية النزاريني **nazareni** الرباعية، أو بمبيقه (منبج)، التي يبجلون فيها أترغاتيس، التي يسميها الإغريق أفروديت، وخلقيس المسماة قرب البيلوس والتي تمتد بدءاً منها منطقة خلقيدينيا، الأخصب في سورية، ثم*

مكتبة المهتدين الإسلامية

بعد ذلك قيرهوس القيرهستيقه، والغازتاي ***Gazetai***، *والجنداريون، والغابيون* **Gabéniens** *(سكان الغاب) والولايتان الرباعيتان المسميتان ولايتا الغرانوكوميتاي* **Granoukômétai**، *وإميزا (حمص)، والحايلتاي (أهل الحولة)، وشعب اليطوريين والشعبان بينهما المسميان البايثاميون* ***Baithaimoi***، *والمريمينيون، والولاية الرباعية المسماة مميزيا* ***Mammiséa***، *وبراديسوس* ***Paradisos***، *والباغراي* ***Pagrai***، *والبنليتاي* ***Penelitai***، *ومدينتان اسمهما سلوقية مختلفتان عن تلك التي سبق ذكرها [...]، واحدة على الفرات، والأخرى قرب البيلوس* ***Bélos***، *والتارديتنسس* ***Tardytenses***. *يوجد أيضاً في سورية، فضلاً عن أولئك الذين سنتحدث عنهم في موضوع الفرات، أرثوذا، وبيرويي، وإيبفانيا (حماة) على العاصي، ولاذقية لبنان، ولوكاس (بانياس / الساحل)، ولاريسا (شيزر)، فضلاً عن سبع عشرة ولاية رباعية تعتبر ممالك، بأسماء بربرية.*

بلينس الأكبر Pline l\`Ancien
Histoire naturelle,V,81-82
ترجمة موريس سارتر

---

http://www.al-maktabeh.com

محسن آفامي سخي على العاصي

عام ١١٥ - ١١٦ م

ساهم سليل أمير إغريقي من منطقة أفاميا، وهو مواطن من هذه المدينة، في إعادة إعمارها بعد زلزال كانون الثاني ١١٥ الكارثي، الذي ضرب كل المنطقة.

من أجل صحة الإمبراطور نيرفا ترايانوس قيصر أوغسطس، المنتصر على الجرمانيين والداسيين، اشترى لوسيوس يوليوس أغريبا، ابن كايوس، من قبيلة فابيا، صاحب مراتب الشرف وذو الأجداد المدونين في الكابيتول على الألواح البرونزية كحلفاء للرومان، والمعفى من كل التزام مالي، بعد أن أتم كل سخاء بالكامل، طوعاً، اشترى على نفقته، المكان وبنى فيه حمامات عمومية، والبازيليك الملحق بها، والرواق الأمامي لهذه الأبنية، مع كل زخارفها ومجمل الأشياء البرونزية الموجودة فيها، وأهداها إلى وطنه، في عهد يوليوس باسوس، النائب الإمبراطوري الوالي الروماني [...]. ولما كان يحتفظ بحقوق أجداده وإعفائه من الطقوس المشهود له فيها علناً مع مراتب شرف أخرى مسجلة على ألواح الكابيتول البرونزية في روما، فقد أدى في سبيل وطنه مسؤولياته العامة والتزاماته المالية وعطاياه؛ كان كاهناً؛ ومسؤولاً بلدياً بسخاء، متدبراً خلال ستة أشهر مهام توزيع القمح ومسدداً مبلغاً من... الدوانق الفضية؛ قدم الزيت من أجل الدّهن وشغّل في القناة [...] عدة آلاف؛ كان سكرتيراً للمدينة على نحو رائع، والتمس الترخيص بنفسه، لمدة سنة، ومنتقياً بنفسه زملاءه في إدارة الشأن العام، وكان خلال نفس السنة مفوض السلام وتوزيع القمح وأنشأ الحمامات

مكتبة المهتدين الإسلامية

العمومية والرواق الذي يتقدمها على المدخل والبازيليك الملحق بها واهباً كل الأرض المشتراة على نفقته الخاصة، ومكرساً في هذه الحمامات أعمالاً برونزية، مجموعة (البطل) ثيسيوس و المينوتور (غول في الميثولوجيا اليونانية) ومارسياس والسكيز؛ وغالباً ما أنشأ سفارات لدى الأباطرة في روما، ولدى الحكام؛ له أيضاً، من جهة أبيه كما من جهة أمه، أجداد عظماء وأسخياء، وحكام ولايات رباعية، وأشخاص شاركوا في مقامات الشرف الإمبراطوري؛ خصوصاً دكساندروس، أول من كان كبير كهنة في المقاطعة، وكان أوغسطس الإلهي قد سجل والد جده بأمر عال، نظراً لصداقته ووفائه للشعب الروماني، صديقاً وحليفاً على الألواح البرونزية فأضيفت له ولعائلته أمجاد استثنائية؛ وأودع ملخص من هذه الألواح في المحفوظات هنا، السنة... في شهر **xandikos**، *في ٢٨ ؛ ومن مدينتنا، بمرسوم من المجلس والشعب، [دكساندروس] كُرّم في شهر* **péritios**، *الثالث قبل نهاية الشهر؛ في هذا المرسوم.*

جان - بول ري كوكيه Jean-Paul Rey - Coquais
" Inscriptions grecques d`Apamée "
in Annales archéologiques arabes syriennes,23, 1973

---

http://www.al-maktabeh.com

التنافسات الوطنية عام ١٩٣، إبان الصراع بين

سبتيمس ساويرس وبسينيوس نيجر

تنافست المدن السورية فيما بينها، مثلما كان عليه حال المدن الإيجية، موشكة أن تعرض وضعها للخطر. وقد كلفت الحرب الأهلية لعام ١٩٣ البعض غالياً.

انضم إلى الجيش عدد كبير من الأوساط الأنطاكية الشعبية، باندفاع نزقي أكثر منه بنتيجة التجربة، ولاسيما بين الشبان الطائشين الذين كانوا أنصاراً متحمسين لنيجر [...].

عندما انتشر نبأ انتصار ساويرس [سحق جيش ساويرس جيش أنصار نيجر في سيزيكيا]، فجرت نتيجته المباشرة الحرب الأهلية وأحدثت اضطراباً في الزمر السياسية في مدن كل المقاطعات الشرقية، ليس ذلك لأن هؤلاء أو أولئك كانوا مع أو ضد هذا الإمبراطور أو الآخر المتحاربين، بل بالأحرى بنتيجة تنافس الغيرة بين المدن ونظراً لقتل وتدمير مواطنيهم [...]. انفجرت حركات هيجان في سورية من حيث أن لاذقية (لاودقيا) كانت تكره أنطاكية، ولأن صور في فينيقيا كانت عدوة بيريتوس. عندما عرفت هاتان المدينتان أن نيجر قد هزم، سعتا إلى تجريب حظهما في تجريد نيجر من ألقاب الشرف والمناداة بساويروس. علم نيجر بالنبأ حين وصوله إلى أنطاكية، ورغم أنه تصرف بمروءة حتى ذلك الحين، إلا أنه امتلأ غضباً تماماً وعن حق لهذا التمرد الذي تحداه. لذلك، أرسل ضد مدينتي الموروسيين ***Maurousiens*** *هاتين حَمَلَةَ الرماح الذين رافقوه وفصيلة من رماة السهام وأعطى أمراً بقتل كل من يصادفونهم، والاستيلاء على ثرواتهم من الأثاث في المدن وحرق*

مكتبة المهتدين الإسلامية

البيوت. المورروسيون هم دمويون للغاية ومستعدون لأي عمل يائس بسبب استخفافهم التام بالموت والخطر. أغاروا على لاذقية فجأة وامتهنوا المدينة وسكانها شر امتهان. ثم اقتحموا صور ودمروا المدينة كلها بالنار بعد أن نهبوا وقتلوا.

Hérodien هيروديان

Histoire des empereurs romains, III, 1,3; 2,7; 3,3-5,

ترجمة موريس سارتر

---

http://www.al-maktabeh.com

الثقافة الإغريقية في مدينة سورية: المباريات

لا شيء أكثر إغريقية من الـــ agôn، المُهَاتَرَة (في المسرح الإغريقي القديم)، الصراع أو المبارزة. لقد اهتمت المدن السورية بتنظيم مثل هذه المبارزات في العهد الإمبراطوري.

أورليوس سبتيمس إيريناوس، ابن يوتيخس، مستوطن من لاذقية الحاضرة ومواطن مدن أخرى، أنا وحدي بين أناس وطني، شاركت في المباريات من كل الفئات وفزت في المباريات التالية:

في قيصرية أوغستا [مباراة] سيفيريان بيثيكا العامة، الملاكمة؛ في مباريات أغسطس الأكسيومية في نيكوبوليس، في مباريات البيريودوس **periodos***، ملاكمة الأطفال؛*

في القيصرية في [مباراة] المعادلة لألعاب أكسيا، ملاكمة الأطفال؛

في صور، في مباريات هيراكليا كومودیا، ملاكمة الأطفال؛

في تارسيا، في المباريات الإيزولمبية **isolympiques** *الكومودية العامة؛ ملاكمة الشباب؛*

في لاذقية وطني، خلال البيثياد الأول الاحتفالي، المباراة الأنطونينية العامة، ملاكمة الرجال؛

شاركت أيضاً في مباراة العرش في ملاكمة الرجال لبيريودوس القديمة في ألعاب ساباسميا النيمية الخماسية، اليوم الثالث قبل أول شهر كانون الثاني؛ في عهد قنصلية مسالا وسابينوس [٣٠ كانون الأول ٢١٤]. [مباريات] مقابل تالان واحد: في عسقلان؛ سيتوبوليس؛ صيدا؛ ثلاث مرات؛

مكتبة المهتدين الإسلامية

تريبوليس مرتين؛ لوكاس، ثلاث مرات، الملاكمة، والمصارعة، والمصارعة اليونانية؛ بيوريا، مرتين؛ زوغما، مرتين؛ أفاميا، ثلاث مرات؛ خلقيس، الملاكمة، والجري؛ في سالامينا، ثلاث مرات؛ مازاكا، مرتين؛ إيكونيونا (قونية)، الملاكمة، والجري؛ أنطاكية؛ باتراس، الملاكمة، الجري؛ ترنتيا، الملاكمة؛ إيجي، مرتين؛ أضنة، مرتين؛ مبسويستا، مرتين.

*عام ٢٦٨، في شهر إكسنديكوس **xandicos** [نيسان ٢٢١]، في عهد حكومة قنصلية فيتيوس غراتوس وفيتيليوس سلوقس.*

تسجيلات أثرية إغريقية ولاتينية من سورية

[IGLS], IV,Paris,1955, n° 1265

شكر للمحسنين في كناثا (قنوات) وبلنيا أو بالانياي (بانياس / الجولان)

إنهم متطوعون، مع ذلك من الصحيح أنهم، المحسنون، ينتظرون عرفان مدينتهم، على شكل مرسوم أو تماثيل. ذلك ولو أنهم هم من يدفع ثمن التماثيل.

بحظ سعيد. أظهر ماركوس أولبيوس ليسياس، ابن سكوروس، سخاءه نحو وطنه الغالي بتشييد قاعة طرب وموسيقى شبيهة بمسرح، بعشرة آلاف دانق، ١٠٠٠٠، بسعادة وبشكل ممتاز.

كناثا، النصف الأول من القرن الثاني

Inscriptiones graecae ad res romanas Pertinentes,III, Paris,1955, n° 1265

---

http://www.al-maktabeh.com

التماثيل التي قررها المجلس والشعب إكراماً لفيليبوس ابن أنتيباتروس وأنتيباتروس ابن فيليبوس، أبيه، الذي كان كاهناً، قدم أعطيات عن طيب خاطر ومارس وظائف إدارة الأبنية الرياضية بشكل لامع، وهاهي قد نُصبت من قبلهما هما نفسيهما، وعلى نفقتهما.

بلنيا، تاريخ غير محدد

IGLS, IV,Paris, 1955, n° 1302

مكتبة المهتدين الإسلامية

عالم القرى

ضمت سورية، رغم مدنها الكثيرة، عدداً كبيراً من القرى التي غابت سيطرة المدن عن الكثير منها، خصوصاً في الجنوب. وحالما هدأت حدة حالة عدم الأمان التي خيمت عليها مع نهاية العصر الهلنستي، ساهمت القرى السورية على نطاق واسع في الازدهار العام، وازدانت بالعديد من الصروح العامة على غرار المدن.

مكافحة قطع الطرق

قطع الطرق والقرصنة هما اللذان بررا تدخل روما وإرسال بومبيوس إلى سورية. لم تكن المسألة قد سويت بشكل تام قبل منتصف القرن الأول قبل الميلاد.

*في لاذقية، المسماة لاذقية لبنان، تبدأ مقاطعة ماسياس **Massyas**. يعيش كل السكان، وهم من اليطوريين والعرب، من الجريمة وقطع الطرق؛ أما سكان السهل، فعلى العكس، هم زراعيون بالمطلق، ومن هنا لديهم حاجة كبيرة لأن يحميهم هذا تارة وذاك تارة أخرى من أعمال عنف الجبليين جيرانهم. لدى جبليي الماسياس مخابىء محصنة تذكرنا بأماكن السلاح القديمة في لبنان، مواقع سيمناس، وبوراما، إلخ... التي كانت تكلل أعلى قمم الجبال؛ أي تلك، مثل بوتريس وجيغارتون، التي كانت تدافع عنها الأطراف المنخفضة؛ أي أخيراً كهوف الشاطىء والقصر القوي على*

http://www.al-maktabeh.com

قمة ثيوبروسوبون، وكلها مخابيء دمرها بالأمس بومبيوس لأنه كانت تنطلق منها دائماً عصابات جديدة لقطع الطرق تروع وتدمر بلاد بيبلوس وإقليم بيريتوس الذي يليها، أو بعبارة أخرى كل المكان الواقع بين صيدا وثيوبروسوبون. بيبلوس، حيث بنى سينيراس مكان إقامته، مكرسة، كما نعرف، لأدونيس. قطع بومبيوس رأس طاغيتها وجعلها بذلك حرة [...].

خلف دمشق، نرى ارتفاع سلسلتين من التلال، تسميان كلتاهما تراشون **Trachônes**؛ *ثم إذا اتجهنا من جانب مقاطعتي العربية والبطورية، نقع على خليط من الجبال الوعرة المليئة بالكهوف الواسعة التي تستخدم مخابيء للسلاح وملاجيء لقطاع الطرق في غاراتهم والتي تهدد منطقة دمشق من كل اتجاه: أحد هذه الكهوف فسيح كفاية، على ما يبدو، كي يتسع لـ ٤٠٠٠ رجل. مع ذلك، يجب القول أيضاً إن القوافل القادمة من العربية السعيدة هي الأكثر تضرراً من أعمال السلب التي يمارسها هؤلاء البرابرة. كما أن الهجمات الموجهة ضد القوافل أصبحت أندر يوماً بعد يوم، منذ أن تم القضاء على عصابة زينودور كلها، بفضل التدابير الحكيمة للحكام الرومان والحماية الدائمة التي تمارسها الفيالق الرومانية المتمركزة في سورية.*

سترابون Strabon
Géographie, XVI, 2,20
ترجمة موريس سارتر

مكتبة المهتدين الإسلامية

منع المصادرات التعسفية

الفلاحون المنظمون، ضحايا الجنود والموظفين التعسفيين الذين يصادرون المساكن والأرزاق، يجيدون أيضاً الشكوى وكسب الدعوى، كفلاحي فاينا الذين لجأوا إلى حاكم سورية، يوليوس ساتورنينوس (١٨٣-١٨٧ ميلادية).

(من) يوليوس ساتورنينوس إلى أهالي فاينا، ميتروكوميا التراشون، تحية. إذا حاول أحدهم، جندي أو شخص آخر، أن ينزل بالقوة في بيتك، أخبروني كي أحميكم منه. في الواقع، لستم ملزمين بدفع ضريبة جماعية للغرباء، ولا يمكن إجباركم على أن تستقبلوا غرباء في بيوتكم، فلديكم نُزُل. ضعوا رسالتي هذه في مكان باد للعيان بحيث لا يستطيع أي شخص أن يدعي أنه لم يرها.

و. هـ ودينغتون W.H. Waddington
Inscriptions grecques et latines de la Syrie,
Paris 1870, n° 2524

---

http://www.al-maktabeh.com

الثروة الزراعية في سورية

القمح، والكرمة، والزيتون، تبدو هذه الثلاثية المتوسطية في صدر التسجيلات السورية النادرة التي تمجد الزراعة. تسجيل البارة **El-Bara** الأثري، المكرس إلى باخوس، موجود داخل منزل فوق الفوهة التي ينزل العنب من خلالها إلى المعصرة.

[الإمبراطور الإجابال] كان يوعز بنقل عنب أفاميا إلى معالف خيوله.

Histoire auguste, Vie d`Elagabal,21,

ترجمة أندريه شستنيول

Paris, Robert Laffont,1994

أنت ترى المشروب الشبيه بشراب الآلهة، هبات باخوس التي أعطتها الكرمةُ، التي أنضجتها الشمس المتوهجة.

البارة، القرن السادس قبل الميلاد

IGLS IV,1459

إله واحد أحد! العام ٦٨٤، اليوم التاسع من ديوس، اكتملت معصرة الزيت.

Hass 372 après J.-C., IGLS IV, 1509

مكتبة المهتدين الإسلامية

المعابد الوثنية، كما الكنائس لاحقاً، هي الرابط الأقوى بين أفراد الجماعة. وإن تغيرت الآلهة، فالقرابين بقيت.

في ظل حكومة أسيادنا قسطنطين أوغسطس للمرة السادسة وكلوديوس قسطنطينوس الذائع الصيت جداً قيصر، الأوغسطس الخالدين، البلاط والمعبد لسيدنا زيويس القهار هليوس، إله أوموس. بنى كاسيوس مليخاتوس، من قرية ريميا، من قبيلة كسيتنوا، و باولوس مكسيمانوس، من قرية مردوخا، من قبيلة أودنوا، الصرحَ من أساساته والبناءَ الكبير، واضعين وقتهما الخاص تحت التصرف، فضلاً عن أبناء الكهنة، بتبصر من أوموس وأميلاتوس.

دير اللبن (حوران)، ٣٢٠ بعد الميلاد،

IGLS, XVI,25

يا إلهي، لا تنس فلافيوس ليبانيوس، ابن ليونتيوس، وأولاده، إذ بعد أن نذر له مع أهل بيته، جدد حصته في الفيسفساء، عام ٤٦٦، في شهر هيربيريتايوس ***Hyperbérétaios****، اليوم الخامس والعشرون.*

ريان (سورية الشمالية)، خريف ٤١٧،

Supplementum Epigraphicum Graecum,XX, 378-379

---

http://www.al-maktabeh.com

تدمر

من حياة تدمر - بالميرا الطويلة جداً، منذ أن اتخذها آراميو الفرات ملجأ لهم (القرن الثالث عشر - الثاني عشر قبل الميلاد)، وحتى هجران المنازل القديمة الأخيرة في القرن الميلادي العاشر، وحدها القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد هي التي برزت بوضوح، في الآثار كما في النصوص، وخلالها بلغت المدينة أوج مجدها دون شك. إلا أن اكتشاف المدينة الهلنستية والتنقيب في سوق ومنازل من القرون الوسطى ساهما فيما بعد في تصحيح تاريخها على المدى الطويل.

معبد بل

لا نعرف متى أنشيء أول حرم لـ بول - بل **Bôl-Bel**، غير أن مكانه لم يتغير دون شك.

تكريس المعبد

*في شهر تيشري **Tishri**، العام ٣٥٧ [تشرين أول ٤٥]، هذا التمثال هو تمثال ليشمش **Lishamsh**، بن طيبول، بن شوخابل، بني كومارا، الذي كرس المعبد للآلهة بل، ويرحيبول وأغليبول، مع أحرامه، في اليوم السادس، في نيسان، العام ٣٤٥ [٦ نيسان ٣٢]. أقامه أبناؤه تكريماً له.*

ج. كانتينو J. Cantineau

Inventaire des inscriptions de Palmyre,

IX, Beyrouth 1933, n° 1

مكتبة المهتدين الإسلامية

حاملة تكريم لـــ موقيمو

(آذار ٥١)

أقامــت مديــنة التمرييـــن صورة موقيمو هذه، بن أوجيلو، الملقب أيضاً هوكايشـــو لأنـــه كان محبباً إليها وإلى الآلهة إذ وهب الحرم، من جيبه الخاص، وعاء لإراقة الخمور ومبخرة ذهبية قيمتها ١٥٠ دانقاً، وأربعة أقداح ذهبية مقدسة [منقوشـــة؟] بقيمة ١٢٠ دانقاً، وغطاء ووسادة للسرير. [كلها] اشتريت بقيمة... دانقاً؛ من أجل تكريمه والاحتفاء به؛ العام ٣٦٢، في شهر ديستروس **Dystros**.

ج. كانتينو

Ibidem, IX, n° 8

تجارة القوافل التدمرية

لزم التدمريين الكثير من المهارة كي يجتذبوا إلى الصحراء التجار المعتادين على الطرق الأسهل كطريق وادي الفرات. ولما قدموا الأمان ووسائل النقل، أفادوا من وضعهم على الطريق الأقصر بين ما بين النهرين والبحر المتوسط.

تسجيل أثري تكريماً لـــ مليخوس،

بن نيشا (تشرين الثاني ٢٤)

في شهر كانون، هذا التمثال لمليخو، بن نيشا، بن بولها، الملقب حشاش، بني كومارا،، أقامه له كل التجار الموجودين في مدينة بابل، لأنه شجعهم بكل السبل، وساعدهم في بناء معبد بل، ومنحهم من جيبه، الأمر الذي لم يفعله أحد أبداً؛ لذلك أقاموا له هذا التمثال تكريماً له [نص بالتدمرية].

http://www.al-maktabeh.com

*مليخوس بن نيساس بن بولعاس الملقب أساسوس، من قبيلة الشومريين **Chomaréniens**. شعب التدمريين يكرمه، لحفاوته [نص بالإغريقية].*

ج. كانتينو

Ibidem, IX, n° 11

تسجيل أثري إكراماً لماركوس يولبيوس يرحاي

(آذار ١٥٧)

ماركوس يولبيوس يرايوس، بن حيرانوس، بن أبجر، الذي يحب وطنه. التجار الذين عادوا من سكيزيا على سفينة أنانيوس بن حدودان بن...لأنه ساعدهم وشد من أزرهم باهتمام كبير، يكرمونه، في شهر ديستروس من العام ٤٦٨ [نص إغريقي].

ج. ستاركي J. Starcky

Inventaire des inscriptions de Palmyre,
X, Damas, 1949, n° 96

أمراء تدمر

تمتعت تدمر، التي هيمنت عليها عائلات كبيرة سرعان ما كانت تتجدد، بوضع المدينة الإغريقية، كبقية مدن سورية الأخرى. ولزم أن تحدث الظروف الاستثنائية للغزوات الفارسية في منتصف القرن الميلادي الثالث كي يبسط أذينة سلطة ذات طبيعة أميرية أكثر منها مواطنية.

لما كان الوضع يسوده اليأس في الشرق، فقد أوكل غاليانس إلى أذينة، وهو تدمري رأى الأباطرة أنه أهل للشرف نظراً لأجداده، أمر معالجة الوضع؛ وضم هذا الأخير إلى الفيالق التي بقيت في الشرق كل ما استطاع

مكتبة المهتدين الإسلامية

من قوى خاصة وسار بحماس لملاقاة شابور، وأعاد الاستيلاء على المدن التي سبق أن احتلها الفرس، وأخذ نصيبين منذ الهجوم الأول التي كانت قد سقطت بيد شابور وكانت تشجع الجانب الفارسي. تقدم بنفسه لنحو طيسفون، ليس مرة واحدة، بل أيضاً مرة ثانية، وحاصر الفرس في دارهم، الذين سعدوا بأن ينسحبوا منها بأنفسهم مع نسائهم وأطفالهم؛ أما هو، فقد فرض قدر الإمكان النظام في المناطق التي كانت قد خربت؛ وعندما كان يحتفل بذكرى سنوية، خلال إقامة له في إميزا (حمص)، اغتيل عقب مؤامرة عليه، واستولت زنوبيا على السلطة في هذه المنطقة؛ وكزوجة لأذينة، وبفضل كفاءاتها الرجولية ومساندة رفاق زوجها، أخذت تحكم همّاً مماثلاً.

زوسيمس Zosime

Histoire nouvelle, I, 39,

ترجمة فرنسوا فاشو

Les Belles - Lettres, Paris, 1971

بلغنا الآن منتهى الخجل، إذ رحنا نرى، في قلب أزمة الدولة، بينما كان غاليانس يتصرف بشكل شنيع، حتى نساءً يحكمن بشكل ممتاز، فضلاً عن أنهن أجنبيات. في الواقع، كانت أجنبية اسمها زنوبيا تفتخر بأنها تنحدر من أصول الملكات كليوباترة والبطالسة، وقد أعقبت في الحكم زوجها أذينة، ووضعت على كتفيها المعطف الإمبراطوري، وتزينت على غرار ديدون وازدان رأسها بالتاج وحكمت باسم ابنيها حرنيانوس وطيمولاوس وقتاً أطول من المناسب بالنسبة لشخص من جنسها.

Les Trentes Tyrans,XXX, 1-2,

In Histoire Auguste. Les emperreurs romains des IIe - IIIe siècles

ترجمة أندريه شستنيول، Robert Laffont,Paris, 1994

---

http://www.al-maktabeh.com

الآلهة السورية

سرعان ما أقام الإغريق، الذين أثارت آلهة الشرق ومصر فضولهم، تطابقات بين آلهتهم الخاصة وتلك التي كانوا يكتشفونها. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية، ازداد الميل إلى مماثلتها بعضها بالبعض الآخر. وهكذا، مُثلت أترغاتيس، الإلهة السورية الكبرى بامتياز، بإيزيس، وكيبيلي Cybèle، وريا Rhéa وليكوثيا. إلا أن تأملات المثقفين هذه لم يتأثر بها المؤمنون كثيراً.

أدونيس في بيبلوس

ينتمي أدونيس – تموز إلى فئة الآلهة الفتية ضحايا حب غير مشبع لإحدى الإلاهات. ويرمز موته وبعثه إلى تجدد النبات السنوي.

رأيت أيضاً في بيبلوس حرماً كبيراً مكرساً لأفروديت بيبلوس، تقام فيه احتفالات إكراماً لأدونيس. وقد تعلمت من هذه الاحتفالات. يروي أهل بيبلوس إذن أن الحدث الذي أصاب أدونيس، بسبب الخنزير البري، وقع في بلادهم، وتذكاراً لهذا الحدث، يلطمون أنفسهم كل عام، وينوحون، وينظمون الأعياد، ويقيمون مراسم حداد كبرى في مقاطعتهم. وبعد أن توقفوا عن البكاء وعن لطم أنفسهم، أقاموا أولاً جنازة لأدونيس، كأنه ميت الآن؛ ثم في اليوم التالي، رووا أنه حي، وأرسلوه إلى السماء، وحلقوا شعورهم مثل المصريين بعد موت آبيس[٧٤]. أما النساء اللواتي لا يردن قص شعرهن، فقد وفين بما عليهن بدفع غرامة يحصلن عليها هكذا: عليهن أن يكن مستعدات، خلال يوم كامل، لاستثمار جمالهن. المكان الذين يتواجدن فيه لا يصله إلا الغرباء وحدهم، وتصبح الأجور التي يحصلن عليها قرباناً لأفروديت.

مكتبة المهتدين الإسلامية

هناك بعض السكان في بيبلوس يزعمون أن أوزيريس المصري مدفون عندهم، وأن كل هذا الحداد والاحتفالات لا تقام إكراماً لأدونيس، بل تنظم تكريماً لأوزيريس[٧٥]. سأقول إذن من أين تأتي أشياء بهذا الصدد قابلة للتصديق، هم يروونها. يأتي كل عام رأس من مصر إلى بيبلوس، عائماً، ويجتاز في سبعة أيام البحر الفاصل بينهما. تحمله الرياح في هذه الرحلة الإلهية. لا يحيد أبداً، ويرسو فقط في بيبلوس؛ حدث ذلك عندما كنت أنا نفسي موجوداً في بيبلوس، وتأملت هذا الرأس المصنوع من ورق البردي.

يمكن أن نسر بأعجوبة أخرى على أرض بيبلوس. إنها النهر الذي ينبع من جبل لبنان ويصب في البحر. وقد أعطوا هذا النهر اسم أدونيس. ولكن، في كل عام، يتضرج هذا النهر بالدم، وبعد أن يفقد لونه، ينسكب في البحر، ملوناً بالأحمر جزءاً كبيراً من الشاطىء منبهاً أهل بيبلوس إلى وقت الحداد. ويحكون أن أدونيس في هذه الأيام نفسها يكون مجروحاً على لبنان، وأن دمه، بعد أن يبلغ الماء، يغير (لون) النهر ويمنح مجراه هذا اللقب الذي له. ذاك ما يرويه معظمهم. لكن أحد سكان بيبلوس، الذي بدا لي يقول الحقيقة، قدم لي تفسيراً آخر للظاهرة. قال لي ما يلي: «نهر أدونيس، الغريب، يجتاز لبنان، وتربة لبنان الشرقية ضاربة جداً إلى الصهبة. وتنقل رياح عنيفة تهب في تلك الأيام هذه التربة إلى النهر، وهي في غالبيتها ليست إلا مغراء محمرة، وتضفي هذه التربة على ماء النهر لون الدم. إذن، ليس الدم، كما يقال، هو الذي يسبب هذه الظاهرة: إنها الأرض». ذاك هو التفسير الذي قدمه لي ابن بيبلوس. وإذا كان يتكلم حسب الحقيقة، فإن مصادفة الريح هذه تبدو لي مع ذلك إلهية للغاية.

بسودو – لوسيان السميساطي Pseudo - Lucien de Samosate

La Déesse syrienne, VI-VIII

ترجمة ماريو مونييه،

Paris, Editions de la Maisnie, 1980.

al-maktabeh
www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

هيراكليس - ملقارت الصوري

كان ملقارت الصوري دون شك أقدم إله فينيقي عرفه الإغريق، وقد مُثِّل فوراً بهيراكليس. وفي القرن الثاني، استعرض أريانس(٧٦) أوصافاً للتراث.

يوجد في صور أقدم معبد لهيراكليس حفظته ذاكرة إنسان؛ إلا أنه ليس هيراكليس أرغوس، بن ألكمينا. كان هيراكليس ذاك محط تبجيل أجيال عديدة في صور قبل أن يرحل قدموس(٧٧) عن فينيقيا، وينشىء طيبة وتكون له ابنة، سيميليه، أم ديونيسيوس، ابن زيوس [...]. وبالنسبة لهيراكليس المبجل عند الأيبيريين في ترتيسوس، حيث توجد الأعمدة المسماة باسمه، فأعتقد أنه هيراكليس الصوري، لأن ترتيسوس أنشأها الفينيقيون، وقد بني معبد هيراكليس هناك على الطريقة الفينيقية وعلى منوالهم كانت تقدم القرابين.

أريانس Arrien

Anabases,II,16,1 et 4

ترجمة بيير سافينل

Editions de Minuit, 1984

مكتبة المهتدين الإسلامية

أترغاتيس في هيرابوليس

من بين كل الأعياد التي رأيتها، كان أكثر احتفالية هو ذاك الذي يحتفل خلاله السوريون ببدء الربيع. يسميه البعض عيد المحطبة (أو المحرقة)؛ ويسميه الآخرون عيد المشاعل. هاهو القربان الذي يقدمونه والحالة هذه. بعد قطع أشجار كبيرة، ينصبونها في الساحة، ويحضرون بعد ذلك ماعزاً ونعاجاً ورؤوساً أخرى من الماشية الحية يعلقونها على الأشجار. يضيفون إليها طيوراً، وأقمشة، وأشياء ذهبية وفضية. وعند الانتهاء من كل هذه الاستعدادات، يحملون حول الأشجار الأوثان المقدسة، ويضرمون النار في المحطبة ويضطرم كل شيء في الحال. ويهرع إلى هذه الاحتفالية عدد كبير من المشاهدين من كل سورية والمقاطعات المحيطة بها. ويجلب كل شعب إلى المكان أوثانه المقدسة والرسوم التي رسمها لها كل شعب مقلداً أشكالها.

بسودو – لوسيان السميساطي
Les Déesses syriennes
ترجمة ماريو مونييه
Paris, Editions de la Maisnie, 1980.

---

http://www.al-maktabeh.com

« أبطال الإيمان »: الرهبان السوريون

كان الكثير من القديسين ذوي الأصول السورية موضع تبجيل الكنيسة الجامعة، وقد أثار الرهبان السوريون الدهشة والإعجاب معاً لقوة قناعاتهم وشجاعة نسكهم. وقد خصهم تيودور السيري (قيرهوس، شمال سورية)، وهو مؤلف غزير الإنتاج من النصف الأول من القرن الخامس، بأعمال كرسها للاقتداء بالمؤمنين والحث على الدعوة الربانية.

في دير تيليدا (بين أنطاكية وحلب):

تبدو أنطاكية أنها قد كانت منبتاً للأديار، التي بقيت منها حتى الآن آثار لا تحصى على مقربة من المدن الميتة في الكتلة الكلسية.

أميانوس الرائع ويوساب كانا جالسين على صخرة؛ أحدهما يقرأ الأناجيل القدسية والآخر يوضح له معنى الفقرات الغامضة. إلا أن المزارعين كانوا يفلحون الأرض في السهل الواقع تحتهم؛ التفت يوساب الكبير نحو السهل. لكن أميانوس الملهم، الذي كان قد قرأ فقرة من الإنجيل، ظل ينتظر الشرح؛ رجاه يوساب الكبير أن يتابع قراءته، غير أن أميانوس قال له: «طبعاً، أنت لم تسمعني، إذ تتلهى بالنظر إلى الحراثين». حينذاك، فرض يوساب على عينيه أن لا تنظرا بعد الآن إلى هذا السهل، ولا التمتع بجمال السماء وتناغم النجوم، غير أنه سلك درباً ضيقة جداً لم تكن حسبما قيل أعرض من كف اليد، كي يذهب إلى بيت العبادة، ولم يرض بعد ذلك خروجاً منه. ولكن يؤكدون أنه، بعد أن وضع هذه القاعدة، عاش أكثر من أربعين عاماً. ومن أجل أن يرفق قراره بشيء من القسر الذي يذكره به،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وضع حول أسفل ظهره حزاماً حديدياً ولف عنقه بقيد ثقيل جداً، وربط الحزام بالقيد بسلسلة من الحديد، كي يبقى بهذه الطريقة منحنياً دائماً نحو الأرض ناظراً إليها باستمرار. تلك هي العقوبة التي فرضها على نفسه لأنه نظر إلى أولئك المزارعين.

تيودور السيري Théodoret de Cyr

Histoire Philothée, IV,6

ترجمة ب. كانيفيه و أ. لوروا مولنغن

Paris, Le Cerf, 1977

أما آبا، فقد أمضى هنا ثمانية وثلاثين عاماً، بكثير من الرغبة في أن يعمل بالهمة نفسها. مثلاً، حتى هذا اليوم، لم يلبس حذاءً أبداً؛ أيام الصقيع، يقيم في الظل، وفي أوقات القيظ، يتعرض للشمس ويتلقى لهيبها كأنه نسيم. وخلال كل هذا الوقت، يأبى شرب الماء، رغم أنه لا يتناول تلك الأطعمة التي نلجأ إليها عادة عندما نمتنع عن الشرب، الغذاء الأغنى بالماء مثلاً؛ لكنه يأكل كبقية الناس، فيتناول القليل جداً من الأشياء، ويجد من غير الضروري أن يشرب. ورغم ثقل القيد الحديدي أسفل ظهره، نادراً ما يجلس؛ يظل واقفاً، الوقت الأكبر من النهار والليل، أو جاثياً وهو يؤدي الصلاة للرب؛ أما بالنسبة لنومه، فقد تخلى عنه كلية، والعجيب أن أحداً لم يره حتى هذا اليوم مستلقياً.

تيودور السيري

ibidem, IV, 12

---

http://www.al-maktabeh.com

القديس سمعان العمودي(٧٨)

كان أشهر الرهبان السوريين يتأمل واقفاً على عمود بني حوله أكبر دير في سورية.

في توقه لأن يزيد دائماً من كنز فضيلته، رغب، كما حدث لموسى وإيليا، هؤلاء الرجال الإلهيين، في أن ينقطع أربعين يوماً عن الطعام. سعى عند ذلك لإقناع باسوس الرائع، الذي كان يطوف في ذلك الوقت في القرى لزيارة كهنة الأرياف، كي لا يبقي شيئاً عنده وكي يسد بابه بالطين. ولكن، لما أوضح له الآخر صعوبة الأمر، وحثه على عدم الانتحار من أجل فضيلة، لأن ذلك أكبر الجرائم وأعظمها، رد بالقول: «حسناً، يا أبتاه، قال، اترك بجانبي عشر خبزات وجرة ماء، فإن وجدت جسمي يحتاج إلى طعام، سأتناول». ولبي طلبه: أعطي الخبز، وطلي الباب بالطين. وبعد أربعين يوماً، جاء رجل الدين الرائع باسوس، ولما أزاح الطين، واجتاز الباب، وجد الخبز كما هو وجرة الماء ملآى؛ أما سمعان، فكان منهاراً، بلا أنفاس، لا يقوى على سمع صوت ولا على القيام بأية حركة. أحضر باسوس إسفنجة، كي يبلله بالماء، ويسقيه، ويجرعه رموز الأسرار الإلهية.

تيودور السيري

Ibidem, XXVI,7

ليس أهل إمبراطوريتنا وحدهم يتوافدون، بل كذلك الإسماعيليون [...]، والفرس، والأرمن رعاياهم، والإيبيريون [...]، والحميريون [...] وأيضاً الشعوب الأكثر داخلية من هؤلاء. وكان يأتي كثير من سكان الغرب

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأقصى، إسبان، وبروتانيون (من شمال غرب فرنسا) وغاليون والقاطنون بين هؤلاء وأولئك. أما بالنسبة إلى إيطاليا، فلا لزوم للحديث عنها، ففي روما العظيمة، أصبح (سمعان)، كما قيل، من الشهرة بحيث نصبت له، عند مدخل كل حانوت، صور صغيرة على عمود كي يضمنوا بذلك للسكان نوعاً من الوقاية والحماية.

كان الزوار يفدون إذن بأعداد لا تحصى، محاولين جميعاً لمسه والحصول على بعض البركة بلمس معاطفه الجلدية الشهيرة. في البداية، وجد هذا الإفراط في التكريم في غير محله، ثم، عندما سبب له الأمر إرهاقاً لا يحتمل، تصور أن يستوي واقفاً على العمود. نحتوه له بارتفاع ستة أذرع في البداية، ثم بارتفاع اثني عشر، وبعد ذلك اثنين وعشرين، والآن بارتفاع ستة وثلاثين ذراعاً: لأنه كان يتوق لأن يطير نحو السماء، وترك هذه الدار الأرضية.

تيودور السيري

Ibidem, XXVI,11,12

---

http://www.al-maktabeh.com

حواشي الكتاب

١- الحثيون: من شعوب آسيا الصغرى قديماً. ازدهرت حضارتهم إبان الألف الثانية قبل الميلاد. أنشأوا إمبراطورية وصلت هيمنتها حتى سورية الشمالية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. انتصر عليهم رعمسيس الثاني في قادش عام ١٢٩٦، وقضى عليهم الآشوريون وشعوب البحر أواخر القرن الثالث عشر. «المترجم»

٢- الأكديون: من الشعوب السامية التي استوطنت بلاد ما بين النهرين. أنشأ الأكديون دولة قوية بقيادة سرجون الأول نحو ٢٢٣٥ قبل الميلاد. كانت حضارتهم مزدهرة وحلت لغتهم محل اللغة السومرية. «المترجم»

٣- الحوريون: من شعوب آسيا، استوطنوا أعالي ما بين النهرين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. أنشأوا مملكتهم ميتاني في القرن السادس عشر. «المترجم»

٤- الأشوريون: من الشعوب السامية التي سكنت فيما بين النهرين منذ القرن الثامن عشر. أسسوا إمبراطورية واسعة ازدهرت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. سيطروا على بلدان الشرق ووصلت سيطرتهم حتى شواطىء البحر المتوسط وفينيقيا ومصر. «المترجم»

٥ - إيبلا: مدينة تجارية كبرى ازدهرت في الألف الثالثة قبل الميلاد تقع جنوب غرب حلب. «المترجم»

مكتبة المهتدين الإسلامية

٦- الكنعانيون: من الشعوب السامية التي سكنت القسم الغربي من فلسطين وسورية وفينيقيا خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. «المترجم»

٧ - الآراميون: أحد الشعوب السامية. ظهروا نحو القرن الثالث عشر في بلاد ما بين النهرين والفرات الأوسط، أسسوا ممالك مستقلة في سورية، مثل حماة (القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ودمشق (حوالى القرن العاشر - التاسع ق. م). ومع سقوط دمشق في أيدي الآشوريين عام ٧٣٤ ق.م سقطت ممالكهم. إلا أن لغتهم، الآرامية، انتشرت في ما بين النهرين وإيران، وازدادت انتشاراً مع الفتوحات الآشورية والفارسية فأصبحت لغة الإدارة والتجارة في الشرق القديم. «المترجم»

٨ - اللاجيون، أو البطالسة: سلالة هلنستية أسسها بطليموس بن لاغوس من قواد الإسكندر. حكمت مصر ٣٢٣ - ٣٠ قبل الميلاد. أنهى حكمها أوكتافيانس عقب معركة أكسيوم وانتحار كليوباترة ٣٠ ق.م. «المترجم»

٩ - أنطونيوس مرقس: قائد روماني فتن بملكة مصر كليوباترة. هزم في معركة أكسيوم البحرية ٣١ ق.م. انتحر في حصار الإسكندرية. «المترجم»

١٠ - يهوذا المكابي: قائد يهودي حارب الملك السلوقي أنطيوخس الرابع وخلفاءه وحرر أورشليم. «المترجم»

١١- المملكة الحشمونية، المملكة التي أنشأها المكابيون (الحشمونيون)، سلالة متتيا، كاهن مودين وأبنائه الذين ثاروا على أنطيوخس عام ١٦٤ ق.م. «المترجم»

١٢ - كوماجينا Commagène: منطقة قديمة في شمال سورية، كانت مملكة مستقلة في القرن الثاني قبل الميلاد. أخضعتها روما عام ٦٤ ق. م. «المترجم»

١٣ - البارثيون Parthes: قامت دولة البارت أو الفارث أو الأشكانيين بين ٢٥٠ ق.م و ٢٢٤ م. فمع منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، أخذت القبائل الرحل التي تنزل بين

http://www.al-maktabeh.com

مشارف بحر قزوين وبلاد تركستان تضرب في الأرض كعادتها. ومن بينها قبيلة البارتيين وهي إحدى القبائل السكوذية Scythiens التي جعلت وجهتها السهول الممتدة شمال تلال خراسان فاستولوا عليها بعد أن أجلوا عنها سكانها عام ٢٥٠ ق.م. واقتطعوا الإمبراطورية السلوقية وأقاموا دولة البارت؛ على أنه لم يتهيأ لهم الاستيلاء على إيران كلها وإقامة هذه الدولة إلا بعد نحو قرن من الزمن. وقدر لهذه الأسرة مطاردة الإغريق المستوطنين ومحاربة الرومان الذين كانوا يعتقدون أنهم ورثة الإسكندر؛ لذلك زحفوا نحو تاغرب وأسسوا إحدى حواضرهم في «الحضر» في العراق، وكانت لهم صلات لا تنقطع مع تدمر. ويعتبر ميترادات الثاني (ميتراداد أو مهرداد، أي عطية ميثرا)، الذي تولى الحكم عام ١٢٣ ق.م، أول ملك بارتي يمكن مملكة البارت من الظفر بمكانة بين الدول. إلا أن المملكة وقعت مع مرور الأيام ضحية فتن داخلية، فانقسمت وتجزأت وظهرت فيها طبقات طامعة في الملك، واستغل الأمير الفارسي أردشير الوضع، فأغار على البارت وانتزع صولجان الملك من أرتبان الخامس وقتله عام ٢٢٤ م، ولقب نفسه بشاه الفرس وأسس أسرة الساسانيين. «المترجم»

١٤- سلوقية: اسم لعدة مدن أنشأها السلوقيون، أشهرها في العراق على نهر دجلة أسسها سلوقس الأول عام ٣٠٧ قبل الميلاد، وكانت عاصمة لمملكة سورية قبل التحول إلى أنطاكية. استولى عليها البارتيون عام ١٤٠ ق.م. على أنقاضها وأنقاض قطسيفون (طيسفون) بنى العرب مدينة «المدائن». وفي تركيا، كانت هناك سلوقية بيريا وسلوقية تراخيا. «المترجم»

١٥- تيغران الأرميني، هو تيغران الكبير الذي اعتلى العرش عام ٩٥ قبل الميلاد ومؤسس الإمبراطورية الأرمينية التي امتدت من البحر الأسود إلى بحر قزوين والبحر المتوسط. «المترجم»

١٦- بومبيوس (١٠٦ - ٤٨ ق.م): من قادة الرومان وأحد حكام روما الثلاثة مع قيصر وكراسس. فتح سورية وحولها إلى إقليم روماني. «المترجم»

مكتبة المهتدين الإسلامية

١٧- المدن العشر Décapole : اسم أطلق قديماً على منطقة تحيط ببحيرة طبرية وبالأردن وتمتد حتى شمال اليرموك، وفيها المدن الهلنستية العشر: دمشق، فيلادلفيا (عمّان)، سقيتوبوليس (بيسان)، بيلا (فحل)، جرش، قناتا (قناة)، جدارة (أم قيس)، ديوان (تل الأشعري)، هيبوس (قلعة الحصن)، إبيلا. «المترجم»

١٨- أوغسطس (كايوس يوليوس أوكتافيانس ٦٣ ق.م - ١٤ م) هو ابن قيصر بالتبني. أسس النظام الإمبراطوري بعد انتصاره في معركة أكسيوم. «المترجم»

١٩- تراجان Trajan (٥٣ - ١١٧)، إمبراطور روماني حكم من ٩٨ حتى ١١٧. وسع إمبراطوريته على نهري الراين والدانوب وتقدم حتى أرمينيا والجزيرة العربية وما بين النهرين. «المترجم»

٢٠- سبتيمس ساويرس، إمبراطور روماني ١٩٣ حتى ٢١١، من مواليد ليتيس ماغنا (لَبْدة اليوم / ليبيا). أدخل عبادات الشرقيين إلى الغرب. «المترجم»

٢١- كاراكلا، إمبراطور روماني ٢١١ حتى ٢١٧، ابن سبتيمس ساويرس. «المترجم»

٢٢- الساسانيون، سلالة فارسية أسسها أردشير الأول الذي استولى على طيسفون عاصمة البارتيين. من ملوكها كسرى الأول والثاني. غزت جيوشها سورية ومصر وأرمينيا. قضى الفتح العربي على آخر ملوكهم يزدجرد الثالث، وانقرضت دولة الساسانيين بموته عام ٦٥١. «المترجم»

٢٣- ديوقليتيانس (٢٤٥ - ٣٣١) إمبراطور روماني. عمل على إعادة تنظيم الإمبراطورية وأنشأ النظام الرباعي عام ٢٩٣. «المترجم»

٢٤- ثيودوسيوس إمبراطور روماني من ٣٧٩ حتى ٣٩٥. أعلن منشور تسالونيكي الذي جعل المسيحية دين الدولة عام ٣٨٠. بعد وفاته، اقتسم ولداه الإمبراطورية: حكم هونوريوس الغرب وعاصمته روما وحكم أركاديوس الشرق وعاصمته بيزنطية. «المترجم»

http://www.al-maktabeh.com

٢٥- ثيبة، مدينة يونانية تقع شمال غرب العاصمة أثينا. كانت عاصمة بيوسيا القديمة. ينسبون تأسيسها إلى قدموس الفينيقي. «المترجم»

٢٦- أوربا، ابنة أجينور ملك فينيقيا. أغرم بها زيوس، كما تقول الأسطورة، فترصدها بينما هي تجمع الزهور مع رفيقاتها قرب الشاطىء، وتجلى لها متخفياً في صورة ثور. وكان جلده أبيض اللون وقرناه دقيقين وأنيقين يتألقان كدرتين وقد نطقت ملامحه بالوداعة. أعجبت أوربا بوسامته ووداعته، فاقتربت منه ومدت زهوراً نحو شفتيه، فسر بذلك واستمتع وقبل في البداية يدها. ثم لما أنست له الأميرة، غامرت واعتلت ظهره دون أن تدري العاقبة. وما إن استوت عليه، حتى حلق الإله بها وبلغ وسط البحر، ففزعت الفتاة، وظل زيوس يتوغل إلى أن وصل إلى كريت، فعاد إلى صورته الحقيقية ولاطفها معلناً حبه لها. وبادلته الأميرة حباً بحب، وعاشرها زيوس وأنجب منها. ورأى زيوس أن يزوج أوربا إلى ملك كريت كي يأمن حملات زوجته «هيرا»، وأطلق اسمها على قارة أوربا، وما تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم. «المترجم»

٢٧- العصر الهلنستي époque hellénistique: يمتد هذا العصر بين ٣٢٣ و٣٠ قبل الميلاد، أي منذ وفاة الإسكندر الكبير وحتى غزو روما لمصر. وكانت الهلنستية تعني التحدث بلغة يونانية سليمة أو انتهاج السلوك اليوناني الأصيل، أي تقليد الإغريق في أسلوب حياتهم وثقافتهم. أما الإطار الجغرافي لهذا المصطلح فشمل مناطق واسعة، وضم: اليونان الكلاسيكية القديمة؛ وممالك آسيا ومصر الكبرى؛ والهوامش البعيدة والأقل بعداً التي تمتد من جبل طارق حتى الهندوس؛ وأوربا الوسطى وآسيا الوسطى وحتى أثيوبيا وشبه الجزيرة العربية. «المترجم»

٢٨ - تيباريوس: إمبراطور روماني حكم من ١٤ إلى ٣٧. كان أوغسطس والده بالتبني، وقد خلفه في الحكم. تميزت بدايات حكمه بالحكمة السياسية والتنظيم الإداري ثم بالتسلط في نهاياتها. «المترجم»

مكتبة المهتدين الإسلامية

٢٩- الرواقيون، أتباع الرواقية، المدرسة الفلسفية التي أسسها زينون (٢٠٠ ق.م) وتقول بأن الحقيقة مادية تسودها قوة توجهها هي الله. ولما كانت الطبيعة تسير وفق العقل فمن الحكمة أن يسير الإنسان وفق الطبيعة فينصرف عن ميول العواطف والأفكار التي تحيد به عن جادة القانون الطبيعي، كما أن حرية الإنسان هي رهن أدائه لواجباته في اتباع الطبيعة وقوانينها. تؤمن هذه الفلسفة بوحدة الوجود وعالمية المواطن، وتقوم على التسليم بحقيقة وصدق الإحساسات التي أثبتتها الفلسفة الأرسطية، أي تؤمن بأن الإنسان يلتقي وعيه بذاته أولاً وقبل كل شيء. «المترجم»

٣٠ - الكلبيون، من الكلبية، الفلسفة التي يكمن جوهرها في وجوب قصر الاستجابة لمتطلبات الجسد على حاجاته الضرورية فحسب لتمكين الروح من الانطلاق في حرية تامة. وقد أخذت النزعة الكلبية اسمها من ساحة كلب البحر التي كان يجتمع فيها للدراسة ديوجين الكلبي (٤١٣ - ٣٢٧ ق.م) وتلامذته الذين طوروا نظريته من بعده، وكانت نموذجاً فريداً للتيار العقلاني الزاهد الجديد، فأضافوا إليها الشك والابتعاد عن أخذ النفس بقواعد المجتمع والقيم المألوفة. وقيل أيضاً إن أصحاب هذه النزعة كانوا يتشبهون بفضيلة الكلاب من حيث وفائها وشجاعتها...«المترجم»

٣١- الأبيقوريون هم أصحاب مذهب اللذة في الفلسفة الأخلاقية التي أسسها أبيقور، وهي فن إسعاد الذات بالمتعة العقلية التي هي الخير الأوحد، وأساسها لذة التأمل التي لا يعتريها ألم. وقد عاش أبيقور في أثينا حتى سنة ٢٧٠ ق.م، ورأى أن اللذة خير والألم شر، وأن هذه اللذة هي تلك التي تحرر الجسم من الألم والروح من البلبلة، وأن وسيلة ذلك هي الحكمة التي تحررنا من قيود القلق والانفعال ورهبة الموت وتوجس المصائب... «المترجم»

٣٢- ميلياغروس، شاعر يوناني ولد في جدارة (الأردن) وعاش في صور. له ديوان «الإكليل». «المترجم»

http://www.al-maktabeh.com

٣٣- لوقيانس السميساطي: خطيب وفيلسوف يوناني. ولد في سميساط السورية. من آثاره «مسامرات الأموات». «المترجم»

٣٤ - يوحنا فم الذهب (٣٤٧ - ٤٠٧): قديس من آباء الكنيسة ومعلميها. من مواليد أنطاكية. أصبح بطريرك القسطنطينية بين ٣٩٨ و٤٠٤. وجاء لقبه فم الذهب لبلاغته. «المترجم»

٣٥- برديصان (نحو ١٥٤ - ٢٢٢)، فيلسوف ومنجم وشاعر، عاش في الرها، ألف باللغة السريانية أعمالاً عديدة، منها «حوار قوانين البلد» و «حول القدر». «المترجم»

٣٦- سترابون أو استرابو Strabon (نحو ٥٨ ق.م - ٢٥ م): جغرافي إغريقي. مؤلفاته Geographica هي جغرافيا عامة حول العالم القديم مع بداية الإمبراطورية الرومانية وتشكل مصدراً ثميناً للجغرافيا التاريخية. «المترجم»

٣٧- وهب اللات، ابن أذينة وزنوبيا ملكة تدمر. «المترجم»

٣٨- الغساسنة: سلالة عربية أصلها من اليمن، تركت بلادها بعد انفجار سد مأرب عام ٥٤٢ م. انتشرت في حوران وشرق الأردن وفلسطين وفينيقيا في لبنان. اعتنقوا المسيحية المونوفيزية. انضم بعضهم إلى الجيش البيزنطي وحموا الحدود السورية. من أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩) والمنذر بن الحارث (٥٦٩ - ٥٨١) الذي نفاه البيزنطيون إلى جزيرة صقلية. «المترجم»

٣٩- الرصافة: أطلال مدينة قديمة في بادية تدمر السورية. وهي سرجيوبوليس القديمة. سكنها الخليفة الأموي العاشر هشام بن عبد الملك ودفن فيها. فيها بقايا كنيسة القديس سرجيوس وقصر أموي. «المترجم»

٤٠- بوسيدون أو بوزيدون، هو نبتون الرومان، إله البحار الذي يسير البحار والعواصف ويمنح الأمن والسلامة للملاحين أو يرميهم في الموج ويتحكم بكل ما يحدث في البحر

مكتبة المهتدين الإسلامية

من تجارة ومعارك وصيد. تقول الأسطورة إنه كان له قصر من الذهب قواعده في البحر، وعربة ذهبية جيادها سريعة وذات حوافر وأعراف من الذهب. وكان أبوه كرونوس قد ابتلعه ساعة ولادته مثلما فعل مع إخوته، إلى أن جاء زيوس الذي جعله يلفظهم جميعاً. وكان البحر من نصيبه عقب تقسيم العالم بينه وبين زيوس، بينما احتفظ هاديس بالعوالم السفلى. «المترجم»

٤١- عشتروت هي إلهة الحب والخصب عند الفينيقيين، وهي عشتار أهل ما بين النهرين ومثيلة أفروديت اليونانيين وفينوس الرومان. «المترجم»

٤٢- أدونيس: إله الخصب والجمال والانبعاث في بيبلوس الفينيقية. قتله خنزير بري، غير أن عشتروت بعثته من الموت وأحبته. هو تموز عند البابليين. «المترجم»

٤٣- أترغاتيس: إلهة سورية كبيرة من شمال سورية، معبدها الوحيد كان في هيرابوليس بمبيقة (منبج الحالية) شمال حلب، حيث كانت مبجلة مع أدد. وكان قد تم إعادة بناء المعبد نحو ٣٠٠ ق.م في عهد الملكة شتراتونيقيا، ذلك جزئياً لأن عبادتها كانت منتشرة في مختلف أجزاء العالم الإغريقي، حيث كان ينظر إليها على أنها شكل من أفروديت. كانت أيضاً إلهة الخصب، ومسؤولة أيضاً عن سلامة شعبها ورفاهه، لذلك غالباً ما صورت وهي ترتدي تاجاً جدارياً وتحمل باقة من سنابل القمح، في حين كانت الأسود التي تحمل عرشها ترمز إلى قوتها وسلطتها على الطبيعة. وكانت أيضاً سيدة الماء والينابيع. «المترجم»

٤٤- العزى صنم عبدته قريش في الجاهلية إلى جانب اللات ومناة، وهو الزُهَرَة. أما اللات، فكانت أيضاً من أصنام العرب الكبرى، وهي عشتروت الساميين. «المترجم»

٤٥- ذو الشرى، كبير آله الأنباط. له هيكل في خربة التنور. إله الشمس. «المترجم»

٤٦- الأنباط: قبائل بدوية عربية سكنت فلسطين الجنوبية في القرن الرابع قبل الميلاد. كانت البتراء عاصمتهم. صدوا هجمات السلوقيين عام ٣١٢ قبل الميلاد. قضى عليهم

http://www.al-maktabeh.com

الإمبراطور الروماني ترايانس عام ١٠٦. تميزوا بحضارة هلنستية رفيعة، مثلما تدل آثارهم. «المترجم»

٤٧- نابو، إله الحكمة وفن الكتابة الآشوري - البابلي، ابن مردوك (كبير آلهة بابل، ابن أيا إله الماء. سادت عبادته في عهد حمورابي). «المترجم»

٤٨- دفنه: موقع قريب من أنطاكية هو حربية اليوم. كان في عهد السلوقيين مكاناً للراحة واللهو والتهتك. شيد فيه هيكل لأبولون حيث كانت تقام له أعياد سنوية باذخة. «المترجم»

٤٩- ميترا أو ميثرا Mithra، إله النور عند الفرس منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كان له دور في الحضارتين الهندية والفارسية، على نحو مختلف. وقد ارتبطت عبادته في إيران إلى حد كبير بإلهة المياه أناهيتا، ثم ارتقى بعد ذلك وأصبح حامي الحق وقاهر الزيف. وكان الحكام والقادة الذين يدينون بعقيدته يتوجهون إليه بالدعاء ويطلبون منه التأييد في حروبهم، إذ أن شجاعته في الحروب لا تجارى ويجمع بين المعرفة والقوة. «المترجم»

٥٠- سميساط مدينة سورية قديمة تقع على الفرات، واليوم هي سمزاط جنوب تركيا.شهدت ازدهارها في العصر الروماني. من أبنائها الخطيب والفيلسوف اليوناني لوقيانس وكذلك القديس لوقيانس الأنطاكي الذي علم في أنطاكية وأسس مدرسة لاهوتية فيها. «المترجم»

٥١- عندما رأى كرونوس أن أشقاءه يزدادون من أبيه أورانوس (السماء) وأمه جيا (الأرض)، صمم على أن ينهي هذا التكاثر، فكمن لأبيه حتى إذا رآه يهم بأمه سارع بقطع عضو أبيه التناسلي ورماه في أعماق البحر، غير أن مياهه سرعان ما انفرجت فإذا بعروس رائعة الفتنة والحسن تخرج منها، أفروديت، إلهة الحب والجمال والتناسل وإخصاب النبات والحيوان، التي تقدس الزهور وتبعث الحب في قلوب العاشقين

مكتبة المهتدين الإسلامية

وتربط بينهم برباط الزواج أو تحرمهم متعة الحب وتبيدها في قلوبهم. هي فينوس عند الرومان وعشتروت عند الفينيقيين والزهرة عند العرب. «المترجم»

٥٢- زيوس أو زوس أو زفس Zeus: سيد آلهة الإغريق، نشأ في جزيرة كريت برعاية الحورية ميليسيا «النحلة» التي أطعمته أقراص الشهد، والحورية أمالثيا التي أرضعته لبن الماعز التي حملت هذا الاسم نفسه، وقيل إن زيوس لما تعلق بأحد قرنيها انكسر، فعوضها بأن مسح على ضرعها فأصبح ندياً لا ينقطع دره. ولم يكد زيوس يكتمل نضوجاً حتى ارتقى إلى السماء وقد عزم على إيقاع العقاب بأبيه. وبعد أن هزم المردة «التيتان» وطردهم من السماء وخلع أباه عن العرش نُصِّب كبيراً لآلهة الأولمب الإثني عشر (إضافة إلى زيوس، هيرا، ديميتير، هستيا، هاديس، بوسيدون، هيفايستوس، هرمس، آريس، أبولو، أثينا، وأرتيميس)، وقسم الكون مستأثراً بالسماء والأرض وكل الظواهر الطبيعية، فيحرك العواصف والأعاصير يدك بها حصون خصومه ويهدد بها أبناءه البشر ويوزع الأقدار ويهوى بلا حساب... هو جوبيتر عند الرومان «المترجم»

٥٣- إسكليبيوس، إله الطب عند اليونان والرومان، وتقول الأسطورة إنه بعد أن تزوج الإله أبولو من كورونيس، خانته. وعلم أبولو بذلك من خلال رسوله الغراب. وأرسل شقيقته أرتيميس للانتقام منها، وقيل أيضاً إنه رماها هو نفسه بسهم قاتل. ولكن، لما كان يحبها حباً طاغياً، عاقب الغراب الأبيض الريش وحوله إلى غراب أسود الريش هو ذاك الذي نراه حتى الآن. وحين تيقن أنه لا يستطيع إعادة الحياة لها، انقض على جسدها الممدد وانتزع إسكليبيوس من رحمها ولم يكن قد ولد بعد، وأسلمه إلى القنطور خيرون الحكيم، الذي لقنه أسرار العشب وفن الطب والتطبيب وصار إله الطب. «المترجم»

http://www.al-maktabeh.com

٥٤- أثينا، إلهة الحكمة والفنون عند اليونان، هي مينرفا الرومانية. وتقول الأسطورة إنه لما رأى زيوس الحكيمة ميتيس راقت له فوطئها وحملت منه. وعندما صحا، خاف أن ينجب طفلاً لديه حكمة جده كرونوس وجدته جيا، فابتلع ميتيس وجنينها في أحشائها. لكن الجنين قفز إلى أم رأسه فأصابه بصداع راح يستفحل بنموه واكتمال أعضائه، فرق قلب الجنين لعذاب والده. ولم يجد بداً من شج رأسه بمطرقة، وفتح ثغرة لخروج الألم، فإذا بفتاة رائعة الجمال واسعة الحكمة تخرج من رأس أبيها. وعندما أرادت إطلاق اسمها على عاصمة اليونان، احتج بوسيدون وثار، غير أنه عندما لامست قدماها الأرض برقة انبثقت من تحتهما نبتتان رقيقتان كبرتا حتى صارتا شجرتي زيتون ترمزان للسلام، فقضى الآلهة بإطلاق اسمها على المدينة. «المترجم»

٥٥- ماركوس يوليوس فيليبوس، المسمى فيليب العربي (٢٠٤ - ٢٤٩): إمبراطور روماني من ٢٤٤ إلى ٢٤٩، ويعود في أصوله إلى قبيلة عربية في جبل العرب جنوب سورية. قتله الإمبراطور الروماني داقيوس. «المترجم»

٥٦- باخوس، إله الخمر وإخصاب الطبيعة عند الرومان. وهو ديونيزيوس عند اليونان، حيث كانت تنظم له احتفالات ديونيسيا التي تضج بالمرح والسكر والعربدة والموسيقى والرقص وذبح القرابين. «المترجم»

٥٧- هادريانس (٧٦-١٣٨): إمبراطور روماني ١١٧-١٣٨. أرخ باسمه الكثير من الآثار الرومانية في الشرق. «المترجم»

٥٨- اليهودية Judée: منطقة قديمة من فلسطين. «المترجم»

٥٩- باركوخبا، قائد يهودي أعلن نفسه مسيحاً، قاوم الفيالق الرومانية من ١٣٢ إلى ١٣٥. «المترجم»

مكتبة المهتدين الإسلامية

٦٠- ليبانيوس (٣١٤ - ٣٩٣): خطيب يوناني ولد في أنطاكيا. من تلامذته يوحنا فم الذهب. «المترجم»

٦١- جوليا دومنا، إمبراطورة من أصل سوري، سليلة أسرة حمصية كهنوتية. «المترجم»

٦٢- يوليانس (٣٣١ - ٣٦٣): نودي به إمبراطوراً عام ٣٦١. جحد الإيمان المسيحي وشجع الوثنية. قتل في معركة مع الفرس. «المترجم»

٦٣- يوحنا المعمدان، ابن زكريا (كاهن هيكل أورشليم). من أنسباء يسوع المسيح. قطع هيرودس ملك اليهود رأسه بتحريض من زوجته هيرودية نحو ٣١. «المترجم»

٦٤- إديسا Edesse، أورفا اليوم، الرها قديماً: مدينة تركية قريبة من الحدود السورية. كانت فيما مضى عاصمة الآداب السريانية. اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين عام ٣٦٣، وكان من أشهر أساتذتها مار أفرام السرياني ورابولا. «المترجم»

٦٥- أفرام السرياني (٣٠٦ - ٣٧٣) من آباء الكنيسة. امتاز بمديح العذراء مريم. «المترجم»

٦٦- يعقوب السروجي Jacques de Saroug (٤٥١ نحو ٥٢١): أسقف بطنا قرب إديسا، ألف بالسريانية مواعظ شعرية وأناشيد، ولكن ليست صحتها مؤكدة جميعاً، كما ألف رسائل يعبر فيها عن ميوله إلى عقيدة الطبيعة الواحدة. «المترجم»

٦٧- مذهب آريوس الذي ينكر وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة وينكر بالتالي ألوهية السيد المسيح. «المترجم»

٦٨- النساطرة: طائفة من المسيحية تنتسب إلى نسطوريون بطريرك القسطنطينية، الذي أعرض عن تسمية مريم العذراء بأم الإله. وقد عارضه كيرلس السكندري (بطريرك الإسكندرية ٤١٢ - ٤٤٤)، فانعقدت بسبب ذلك ثلاثة مجامع دينية متلاحقة كان

http://www.al-maktabeh.com

اخرها عام ٥٥٣. وقد ناصرت كنيسة أنطاكية مذهب نسطوريوس، ولكن لم تبق معه حتى النهاية سوى كنيسة فارس التي أصبحت الكنيسة النسطورية، ولا يزال لها أتباع في العراق وإيران ومالابار والهند، طقوسها سريانية شرقية، تسمى أيضاً الكنيسة الآشورية. «المترجم»

٦٩- هو سلوقس نيكاتور (٣٠٥ - ٢٨٠)، مؤسس سلالة السلوقيين، من قادة الإسكندر. أسس مدينة أنطاكية على نهر العاصي. «المترجم»

٧٠- تريبتوليمس Triptolème: بطل يوناني، قرنت الأسطورة اسمه بعبادة ديميتر (إلهة الخصب والزراعة) في مدينة إلوزيس اليونانية. «المترجم»

٧١- سلوقية بيريا، بناها سلوقس نيكاتور. تقع إلى الشمال من مدينة السويدية على البحر المتوسط شمال سورية. «المترجم»

٧٢- بوليبيوس: مؤرخ يوناني، توفي ١٢٥ قبل الميلاد. من مؤلفاته «تاريخ روما». «المترجم»

٧٣- بلينس الأكبر (٢٣ ، ٧٩ م): عالم طبيعة روماني مات خلال رصده لبركان فيزوف. «المترجم»

٦٤- آبيس Apis أو العجل الذهبي: إله مصري صغير من آلهة منف لا تربطه صلة بالآلهة الكبرى، ولم تكن له في العصور القديمة عبادات محددة الطقوس يؤديها الكهنة، ولكن أصبح له في العصور اللاحقة عدد كبير من الأتباع. وفي مقبرة آبيس في جبانة منف بسقارة بهو طويل تحت الأرض مع غرف فسيحة على الجانبين كلحود يرقد فيها العجل المقدس داخل تابوت حجري مستطيل بطول أربعة أمتار وعرض مترين ونصف المتر وارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر. «المترجم»

مكتبة المهتدين الإسلامية

٧٥- أوزيريس: إله النيل والزرع والخصب والنماء عند المصريين. أخ أيزيس وزوجها. قتل فبعث بفضل زوجته. «المترجم»

٧٦- أريانس: مؤرخ وفيلسوف يوناني من القرن الميلادي الثاني. له «الأناباز» (كتاب الصعود)، وهو وصف لحملة الإسكندر. «المترجم»

٧٧- قدموس: بطل فينيقي أسطوري. إليه ينسب إنشاء مدينة طيبة اليونانية. «المترجم»

٧٨- القديس سمعان العمودي (نحو ٣٨٩ - ٤٥٩): راهب تنسك في جبل سمعان قرب حلب، حيث عاش ٣٧ عاماً على عمود بنيت حوله فيما بعد كنيسة ودير كبير. «المترجم»

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول: ثلاثة آلاف سنة من التاريخ ٧

الفصل الثاني: ألق المدن ٣٧

الفصل الثالث: حضارة قامت على التبادل ٦٩

الفصل الرابع: الفلاحون، الرعاة، الرحل ٨٧

الفصل الخامس: عوالم الآلهة ١٠١

الفصل السادس: سورية المسيحية ١٢٥

شهادات ووثائق:.. ١٤١

مستكشفو سوريا في القرن التاسع عشر ١٤٣

المدن السورية ١٥١

الحياة على الطريقة الإغريقية ١٥٩

عالم القرى ١٦٨

تدمر ١٧٣

الآلهة السورية ١٧٧

أبطال الإيمان: الرهبان السوريون ١٨١

مكتبة المهتدين الإسلامية

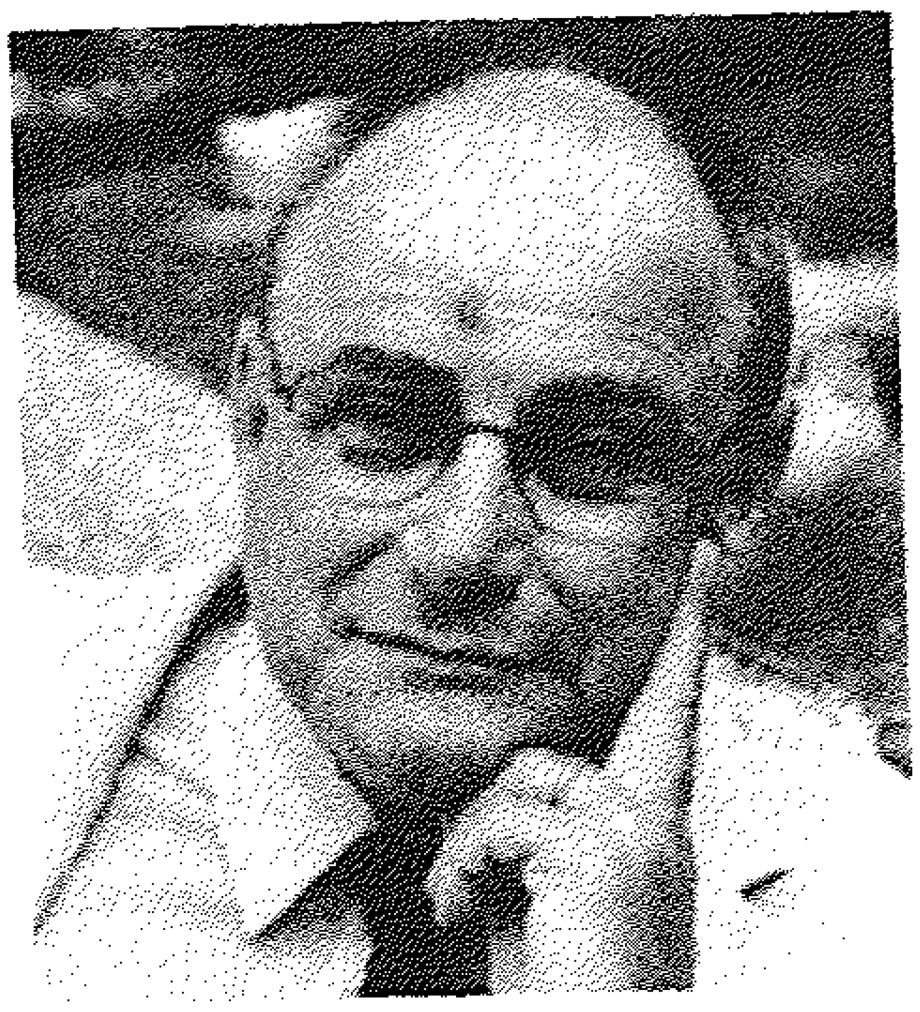

كرس موريس سارتر، أستاذ التاريخ القديم في جامعة فرانسوا – رابليه (تور) وعضو معهد فرنسا الجامعي، جل نشاطه العلمي لدراسة حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي المهلّن. التزم بنشر مجموعة «التسجيلات الأثرية الإغريقية واللاتينية في سوريا»، ونشر منها المجلدات المتعلقة ببصرى (١٩٨٢) والبتراء (١٩٩٣). من كتبه «الشرق الروماني. الأقاليم والمجتمعات الريفية في حوض المتوسط الشرقي من أوغسطس إلى سلالة ساويرس (Le Seuil 1991) ومن آسيا الصغرى وأناضول الإسكندر إلى ديوقليتيانس (Armand – Colin 1995)، ومن الإسكندر إلى زنوبيا. تاريخ المشرق القديم (القرن الرابع ق.م– القرن الثالث ب.م)» Fayard 2001.

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة المهتدين

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

http://www.al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

شكلت سوريا العصور الكلاسيكية، من البحر الأبيض المتوسط إلى ضفاف الفرات، بين الجبال والصحراء، إقليماً شاسعاً للتبادلات والمرور. وخلال ألف عام، من الإسكندر حتى ظهور الإسلام، امتزجت فيها ثقافات الفينيقيين، والآراميين، والعرب، واليهود والإغريق ثم الرومان. شكلت أنطاكية، وأفاميا، وصور، وصيدون، وبصرى وتدمر الإطار المدني المميز للحضارة الإغريقية اليونانية، وشهدت الأرياف ازدهاراً. إلا أن الإغريق والرومان لم يفرضوا نموذجاً للتنظيم الاجتماعي، ولا لغة، ولا آلهة. أمكن لكل واحد أن يعتنق الثقافة الجديدة أو لا يعتنقها، مشجعاً الامتزاج والتوفيقية في الوقت نفسه. أصبحت سوريا أيضاً، المنفتحة على كل العبادات، والقريبة من مهد الديانات التوحيدية الكبرى، أحد مراكز المسيحية الوليدة.

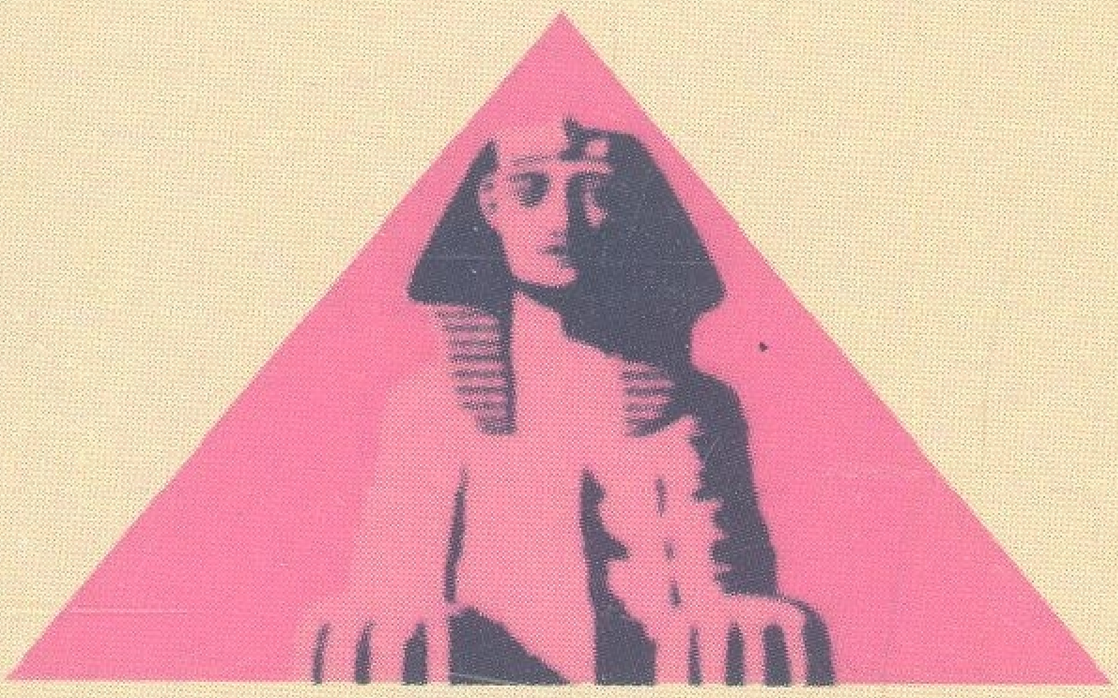

أفاميا، ودورا- أوروبوس، وتدمر، وصور، والرصافة، ودير القديس سمعان؛ سوريا هي حافظة أقدم صروح العالم القديم وموطن إنتاج الأعمال الحرفية الرفيعة، وحاملة آثار أعظم لحظات التاريخ الهلينستي والروماني. تشهد ١٥٠ وثيقة على هذا العصر الذهبي.

Bibliotheca Alexandrina
0725271

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ٢٣٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٤٦٠ ل.س

مكتبة المهتدين الإسلامية